الثقافة الجديدة



253





مجلة شهرية يصدرها الحزب الشيوعي العراقي

253

العدد 3 السنة 40 ـ كانون الثاني ـ شباط 1993

فهرست

■ ادب وفن

■ مقتطفات ومعالجات

من صحف: الغد الديمقراطي، الاتحاد، الموقف، صوت الجماهير، بغداد، نداء الرافدين، حركة المجاهدين.

الغلافان الأول والأخير فيصل قيامة آذار ١٩٩١

حول تصعيد الازمة بين النظام ودول التحالف

بعـد مرور عامين على «أم المعارك» إثر مغامرة الدكتاتور في غزو الكويت، تعود بغداد ومدن اخرى لتشهد مسلسلاً مأساوياً جديداً من الرعب والموت والدمار إثر تجدد القصف الجوي والصاروخي على العراق، وما جلبه ويجلبه من ضحايا بريئة من أبناء شعبنا والقوات المسلحة وخراب إضافي لوطننا.

ولقد بدأت المواجهة بتخلي صدام حسين عن تطبيق القرارات الدولية التي وقّع عليها، واسقاط طائرة عسكرية عراقية يوم ١٩٩٢/١٢/٢٧، بذريعة خرقها للحظر الجوي جنوبي خط ٣٢، لتتحول في الايام الاخيرة الى قصف جوي وصاروخي للعاصمة بغداد، وعدد من مدن المحافظات الوسطى والجنوبية.

ان الازمة الحالية التي تعتبر الاخطر منذ اندلاع نار المواجهة في «أم المعارك» ما كانت لتحـدث لولا إصـرار الـدكتـاتورية على عنجهيتها وتصرفها اللامسؤول وحساباتها الخـاطئـة واستهتـارها بمصير الشعب والوطن. ان همّ الدكتاتور هو السعي بكل الطرق والسبل للحفاظ على كرسي حكمه المتهاوي على حساب معاناة شعبنا وخراب بلادنا.

ولا يمكن تحليل الـدوافع الرئيسية وراء افتعال الدكتاتور للأزمة الراهنة إلا بتردي وتـدهـور الـوضع الاقتصادي وتفشي الظواهر الاجتماعية السلبية الخطيرة وعجز السلطة الحاكمة عن ايجاد مخرج للبلاد من المأزق الذي انحدرت اليه في ظل الدكتاتورية، ولجوء الحكام الى أساليبهم الشريرة المعهودة في البطش. كل ذلك زاد من مشاعر الاستياء لدى الجماهير الشعبية، ومن طموح هذه الجماهير للتغيير، قناعة منها باستحالة الانتقال الى حياة الاستقرار والامان والسلام في ظل الدكتاتورية الحاكمة. ولذا جاء افتعال هذه الازمة من قبل الدكتاتورية لاحباط مطالبة الجماهير الشعبية بنظام ديمقراطي تعددي على انقاض الدكتاتورية المقيتة. إضافة لذلك فان بقاء كردستان محررة من سطوة الدكتاتورية وتقويض امكانيات السلطة في عمليات البطش بين انصارها، ويجهز مما تبقى من هيبة الحكم ويثير

التداعي داخل المؤسسة الحاكمة وزبانيتها.

لذا فان الدكتاتورية تلوح دائماً وتناور من أجل إزالة قرارات حظر طياراتها جنوبي الخط ٣٢ وشمالي الخط ٣٦، لاستعادة سطوتها وفرض جبروتها على أبناء شعبنا.

ان الجنوح الى مغامرات جديدة وافتعال الازمات مع الولايات المتحدة وحلفائها تصب في مساعي الدكتاتورية لتصوير نفسها زيفاً «المدافعة» عن السيادة الوطنية و«الكفاح» ضد المخططات الامبريالية! غير ان اقطاب الحكم، رغم عباراتهم الطنانة ضد الامبريالية والمكرسة للاستهلاك المحلي، والديماغوغية، فانهم يلوحون على الدوام بعبارات التودد، تارة بحجم الاحتياطات النفطية وأخرى بضرورة العودة الى لغة الحوار والتفاهم. وتهمس السلطة الى اسماع ممثلي الامم المتحدة عن المراكز الحدودية وسبعة آبار نفطية إذعاناً لقرار مجلس الامن الدولي حول تخطيط الحدود بين الكويت والعراق. ثم يعلن ممثلو الدكتاتورية عن سماحهم لطائرات بعثات التفتيش الدولي بالمرور عبر المناطق المحظورة على طيران الطائرات العراقية بعد ان رفضوها سابقاً. أي المزيد من الخنوع والمهانة والتخبط في سلوك الحكام والمزيد من دفع الشعب والبلاد الى هاوية المجهول.

ان هذا التصعيد من جانب الدكتاتورية يصب في طاحونة الازمة المعيشية جراء الحصار الدولي ولا يفتح الآفاق أمام تسوية مقبولة لرفع المعاناة عن ابناء الشعب وانقاذه من الجوع والمرض والفاقه.

ومما يثير الانتباه ان توقيت الازمة من قبل الدكتاتورية تزامن مع تصاعد الضغوط على إسرائيل لحملها على التراجع عن اجراءاتها في ابعاد المواطنين الفلسطينيين من الاراضي المحتلة. وجاء التصعيد ليضع هذه القضية الانسانية والسياسية في مقام هامشي ليعطي المجال لاسرائيل للتخلص من الضغوط الدولية.

ان اولى نتائج هذا التصعيد والتصرف الطائش للدكتاتورية على النطاق الاقليمي، استعادة الولايات المتحدة وحلفائها تمركز قواتها البحرية في الخليج والبحر الاحمر، واستنفار قواتها الجوية وتعزيزها في المنطقة، ولجوء الكويت الى استدعاء وحدات من الجيش الاميركي والطلب من بريطانيا وفرنسا إرسال قوات حماية دائمة في الكويت، بذريعة مواجهة تهديدات صدام حسين ونزعاته التوسعية.

لقد طال القصف الجوي والصاروخي الاخير مؤسسات ومرافق سبق لهيئات التفتيش الدولية أن زارتها أو مرافق سكنية ذهب ضحيتها الابرياء، أو مواقع عسكرية لا تشكل خطراً على الآلة العسكرية للولايات المتحدة الاميركية وحلفائها. وهذا ما يدعو الى التساؤل حول دوافع ردود فعل الولايات المتحدة، وهي التي قدمت الدعم للدكتاتورية في الماضي. وبدلاً من التركيز والضغط عليها لتطبيق القرارات الخاصة في مجلس الامن

حول حماية المواطن العراقي ، نراها تركز أساساً على مرافق ومواقع لا تمس ولا تهز أركان الدكتاتورية . ويتساءل المواطن العراقي بمشروعية حول جدوى هذه العمليات العسكرية التي لا تمس الدكتاتورية بشيء بل تجلب الويلات لابناء الشعب الذي يئن تحت مطرقة الدكتاتورية ، وسندان القصف الجوي والصاروخي للدول الغربية . أو ليس من الواجب على هذه الدول ان تحشد امكانياتها السياسية والمعنوية لاسناد الشعب العراقي للتخلص من شرور الدكتاتورية المشينة ، بدلاً من القيام بأفعال لا تخدم إلا الدكتاتورية وادامة سطوتها على رقاب الشعب؟

ان الحزب الشيوعي العراقي يعلن عن قلقه العميق لعمليات القصف الجوي والصاروخي لبلادنا ، ويناشد المجتمع الدولي وخاصة هيئة الامم المتحدة ومجلس الامن الدولي للوقوف الى جانب الشعب العراقي ، بعربه وكرده وأقلياته القومية ، وتقديم الدعم المعنوي والسياسي له في نضاله ضد الدكتاتورية الحاكمة والعمل على تطبيق القرار ٦٨٨ ، الخاص بحقوق الانسان في العراق وعدم انفراد أية جهة بتفسير وتنفيذ قرارات الهيئات الدولية .

ان حزبنا الشيوعي العراقي يدعو المعارضة ، سواء داخل المؤسسات الحاكمة أو خارجها ويناشد جماهير شعبنا التحرر من حالات اليأس والترقب والتعويل على منقذ خارجي لا يمكن ان يكون ، في أفضل الاحوال ، إلا دكتاتوراً أقل طيشاً وشراسة من صدام حسين . ان تنظيم الجماهير الشعبية ، ورص صفوف المعارضة ، والانتقال الى الفعل الايجابي هو الطريق للاطاحة بالدكتاتورية ، مصدر كل الويلات والمآسي والمهانة والذل لوطننا العزيز.

ان حزبنا الشيوعي العراقي يناشد الجماهير الشعبية والجبهة الكردستانية وجميع قوى المعارضة في كردستان العراق اليقظة من التخريب والطابور الخامس للسلطة والاستعداد الشعبي السياسي والمادي ازاء مناورات الدكتاتورية واحتمالات مغامراتها لاستعادة سطوتها على كردستان،ويدعو حزبنا الى تمتين أواصر التحالف والنضال المشترك مع جميع ابناء الشعب العراقي ، عرباً وكرداً وأقليات قومية ، ومن مختلف الطوائف والانتماءات السياسية والفكرية للحفاظ على المنجز الكبير في تحرير مناطق واسعة من كردستان من نير الدكتاتورية والسعي المشترك من أجل تحرير جميع مناطق العراق من الكابوس المسلط على رقاب الشعب العراقي .

اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي

١٧ كانون الثاني ١٩٩٣

الجوانب الاقتصادية لحرب الخليج ١٩٩١

د. عباس النصراوي*

لتقدير كلفة حرب الخليج وعواقب هذه الكلفة على آفاق الاقتصاد العراقي ينبغي فهم ما خلفت الحرب العراقية ـ الايرانية (١٩٨٠ ـ ١٩٨٨) من نتائج واختلالات اقتصادية.

ان توفر الاحتياطي المالي، وكذلك المعونات المالية التي قدمتها الكويت والسعودية في المراحل الاولى من الحرب، قد ساعدت حكومة العراق على ابقاء الانفاق العسكري والمدني في مستوى مرتفع[١]. لكن هذا لم يعد ممكناً مع هبوط عوائد النفط من ٢٦,٣ مليار دولار عام ١٩٨٠ الى ٧,٨ مليار دولار عام ١٩٨٣، وذلك بسبب الدمار الذي لحق بمنشآت تصدير النفط اثناء الحرب، وكذلك الانخفاض الكبير في اسعار النفط بعد عام ١٩٨٢[٢].

وأدى هبوط عوائد النفط وظهور العجز المزمن في الميزان التجاري الى ارغام الحكومة على اللجوء الى سياسة التقشف وتقليص الانفاق، وشملت السياسة الجديدة تخفيضاً حاداً في الانفاق المدني، وتجميد مشاريع البنى الارتكازية، وتقليص الاستيراد، وتخفيض قيمة الدينار، وتقليص الاستثمار في قطاعي الصناعة والزراعة. ومما يدل على حدة مشاكل العراق الاقتصادية ان حصته من مجموع قيمة العقود التي تعاقدت عليها البلدان العربية المصدرة للنفط (اوابك) هبطت من ٣٠٪ عام ١٩٨٠ و٣١٪ عام ١٩٨١ الى ٩٪ عام ١٩٨٢ و٢٪ فقط عام ١٩٨٣[٣]. ثم ان العراق تحول من بلد دائن الى بلد مدين، لانه اضطر الى تمويل الاستيراد بالقروض قصيرة وطويلة الاجل، هذا بالاضافة الى الدعم المالي من السعودية والكويت بمعدل مليار دولار شهرياً في اول سنتين من الحرب[٤].

وكان للحرب آثار اخرى على الاقتصاد العراقي بما فيها النفقات العسكرية، وضياع العوائد

* استاذ للاقتصاد في جامعة فيرمونت بالولايات المتحدة.

النفطية، وهبوط الناتج الاجمالي، واختلال التخطيط، وزيادة حجم القوات المسلحة على حساب القوى العاملة المدنية، واللجوء الى استيراد العمالة من الخارج، والتبعية الاقتصادية، وتكاليف تغيير طرق التجارة الخارجية، والنفقات الكبيرة على معوقي وجرحى الحرب، وتسارع الهجرة من الريف، وزيادة الاستثمار في التصنيع العسكري. ولا يقل اهمية عن ذلك بالنسبة لمستقبل العراق الاقتصادي والاجتماعي ذلك العدد الكبير من قتلى الحرب الذي بلغ المليون للطرفين[٥].

لقد قدّر كارمان موفيد مجموع خسائر العراق الاقتصادية في السنوات الثمان من الحرب بحوالي ٤٥٢,٦ مليار دولار. وحسبنا القول ان ذلك يعني انه خسر سنوياً ما يعادل ١١٢٪ من ناتجه القومي الاجمالي. واذا نظرنا الى خسائر الحرب قياساً الى عائدات النفط البالغة ١٠٣,٩ مليار دولار خلال الفترة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨، نجد ان تلك الخسائر تزيد على اربعة امثال عائدات النفط[٦]. غير ان خسارة ٤٥٢,٦ مليار دولار لا تمثل سوى الخسائر المالية الناجمة عن الحرب. فهي لا تشمل العناصر غير النقدية مثل التكاليف الناجمة عن التضخم وخسائر خدمات ومداخيل قتلى ومعوقي الجرب، واستنزاف الموارد الوطنية، وخسائر الارباح المتوقعة من المشاريع التنموية المؤجلة، وكلفة التعليم والتدريب اللذين تأخرا، وعبء المعوقين على المجتمع[٧].

ازمة الاقتصاد العراقي قبل غزو الكويت

عند توقف الحرب مع ايران كان الاقتصاد العراقي يعاني ازمة خطيرة، فمنشآت تصدير نفطه في الجنوب كانت مدمرة، وقد ألحقت الحرب خراباً جدياً في بنيته الارتكازية، وظل جزء اساسياً من قواه العاملة مجنداً في القوات العسكرية، وتوجب استيراد اعداد كبيرة من العمال، وتعرضت خططه التنموية الى الارتباك، وشحت الاموال اللازمة للاستثمار فيها، وقد بلغ دينه الخارجي مستوى عالياً، واخذت خدمة الدين تستنزف الكثير من عوائد ه النفطية المتدنية، وتعطلت مسيرة تصنيع وتنويع الاقتصاد، وازداد اعتماده على استيراد الغذاء، وعانى تضخماً شديداً.

وبالاضافة الى ما سببت الحرب من . ـ وارباك مهدا التربة للازمة الاقتصادية التي اعقبت الحرب، كان هناك ثلاثة عوامل اخرى ذات تأثير خاص على تعميق هذه الازمة، وهي استمرار الهبوط في عائدات النفط، والمديونية الخارجية، وسياسات الحكومة للخصخصة (تحويل قطاع الدولة الى القطاع الخاص ـ المترجم). فتأثيرات هذه العوامل فاقمت الازمة الاقتصادية. فحاولت الحكومة حلها بغزو الكويت.

مديونية العراق

لم يتعرض العراق الى المديونية منذ اوائل الخمسينات. غير ان حرب الثمانية اعوام اضطرته الى الاقتراض عبر اسواق المال العالمية. ولا تتوفر معطيات دقيقة عن مديونيته، وليس هناك اجماع في الرأي حول هوية ديونه. وهكذا قدرت الديون بحوالي ٣٥ مليار دولار للحكومات والبنوك

الغـربية، و١١ مليار دولار للاتحـاد السـوفييتي واوربا الشرقية، و٤٠ مليار دولار للبلدان العربية الاخرى[٨]. غير ان الحكومة تميل الى اعتبار الاموال التي تلقتها من دول الخليج منحة أو معونة. ويتضح ذلك من التقرير الذي قدمته الحكومة الى الامم المتحدة حول احتياجاتها للفترة ١٩٩١ ـ ١٩٩٥ (نشر التقرير في ث.ج عدد ٢٣٨ ـ المترجم) وجاء في التقرير ان مجموع ديون العراق الخارجية يساوي ٤٢٠٩٧ مليون دولار في ١٩٩٠/١٢/٣١، وذلك بالاضافة الى الفوائد[٩]. ويؤكد التقرير ان على العراق تسديد ٧٥,٣ مليار دولار خلال الفترة ١٩٩١ ـ ١٩٩٥ لاطفاء الديون ودفع فوائدها. هذا يعني ان الحكومة قدرت التزاماتها لخدمة الديون بمعدل ١٥,١ مليار دولار سنوياً خلال الفترة المذكورة.

الخصخصة وسياسة الحكومة الاقتصادية

خلال الحرب مع ايران اضطرت الحكومة لتجنيد جزء كبير من القوى العاملة مما سبب شحة في العمالة بمختلف درجات المهارة. فعام ١٩٧٧ كانت القوات المسلحة ٢٦٢ ألف رجل، أي ٨,٧٪ من القوى العاملة، أما في ١٩٨٨ فبلغ تعدادها مليوناً، أي ٢١,٢٪ من القوى العاملة. ولتفادي آثار ذلك استورد عدداً كبيرا من العمال، خاصة من مصر[١٠]. ومن عواقب ذلك على ميزان المدفوعات ارتفاع تحويلات العمالة المستوردة، وقدرت عام ١٩٨٣ بحوالي اربعة مليارات دولار[١١].

غير ان من اهم انعكـاسـات ظروف الحرب عام ١٩٩٢ في السياسية الاقتصادية للحزب الحاكم هو التحول نحو دور القطاع الخاص في اقتصاد يخضع لادارة الحكومة. فقرر مؤتمر الحزب المنعقد في تموز ١٩٨٢ تشجيع القطاع الخاص. وجرى التأكيد علانية على هذا القرار من قبل الرئيس عام ١٩٨٤، ومرة اخرى عام ١٩٨٦ بقوله ان جميع نشاطات القطاع الخاص تشكل جزءاً من الثروة الوطنية ولها ما للقطاع الاشتراكي من اهمية[١٢]. وكرر ذلك عام ١٩٨٧ بالقول ان نموذجنا للاشتراكية لا يمكن ان يعيش دون القطاع الخاص، سواء الآن أم عقب الحرب[١٣]. (يتعذر ارجاع النصوص الى اصلها العربي حرفياً ـ المترجم).

وتعـززت هذه السياسة عام ١٩٨٧ ببرنامج طموح للخصخصة والليبرالية الاقتصادية. وإذ بقيت صناعات مثل النفطية، والدفاعية والفولاذية والبتروكيميائية وكذلك البنوك والتأمين والخدمات العامة، تحت سيطرة الدولة، فان الصناعات الاخرى احيلت الى القطاع الخاص، الامر الذي يشكل نكوصاً عن الايديولوجيا التي اعلنها الحزب الحاكم منذ ١٩٦٨. وابرز جوانب الاجراءات الجـديدة: ١ ـ بيع الاراضي والمـزارع والمصـانـع الحكومية الى القطاع الخاص، ٢ ـ تشجيع المشاريع الخاصة، ٣ ـ وقف التنظيم الحكومي لسوق العمل بالغاء قانون العمل. وبعد نشر الخطة، اعيد النظر في تنظيم مشاريع الدولة، وجرى تغيير بنية الوزارات والمؤسسات، وتشكيل شركات لادارة المشـاريع الحكـومية، وسنت قوانين لتشجيع استثمارات رأس المال العربي في العراق، وادخـال منـافسـة محـدودة في القطاع المصرفي، وتشجيع الصناعات المعوضة عن الاستيراد.

والسماح باستخدام الارصدة الخاصة في الخارج لتمويل الاستيراد، وتشجيع مبادرات رأس المال الخاص في الزراعة، واتاحة المجال لقيام اسواق للاسهم والسندات بغية توفير رأس المال للقطاع الخاص والاموال للحكومة (. . .).

من المهم ان جريدة (الثورة) الناطقة باسم الحزب الحاكم اكدت في مقالة بقلم رئيس مكتب الرئاسة انه تقرر عدم تدخل الحزب والامن في الاعمال اللازمة للمشاريع الانتاجية[١٥]. وهذه التغييرات أملت بعضها ظروف الهبوط في عوائد النفط، وامتداد الحرب اطول مما كان منتظراً، وتصاعد حجم المديونية الخارجية. فمن الادق القول ان الحرب وعواقبها سرّعت النزعات التي كانت تفعل فعلها من قبل. ففي عام ١٩٧٩ جرت اعادة تقييم السياسة الاقتصادية نظراً لعدم بلوغ هدف الخطة الخمسية ٧٦ - ١٩٨٠ بخصوص الاكتفاء الذاتي في الغذاء[١٦]. فبالواقع حصل حرج سياسي ومالي حين بلغت قيمة واردات الغذاء ١,٤ مليار دولار عام ١٩٨٠، وارتفعت الى ٢,٥ مليار دولار عام ١٩٨٤[١٧]. ولمعالجة هذه المشكلة دعي القطاع الخاص الى لعب دور نشط في الزراعة محفَزاً بالقروض الحكومية، وعرض الاراضي للايجار، وبيع المزارع الحكومية، والسماح بارتفاع اسعار المنتجات الزراعية، وزيادة التخصيصات اللازمة لاستيراد مستلزمات الانتاج الزراعي.

وعملت الحكومة على تحرير تجارة الاستيراد من القيود. ففي ١٩٨٤ سُن قانون يسمح للقطاع الخاص بالاستيراد دونما اجازة، الامر الذي يشجع عودة الاموال الخاصة المودعة في الخارج، وذلك بغية الحد من تأثير الهبوط في مداخيل الدولة من النقد الاجنبي[١٨].

ومما شجع على الانخراط في موجة الخصخصة، اخفاق القطاع الحكومي في التصنيع المعوض عن الاستيراد، ونشوء مجتمعات استهلاكية في الخليج وانتشار عدواها، وتزايد نفوذ اميركا في المنطقة، وحاجة صدام حسين الى توطيد سلطته، وجعل قاعدته اوسع من الحزب الحاكم[١٩].

وامتداداً للسياسة الليبرالية في الاقتصاد اتخذت الحكومة اجراءات لتشجيع تدفق رؤوس الاموال الاجنبية[٢٠]. لكن اهم دليل على حاجة الحكومة الماسة الى الاموال هو دعوتها للرأسمال الاجنبي لدخول قطاع النفط بعد ان كان محرماً عليه. واستهدف هذا الخروج عن السياسية المتبعة اغراء شركات النفط الاجنبية لتطوير حقول نفط جديدة وكذلك توفير رؤوس الاموال لمثل هذا التطوير[٢١].

ومن المهم ملاحظة ان الرغبة في تطوير العلاقات الحسنة مع الولايات المتحدة كانت من العوامل التي ساعدت على التحول الى سياسة اقتصادية اكثر انفتاحاً[٢٢].

تقييم السياسة الاقتصادية

اذا تركنا جانباً الاعتبارات السياسية والايديولوجية، يمكن القول ان سياسة الخصخصة أملتها الضرورة الاقتصادية. فهبوط عوائد النفط وارتفاع المديونية الخارجية قد اقنعا الحكومة بضرورة الاعتماد على القطاع الخاص لتوفير جزء من احتياجات الاقتصاد للنقد الاجنبي.

لكن خصخصة الزراعة اخفقت في زيادة الانتاج نظراً لتجنيد اعداد كبيرة من شغيلة الزراعة والفلاحين. كما اخفق تحرير التجارة الخارجية في اغراء القطاع الخاص لاعادة امواله المودعة في الخارج، بل قام بتصدير مبالغ كبيرة من العملة المحلية الى البلدان المجاورة لاستيراد السلع وبيعها في العراق بأسعار فاحشة، وقدر هامش الربح بـ ٥٠٠٪ احياناً. وشجعت هذه النزعة اوساطاً اخرى في القطاع الخاص على رفع الاسعار، مما ادى الى بلوغ التضخم معدلات لا سابق لها[٢٣].

ومما ساعد على ارتفاع الاسعار وارتفاع هامش الربح للقطاع الخاص انه ينشط في سوق احتكارية أو شبه احتكارية البنية. فحلول محتكر محل محتكر آخر في سياق الخصخصة يسمح للمالك الجديد بفرض الاسعار التي يريدها. ثم ان إلغاء التسعير رافقه ايقاف الدعم للمشاريع الحكومية، فلم يعد هناك ما يحدّ من تأثير التضخم.

وانطوت السياسة الاقتصادية الجديدة على مشاكل اخرى لانها لم تقترن بايجاد الاطر القانونية والاقتصادية والمؤسسية اللازمة لعمل القطاع الخاص. ودليل ذلك سرعة تحويل الملكية مما ادى الى بيع العديد من المؤسسات بأقل جداً من قيمتها الدفترية أو قيمة استبدالها. وكما لاحظ احد المتابعين «فقد كانت الاسعار المدفوعة، في اغلب الحالات، لا تكاد تغطي سعر الارض المقام عليها المعمل. ولا تطلب الحكومة دفع سوى ٤٠٪ من المؤسسة عند تحويل ملكيتها[٢٤]».

والاخطر من ذلك مشكلة تأثير الخصخصة على اعادة توزيع الدخل وكذلك إلغاء الدعم للمؤسسات التي تنتج أو توزع سلع الاستهلاك الاساسية بتكاليف واطئة تلبية لحاجة ذوي الدخل الواطيء أو الثابت. ونظراً لعدم ارتفاع الدخل بما يوازي التآكل في قدرته الشرائية، فقد ادت السياسة الاقتصادية الجديدة الى هبوط مستوى معيشة الملايين من العراقيين.

وازاء معدلات التضخم التي لا سابق لها، والبطالة العالية المتزايدة، اضطرت الحكومة الى التراجع عن سياستها في رفع اليد عن القطاع الخاص. فحاولت عام ١٩٨٩ الحدّ من آثار هذه السياسة باجراء عدة تغييرات، منها زيادة رواتب الموظفين، تخفيض اسعار بعض منتجات القطاع الحكومي، تجميد الاسعار لسنة واحدة لجميع ما ينتجه القطاع الحكومي من سلع وخدمات المستهلكين، وتخفيض مستوى الارباح من ٢٥٪ الى ٢٠٪ لمشاريع القطاع الحكومي والمختلط، وزيادة الدعم لمنتجي السلع الزراعية، وتخفيض المبلغ الذي يسمح للعمال الاجانب بتحويله الى النقد الاجنبي.

لعل مثل هذه الاجراءات منحت الحكومة متنفساً سياسياً لبعض الوقت، لكنها اخفقت في مواجهة الازمات المتعددة للاقتصاد العراقي. ولما فشلت اجراءات عام ١٩٨٩ في معالجة الازمة الاقتصادية المتفاقمة، اخذت انظار الحكومة تتجه نحو الجنوب، نحو الكويت.

غزو الكويت مخرجاً من الازمة

كانت عوائد النفط على الدوام اهم مصدر لعافية ونمو واعمار الاقتصاد العراقي. فهي

المصدر الوحيد للاموال اللازمة للاستيراد، ولخدمة الديون الاجنبية، ولضمانات التسديد، والقروض الجديدة. ولما كان العراق يعتمد على الاستيراد لتغطية ٧٠ - ٨٠٪ من احتياجاته الغذائية، بات من الواضح ان مداخيل النفط لا غنى عنها ليس فقط لانعاش الاقتصاد، بل كذلك امست ضرورية للاستقرار السياسي. غير ان الحكومة لا تستطيع التحكم بعوائد النفط، لان العوامل الخارجية تتحكم بأسعاره ومقدار صادراته.

من الناحية النظرية فان هذه الاسعار والصادرات خاضعة لقرارات (اوبيك). لكن ما لم تلتزم كافة البلدان الاعضاء بها تفقد فاعليتها لان خرقها من أي بلد يؤثر على صادرات وعوائد البلدان الاخرى. وهكذا عادت (اوبيك) بعد انهيار عام ١٩٨٦ لاسعار النفط الى تحديد السعر التأشيري للبرميل عند ١٨ دولاراً واعادة العمل بنظام الحصص. غير ان بعض البلدان عمدت الى تجاوز حصصها من الانتاج، فلم يرتفع سعره الى المستوى المتفق عليه، بل كان بمعدل ١٦,٩٢ دولار للبرميل في ١٩٨٧، و١٣,٢٢ عام ١٩٨٨، و١٥,٦٦ عام ١٩٨٩.

ونظراً لحاجة العراق الى استقرار وارتفاع عوائده النفطية فانه بالضرورة ركز اهتمامه على الاسعار بغية زيادة عوائده أو استقرارها على الاقل. ونال في مسعاه تأييد فنزويلا وايران والجزائر وليبيا ونجيريا. فهذه البلدان كانت بحاجة قصيرة الاجل الى المال وترغب في اطالة عمر احتياطياتها النفطية عن طريق التحكم بكمية الانتاج.

اما السعودية والكويت والامارات العربية فسعت الى زيادة العوائد بزيادة الانتاج حتى لو أدى الى هبوط السعر. فحجم احتياطياتها النفطية فضلاً عن قلة سكانها تجعلانها اقل من المجموعة الاخرى اعتماداً على سعر النفط.

وفضلاً عن ذلك، تتميز الكويت بقدرة استثماراتها الخارجية على توليد مداخيل تعادل عوائدها النفطية. وتنفرد الكويت بين البلدان المنتجة للنفط بامتلاك مصافٍ لنفطها وقنوات لتسويقه في الخارج. كل هذا يمنح الكويت حرّية الاستفادة من الكلفة الواطئة لنفطها الخام[٢٦].

وقد خفت حدّة النزاع بين بلدان المجموعتين جراء ارتفاع اسعار نفط (اوبيك) ابتداء من كانون الاول ١٩٨٨ حتى تجاوزت السعر التأشيري فبلغ ١٨,٨٤ دولار في كانون الاول ١٩٨٩ ثم استمر الارتفاع ليصل في كانون الثاني ١٩٩٠ الى ١٩,٩٨ دولار للبرميل. لكنه هبط بنسبة ٣٠٪ تقريباً بين كانون الثاني وحزيران ١٩٩٠ ليصل الى ١٣,٦٧ دولار. وحين نأخذ بعين الاعتبار صادرات العراق حينذاك من النفط، فقد كان هبوط سعر البرميل بدولار واحد يؤدي الى خسارة مليار دولار سنوياً. وقد تعمقت ازمته الاقتصادية جراء هبوط سعر النفط عام ١٩٩٠ مما دفع الحكومة الى استخدام قوتها السياسية والعسكرية لكبح الهبوط في السعر والعوائد بل لرفعهما كذلك.

لقد عبر وزير النفط الكويتي، على خليفة الصباح، اهم تعبير عن الفرق الجوهري في السياسة النفطية بين العراق والكويت إذ قال في شباط ١٩٩٠[٢٧]:

«اقول لكم، قبل كل شيء، ان انتاجنا الآن يتجاوز حصتنا. ولنتحدث بصراحة حول ذلك.

فانا اعتقد ان التزامنا في البقاء ضمن الحصة لا يسري إلا حينما يكون سعر (اوبيك) اقل من ١٨ دولار/ برميل، أما اذا كان السعر فوق ١٨ دولار/ برميل فاني ارى ان الجميع يجب ان ينتجوا متجاوزين الحصص».

ثم مضى الوزير الكويتي الى تأكيد سياسة حكومته في المستقبل قائلاً انه يأمل بقاء السعر التأشيري القائم وهو ١٨ دولار/ برميل عند مستواه لفترة لا تقل عن ثلاث أو اربع سنين. وحين سئل متى يودّ الغاء الحصص اجاب[٢٨]:

«حالماً يمكن. وهي من الناحية العملية قد أصبحت غير ذات موضوع، وتدعو الحاجة الى الاقرار بهذه الحقيقة».

فواضح من تصريحه أن الكويت تريد من (اوبيك) ثلاثة امور: ١ ـ ضرورة بقاء سعر النفط مستقراً من الناحية الاسمية عند ١٨ دولار/ برميل، ٢ ـ كلما رفعت قوى السوق السعر عن المستوى فان على البلدان التي تمتلك طاقات انتاجية غير مستخدمة، مثل الكويت، ان تزيد انتاجها بغية خفض السعر، ٣ ـ ان نظام الحصص يجب إلغاؤه.

ومن وجهة نظر الكويت ايضاً، تتسم هذه المقترحات بالعقلانية لان احتياطي الكويت من النفط الخام كبير بالقياس الى حجم سكانها، ولان لديها قنوات لتصريف نفطها في الخارج، ولان طاقتها الانتاجية كانت ٢,٥ مليون برميل يومياً أي بزيادة مليون برميل عن حصتها، ولان مداخيلها كبيرة من الاستثمارات الخارجية. وكان العراق، بكل هذه المعايير، غير قادر على منافسة الكويت، فلم يكن لديه طاقات انتاجية غير مستخدمة، وكان يريد المحافظة على الحصص، ولم يكن لديه دخل من استثمارات خارجية[٢٩].

وعلى كل حال فان هبوط سعر النفط بحوالي ٣٣٪ بين كانون الاول وحزيران ١٩٩٠ (من حوالي ٢٠ دولار/ برميل الى ١٣,٦٧ برميل/ دولار) قد استثار سلسلة من ردود الفعل العراقية. فوزير الخارجية عبر في اوائل ايار عن قلق بلاده العميق من خرق حصص (اوبيك) واعتبرها لعبة غير مسؤولة. وفي غضون ذلك أكدت جريدة (الثورة) ان سياسة الافراط في الانتاج تمثل محاولة منسّقة لنسف الاقتصاد العراقي، وربطت الافراط في الانتاج بـ «الحملة الصهيونية ـ الامبريالية ضد العراق»[٣٠].

وفي ٣٠ ايار عاد صدام حسين الى الموضوع نفسه في مؤتمر القمة الاستثنائي في بغداد فتحدث عن الضرر الذي يلحق بالاقتصاد العراقي نتيجة هبوط اسعار النفط، معتبراً عواقب هذا الهبوط مثابة حرب اقتصادية عدوانية تماثل الدمار الذي تحدثه الحروب التقليدية. ووجه الرئيس العراقي في مؤتمر القمة التحذير التالي[٣١]:

«بودي ان اقول لكل الاشقاء الذين لا يريدون الحرب، واولئك الذين لا ينوون شن الحرب على العراق، اننا لا نستطيع السماح بمثل هذا النوع من الحرب الاقتصادية التي تشن ضد العراق. واعتقد ان كل الاشقاء يعرفون وضعنا وهم مطلعون عليه وان هذا الوضع سيتحسن، ان شاء الله. لكنني اقول اننا قد وصلنا الى حالة لا نستطيع معها تحمل الضغط. واعتقد اننا سوف نستفيد جميعاً

وسوف تستفيد الامة العربية من الالتزام بمقررات (اوبيك) حول الانتاج والاسعار».

وتنطوي هذه التهديدات والتحذيرات على اعتراف الرئيس العراقي بالازمة الاقتصادية التي كانت تحيط بالعراق. ويتجلى الوضع اليائس للاقتصاد العراقي بقول صدام حسين «ان بضعة مليارات من الدولارات يمكن ان تحل الكثير مما توقف أو تأجل في حياة العراقيين»[٣٢].

وعقب مؤتمر القمة اعلن نائب رئيس الوزراء، سعدون حمادي، في الكويت ان مستهلكي النفط الغربيين على استعداد لدفع ٢٥ دولار للبرميل، وانه لا يعتبر هذا السعر مرتفعاً بأي معيار. واضاف مؤكداً ان السعر سيرتفع إذا تجنبت الكويت والامارات العربية المتحدة الافراط في الانتاج. وينبغي الاشارة هنا الى ان العراق لم يكن العضو الوحيد في (اوبيك) الذي يدعو الى الالتزام بحصص (اوبيك). فالبلدان الاخرى المنتجة للنفط سعت ايضاً لاقناع الكويت والامارات بتخفيض انتاجهما[٣٣].

في منتصف تموز كثف العراق ووسع جهوده ضد سياسة الكويت والامارات وذلك بتقديم شكوى رسمية الى الجامعة العربية متهماً الدولتين بما وصفها «عملية مخططة لاغراق سوق النفط بانتاج مفرط». واتهمت المذكرة العراقية الكويت بأعمال اشد خطورة من مجرد الافراط في الانتاج بالقول[٣٤]:

«فيما يخص الحكومة الكويتية، فان هجومها على العراق مزدوج. فهي من ناحية تهاجم العراق وتخترق حرمة اراضينا، وحقولنا النفطية وتسرق ثروتنا الوطنية. وهذا العمل يعادل العدوان العسكري. ومن الناحية الثانية تتعمد الحكومة الكويتية العمل على انهيار اقتصاد العراق خلال هذه الفترة التي يواجه فيها التهديد الامبريالي الصهيوني الشرير، وذلك يمثل اعتداء لا يقل عن العدوان العسكري».

وبالاضافة الى المطلبين الخاصين بأسعار وانتاج النفط طالب العراق بشطب مبالغ الدعم المالي الذي قدمته الكويت اثناء الحرب مع ايران، وذلك على اساس ان الحرب لم تكن للدفاع عن العراق فحسب، بل كذلك عن الجناح الشرقي من الوطن العربي، ولاسيما منطقة الخليج، ولان الحرب مكنت الكويت من جني مكاسب مالية كبيرة من بيع نفطها بأسعار اعلى. وفضلاً عن ذلك اعتبر العراق ان الامتداد غير المتوقع لسنوات الحرب وتصاعد كلفتها يبرران اعتبار القروض معونة. ولاسناد هذا المطلب اعلن ان كلفة الاسلحة التي اشتراها واستخدمها في الحرب قد بلغت ١٠٢ مليار دولار[٣٥].

وفي ١٧ تموز كرر صدام علانية اتهامات حكومته لدول الخليج وخاصة الكويت[٣٦]. وفي ٢٧ تموز، وفيما تحركت القوات العراقية على امتداد الحدود مع الكويت، قررت (اوبيك) رفع السعر التأشيري للنفط بمقدار ٣ دولارات فأصبح ٢١ دولار/ برميل. وقررت كذلك تعديل الحصص ومنع أي عضو من تجاوز حصته لأي سبب[٣٧]. غير ان هذه القرارات لم تنل فرصة الاختبار، لان غزو الكويت جاء بعد اتخاذها بأيام قليلة. وهكذا قررت (اوبيك) في ٢٩ آب ١٩٩٠ إلغاء الحصص والسماح للاعضاء بزيادة الانتاج دونما قيود[٣٨]، وذلك بغية تخفيض السعر. وقد

أفلحت بتخفيضه الى ١٧,١٩ دولار/ برميل في آذار ١٩٩١ بعد ان كان قد قفز من ١٥,٦٨ دولار في تموز ١٩٩٠ الى ٣٧,٢٢ دولار/ برميل في تشرين الاول. ويتسم قرار (اوبيك) في ٢٩ آب بانه اتُخذ تحت ضغط كبير، اشبه بالامر، من قبل الولايات المتحدة الاميركية.

العواقب الانسانية والاقتصادية للغزو

فيما يجادل مؤرخو السياسة وغيرهم من المحللين حول دوافع وأسباب وغايات الغزو، ليس هناك شك في ان الازمة التي احاطت بالاقتصاد العراقي كانت عاملاً حاسماً، ان لم تكن هي العامل الحاسم، لاتخاذ قرار غزو واحتلال وضم الكويت. ومن شأن استعراض بعض الادلة الاقتصادية ان يكشف عن عمل الازمة وديمومتها.

فتقلبات اسواق النفط ادت الى هبوط عوائد العراق النفطية من ذروتها بمعدل ٢٠٠٠ دولار للفرد الواحد من السكان عام ١٩٨٠، الى ٧٩٢ دولاراً عام ١٩٨٩ وهو ما يساوي المعدل لعامي ١٩٧٦ و١٩٧٧. واذا اخذنا بعين الاعتبار تآكل القوة الشرائية للدولار بفعل التضخم وتخفيض القيمة، يمكننا ادراك مدى هبوط هذا المورد.

كان متوسط الناتج المحلي الاجمالي للفرد بالاسعار الجارية ١٦٠٠ دولار عام ١٩٧٧ وهو الذي سبق ارتفاع سعر النفط تحت تأثير احداث الثورة الايرانية عام ١٩٧٨. وفي عام ١٩٨٩ ارتفع متوسط الناتج المحلي الاجمالي للفرد الى ٢٨١٨ دولاراً. وهي زيادة قدرها ٧٦٪ لكنها تفقد معناها عندما نأخذ بالاعتبار تآكل القوة الشرائية للدولار بفعل التضخم الحاد الذي قدرت معدلاته بين ٢٠٪ و٤٠٪ سنوياً خلال الثمانينات[41].

علينا اذن معرفة الناتج المحلي الاجمالي الحقيقي لكي نتبين التغير الذي طرأ على مستوى معيشة الشعب. وحسب معطيات الامم المتحدة، كان متوسط الناتج المحلي الاجمالي الحقيقي ١٦٧٤ دولاراً للفرد ثم هبط الى معدل سنوي قدره ١١٤٥ دولاراً للفرد خلال السنوات الست بين ١٩٨٣ - ١٩٨٨، مما يعكس هبوطاً في القدر الشرائية بنسبة ٣٢٪. والاكثر دلالة من ذلك ان مستوى الناتج المحلي الاجمالي للفرد عام ١٩٨٨ أمسى اوطأ مما كان عليه عام ١٩٧٥، الامر الذي يدل بوضوح على جسامة الخسائر الاقتصادية التي حلت بالشعب خلال الثمانينات[42].

والمؤشر الآخر لتدهور الاقتصاد العراقي يمكن ملاحظته في اداء الزراعة. فقد زاد عدد السكان بين ١٩٨٠ - ١٩٨٩ بنسبة ٣٨٪، لكن الانتاج الزراعي لم يرتفع إلا بنسبة ٣٤٪. أما انتاج الحبوب فهبط خلال نفس الفترة الى ٧٢٪ مما كان عليه في ١٩٨٠. أما متوسط انتاج الحبوب للفرد فكان ٥٢٪ فقط من مستواه في ١٩٨٠[43].

وبموجز القول، كان الاقتصاد العراقي عام ١٩٩٠ في نفق لا مخرج منه في الامد المنظور. وفي هذا السياق بالذات جاء قرار الحكومة العراقية باجتياح وضم الكويت. ولو نجح الضم لتحسنت آفاق نهوض الاقتصاد تحسناً كبيراً.

وقد شدد د. سعدون حمادي، نائب رئيس وزراء العراق للشؤون الاقتصادية، على اهمية الكويت الاقتصادية للعراق حين قال بعد شهر من الغزو ان بوسع العراق الآن ان يفي بديونه في اقل من خمس سنوات، وان احتياطي العراق النفطي قد تضاعف، وان «العراق الجديد» ستكون له حصة من انتاج النفط مقدراها ٦,٤ مليون بدل ٣,١ مليون برميل يومياً، وان مداخيل النفط ستكون ٣٨ مليار دولار في السنة، سترتفع في المستقبل القريب الى ٦٠ مليار دولار، وان القطاع الخاص سيشهد توسعاً كبيراً حين يتكامل الاقتصاد العراقي والكويتي، وان العراق سيتمكن من زيادة الانفاق على مشاريع التنمية والاستيراد زيادة كبيرة[٤٤].

لكن ما ان غزا العراق الكويت حتى جُمدت ارصدته في الخارج وفرض حظر شديد على صادراته ووارداته من قبل الامم المتحدة. وتنعكس فاعلية الحظر في انخفاض انتاجه النفطي من ٣,٣ مليون برميل يومياً في تموز ١٩٩٠ الى اقل من ١٤٪ من هذا المقدار في الاشهر التالية، أي الى ما يكفي للحاجة المحلية فقط. أما الخسائر المالية المترتبة على هذا الهبوط فتقدر بحوالي ٨,٥ مليار دولار في ١٩٩٠ وقدرت بين ١٥ الى ٢٠ مليار في ١٩٩١ و١٩٩٢ على التوالي.

ونظر لاعتماد العراق الشديد على الاستيراد لتوفير مستلزمات القطاع الصناعي، وسلع الانتاج والمعدات لكافة قطاعات الاقتصاد، والمستلزمات العسكرية للقوات المسلحة، والاغذية وغيرها من السلع للاستهلاك الخاص والعام، فلا عجب ان تظهر آثار الحصار في جميع قطاعات الاقتصاد خلال فترة قصيرة. ففي شهادة امام لجنة الشؤون الخارجية لمجلس الشيوخ الاميركي في ١٩٩٠/١٢/٥ ذُكر ان الحظر والحصار قد نجحا في وقف ٩٠٪ من استيرادات العراق و٩٧٪ من صادراته، واحدثا اختلالاً متزايداً في الاقتصاد وصعوبات متفاقمة للسكان. ولحقت الضربة الاشد بالصناعة جراء رحيل العمال الاجانب، ووقف استيراد مستلزمات الانتاج الصناعي التي تمثل ٦٠٪ من واردات العراق[٤٥].

أما تقديرات الحكومة العراقية لخسائر الحظر خلال الفترة ١٩٩٠/٨/٢ - ١٩٩١/١/١٧ فكانت ١٧ مليار دولار، منها ١٠ مليارات دولار من وقف تصدير النفط، و٥,١ مليار دولار من هبوط الانتاج، ومليار دولار من ارتفاع تكاليف الانتاج، و١,٧ مليار دولار من خسائر تأخير المشاريع التنموية، و١,٣ مليار دولار من خسائر اخرى[٤٦]. وقدر مصدر آخر ان الناتج المحلي الاجمالي قد هبط من ٦٦ مليار دولار عام ١٩٨٩ الى ٣٥ مليار دولار عام ١٩٩٠، أي بنسبة ٤٣٪[٤٧].

لكن ذلك الخلل والمعاناة المتزايدين لم يكونا سوى مقدمة اولية لكارثة الدمار التي حلت بالعراق في حرب الخليج التي دامت ٤٣ يوماً عام ١٩٩١. فكثافة وسعة القصف طالت جميع الاهداف العسكرية، والبنى الارتكازية والصناعة المدنية. فشملت قائمة اهداف القصف الابنية، وشبكتي النقل والاتصالات السلكية، ومحطات توليد الطاقة، ومعامل الاسمدة، ومجمعات الحديد والصلب، والجسور، ومنشآت النفط، والمصانع، والمستشفيات، ومنشآت الخزن. وما لم يتعرض للقصف، مثل منشآت تصفية الماء والمجاري، توقف عن العمل نتيجة قصف محطات الطاقة الكهربائية. وقد وصف تقرير البعثة الخاصة للامم المتحدة مدى هذا التدمير الناجم عن وحشية

كثافة القصف الذي قادته اميركا بالقول[48]:

«ولكن، ينبغي القول ان كل ما رأينا وقرأنا من قبل لم يؤهلنا كفاية لمثل هذا الشكل من التدمير الذي قد حل الآن بالبلاد. فالحرب الاخيرة كانت لها عواقب رهيبة لا تصدق على مجتمع كان حتى كانون الثاني ١٩٩١ مجتمعاً حضرياً وممكناً الى درجة عالية نسبياً. وها قد دمّرت أو تعطلت أغلب الوسائل اللازمة للحياة العصرية. وهكذا سيبقى العراق، لبعض الوقت، في اوضاع ما قبل المجتمع الصناعي. ومما يزيده عجزاً انه مجتمع كان يعتمد على الاستخدام الكثيف للطاقة والتكنولوجيا السائد في المجتمع ما بعد الصناعي».

تقدير الكلفة الاقتصادية

لغياب المعطيات الرسمية الدقيقة عن الدمار، من الصعب جداً معرفة مداه ومستلزمات اعادة الاعمار. فينبغي اعتبار التحليل التالي اولياً، ريثما تتوفر معطيات جديدة.

عند تقدير الاضرار التي لحقت بالاقتصاد العراقي، يجب أخذ العناصر التالية بعين الاعتبار:
١ ـ عواقب الخسائر البشرية، المدنية والعسكرية، ٢ ـ تكاليف التعويض عن الاصول المدمرة.

الخسائر البشرية

التقديرات المتوفرة تشير الى ان ما بين ٥٠ ألف ـ ١٢٠ الفاً من الجنود قد قتلوا في الحرب. أما خسائر المدنيين فقدرت اثناء الحرب بين ٥ آلاف ـ ١٥ ألف قتيل. وقدر عدد القتلى خلال شهر الانتفاضة التي اعقبت الحرب بين ٢٠ ألفاً ـ ١٠٠ ألف مدني. كما قدر ان ما بين ١٥ ألف ـ ٣٠ ألف من الاكراد وغيرهم من المشردين لاقوا حتفهم في مـ خيمات اللاجئين وعلى الطرقات، وان ما بين ٤ آلاف ـ ١٦ ألف عراقي ماتوا جراء المرض والجوع[49]، ومن العوامل التي ادت الى وفاة المزيد من المدنيين، خاصة الاطفال، انهيار العناية الطبية، ونقص الغذاء والدواء، وشحة مياه الشرب، وتدمير محطات توليد الكهرباء. وجاء في تقرير بعثة جامعة (هارفرد) الى العراق لشهر أيار ١٩٩١ ان حوالي ١٧٠ ألف طفل دون الخمس سنوات من العمر سيموتون من عواقب الحرب خلال السنة التي تعقب نهايتها، وهذا العدد هو ضعف عدد الموتى من الاطفال قبل الحرب[50].

وبالاضافة الى الوفيات بسبب الحرب، ثمة خسائر بشرية بأشكال اخرى يصعب حصرها كمياً. فهناك، اولاً، الجرحى، والمعوقون وغيرهم من المصابين جراء الحرب وما اعقبها، وهؤلاء جميعاً لا يعرف عددهم ولا مدى ما لحق بهم من اذى. وهناك، ثانياً، الاعداد الكبيرة من اللاجئين الذين حلت بهم المحنة نتيجة الاساليب التي استخدمتها الحكومة في قمع انتفاضة آذار ١٩٩١. فقد هرب حوالى ٢٨ ألف عراقي الى ايران بين كانون الاول ومنتصف آذار، وفي اواخر آذار هجر اكثر من مليوني كردي مساكنهم خلال ستة ايام، وهربوا الى ايران وتركيا، أو لاذوا بالاهوار على الحدود مع ايران. والفئة الثالثة تتألف من المدنيين المجندين في الحرب ليسرحوا بعدها في ظل

اقتصاد منكمش ينهكه التضخم، فلا يوفر غير البطالة والافقار. أما المجموعة الرابعة من الضحايا فتشمل اسر وعيال قتلى الحرب الذين لم يحصلوا على تعويض مالي، بعكس أسر القتلى في الحرب مع ايران[٥٢].

وفضلاً عن الكلفة الاقتصادية الراهنة للخسائر البشرية، هناك الخسائر بعيدة المدى التي لا بد ان يعانيها الاقتصاد العراقي. فعلى سبيل المثال، قدر ان حوالي نصف الذكور من عمر ١٨ - ٤٥ سنة قد جندوا في الجيش. وبالاضافة الى ذلك، لا بد ان يهبط معدل العمر المتوقع للذكور نتيجة حرب الخليج على غرار هبوطه المقدّر بعشر سنوات جراء الحرب مع ايران.

وصفوة القول فان خسارة ما بين ١٠٠ ألف - ٢٠٠ ألف شخص فعال علاوة على خسارة الحرب مع ايران بالاضافة الى الاعداد الضخمة من المصابين، ستؤثر على نمو وحجم الاقتصاد العراقي في المستقبل.

تعويض الاصول

(. . .) بالنسبة للدمار الاقتصادي للحرب فقد كان مثابة تكرار لما حصل في الحرب مع ايران، ولكنه اشد قسوة وتدميراً. فكاد القصف الذي قادته اميركا يزيل البنى الارتكازية في العراق من الوجود. فما ان جرى غزو الكويت حتى شخص المخططون العسكريون الاميركان ٥٧ هدفاً عسكرياً في العراق. ومع بداية القصف توسعت القائمة الى ٤٠٠ هدف، ثم توسعت اثناء الحرب الى ٧٠٠ هدف، وذلك لان العسكريين توخوا مضاعفة العواقب الاقتصادية والنفسية للحظر الدولي. وفضلاً عن ذلك «فان بعض الاهداف قصفت في اواخر الحرب بالدرجة الاولى للهيمنة على العراق عقب الحرب، لا للتأثير على مسار الحرب نفسها. ويقول المخططون الآن ان غايتهم كانت تدمير منشآت قيّمة لا تستطيع بغداد اصلاحها دونما مساعدة خارجية»[٥٥]. وهذا ما يتضح من تدمير منظومة الكهرباء التي دمرت ٩٠٪ من قدرتها لما قبل الحرب[٥٦].

(. . .) يشير تقرير للامم المتحدة بشأن احتياجات العراق الانسانية ان اعادة المنظومة الكهربائية الى كامل وضعها لما قبل الحرب سوف يكلف ٢٠ مليار دولار[٥٧]. وتفيد دراسة اخرى ان كلفة تعويض الاصول المدمرة خلال الحرب تبلغ ٢٠٠ مليار دولار[٥٨].

وهكذا فان كلفة تعويض المنظومة الكهربائية تتطلب من العراق انفاق ما يعادل دخله النفطي لعام كامل، شريطة ان يستطيع الانتاج والتصدير بطاقته الكاملة وبيبع النفط بسعر ٢٠ - ٢١ دولاراً للبرميل. وعلى غرار ذلك سيقتضي تعويض كل الاصول التي دمرتها الحرب انفاق ما يعادل دخله النفطي لعشر سنوات، أي اربعة امثال الناتج المحلي الاجمالي لعام ١٩٨٨.

وينبغي الاشارة الى ان كلفة تعويض الاصول المدمرة البالغة ٢٠٠ مليار دولار، المشار اليها اعلاه، تشمل كلفة المعدات العسكرية التي فقدت اثناء الحرب. وسواء اتيح للعراق الحصول على الاسلحة الجديدة أم لا، فان كلفة الاعمار هائلة، وذلك بالنظر الى صغر حجم اقتصاده. وعلاوة على ذلك ينبغي اضافة كلفة اعمار الاصول التي دمرتها الحرب مع ايران. وصفوة القول ان على

العراق في السنوات والعقود المقبلة ان يدبر الموارد اللازمة لاعادة بناء ما دمرته حربان في غضون أقل من عشر سنين.

مستقبل الاقتصاد العراقي

لا نجازف بالقول ان ليس هناك في العالم الثالث غير العراق،الثري بموارده، قد حصل على مثل هذا الدخل الكبير في غضون مثل هذه الفترة القصيرة وانتهى الى مديونية خارجية باهظة، ومديونية داخلية باهظة، وبنى ارتكازية مدمرة، واقتصاد منكمش منعزل، وسكان يعانون الافقار والجوع، وتوزيع مفرط التباين في الدخل. فلا يوجد بلد غيره عانى من عواقب مثل هاتين الحربين خلال عقد من السنين. فمن الصعب ان نرى كيف يمكن تلافي عواقبهما الاقتصادية.

احد مقاييس وضع الاقتصاد العراقي المتردي هو الناتج المحلي الاجمالي الحقيقي. فوفقاً لحسابات الامم المتحدة على اساس اسعار ١٩٧٥، كان هذا الناتج ٨,٥ مليار دولار (أي بمتوسط ٩٠٤ دولار للفرد) عام ١٩٧٠. وقد ارتفع عام ١٩٨٠ الى ٢٢,١ مليار دولار (أي ١٦٧٤ دولار للفرد). ونتيجة للحرب مع ايران هبط هذا الناتج عام ١٩٨٥ الى ١٧,١ مليار دولار (أي ١٠٨١ دولار للفرد). ثم شهدت الفترة ١٩٨٦ - ١٩٨٩ تحسناً تدريجياً في الاقتصاد بحيث ارتفع ذلك الناتج الى ٢٣,٣ مليار دولار (١٢٧٣ دولار للفرد)، أي ادنى بكثير من مستواهما لعام ١٩٨٠ لكنهما اعلى من مستواهما لعام ١٩٨٣[٥٩]. ولو فرضنا ان الناتج المحلي الاجمالي العراقي قد هبط بنسبة الربع في عام ١٩٩٠ بسبب الحظر ثم هبط بنسبة ٤٠٪ في عام ١٩٩١، لكان مستوى الناتج ١٧,٥ مليار دولار عام ١٩٩٠ و١٠,٧ مليار دولار عام ١٩٩١. وهذا يعني ان الناتج المحلي الاجمالي للفرد قد هبط الى ٩٢٦ دولاراً عام ١٩٩٠ والى ٥٤٦ دولاراً عام ١٩٩١. وتشير هذه الارقام الى ان الاقتصاد العراقي قد عاد القهقرى الى مستواه في اوائل السبعينات، أما متوسط دخل السكان فأمسى بمستوى اواخر الستينات.

وحين يكون الوضع بهذه الصورة الكئيبة، آخذين بالاعتبار مجموع خسائر الحربين، ترى ما هي الآفاق المحتملة لمعاناة الاقتصاد العراقي واعماره ونموه وتطوره؟

اولاً، بات العراق معتمداً على قطاع النفط اكثر من أي وقت مضى. لكن الحكومة محرومة من الوصول الى الاسواق الخارجية بفعل العقوبات التي فرضتها الامم المتحدة، والحظر الذي يمنع العراق من الاستيراد بحرية لسلع استهلاكية ومستلزمات انتاجية وسلع رأسمالية، بل عليه ان يحصل على اذن من مجلس الامن للاستيراد. وفضلاً عن ذلك فان القرار ٦٨٧ (الصادر في نيسان ١٩٩١ بشأن وقف القتال) يتضمن انشاء صندوق خاص للتعويضات، تديره الامم المتحدة، وتودع فيه من عوائد نفط العراق نسبة معينة (حددت في قرار لاحق بـ ٣٠٪) لدفع التعويضات المطلوبة من العراق عن أي خسارة أو ضرر مباشرين، بما في ذلك اضرار البيئة، ونضوب الموارد الطبيعية، أو الاضرار التي لحقت بالدول والافراد والشركات الاجنبية جراء غزو العراق للكويت. وبقبول ذلك القرار، ارتهن النظام، بالنتيجة، عوائد البلاد من النفط لأمد لا نهاية له.

فاذا كان قرار مجلس الامن في ١٥ آب ١٩٩١، الذي يسمح ببيع النفط العراقي، يبشّر بكيفية معالجة المبيعات في المستقبل، فان من الصعب ان نرى متى تستعيد الحكومة العراقية حرية التصرف فقد خوّلت بيع ما قيمته ١,٦ مليار دولار من النفط خلال مدة ستة أشهر وعليها اختيار المشترين، لكن مجلس الامن يجب ان يوافق على الشراء. ثم تودع ٣٠٪ من العوائد في صندوق التعويضات. أما البقية (٧٠٪) فتستخدمها الامم المتحدة لشراء الغذاء والدواء لتوزيعهما في العراق مع طرح تكاليف بعثات الامم المتحدة في العراق. ويعني ذلك ان عوائد النفط لن يصل منها شيء الى يد الحكومة العراقية. وبمثل هذه القيود على حريتها في التصرف، لم يجانب سفيرها في الامم المتحدة الدقة حين وصف الخطة بانها «تضع العراق تحت الوصاية»[٦٠].

ولكن حتى لو لم تكن هذه القيود مفروضة على تصرف العراق، فان من الصعب اعمار اقتصاده المحطم، والافلات من الحلقة المفرغة الحالية المتمثلة بالمديونية الخارجية، ونقص الموارد والتخلف. فلكي ينمو الاقتصاد ينبغي توظيف المال في قطاعاته المنتجة للسلع. وذلك يتطلب من الاقتصاد ان يولّد ادخاراً. ولكي يولد مثل هذا الادخار ينبغي ان يكون مستوى الدخل اعلى من مجموع الاستهلاك الخاص والعام.

وفي الثلاثين سنة الماضية ظل العراق شديد الاعتماد على عوائد النفط باعتبارها المصدر الاول للادخار والاستثمار. فكانت الحكومات المتعاقبة تجد من الضروري والسهل ان تستثمر الاموال في البنى الارتكازية والصناعة والزراعة. ومكنت عوائد النفط الحكومات من تحاشي فرض الضرائب لتمويل الاستثمارات. وبمقدار ما قدمت الحكومات من دعم ومن خدمات بتكاليف واطئة، أو مجاناً، فانها كانت تمكّن المجتمع من استهلاك يفوق الدخل القومي غير النابع من عوائد النفط. وبكلمة اخرى فان توفر الدخل النفطي جعل من الممكن للعراق ألا يدخر دونما حاجة الى الاقتراض، بغية التمتع بمستوى معاشي معين. لذلك يستحيل مطالبة المجتمع الآن ان يسير في اتجاه معاكس لتقاليد ونمط حياة ترسخت طويلاً، ومطالبته ان يمارس الادخار. وفضلاً عن ذلك فان من غير المجدي دعوة الناس الى الادخار وهم الآن على حافة المجاعة ولا يستطيعون الحصول على عمل أو دخل. ان شعباً قد عانى كل هذا الموت والدمار، نتيجة لسياسات ليس له دور في تزكيتها، لا يمكن دعوته الى التضحية بما ليس في حوزته. ذلك هو النفق المظلم الذي ينبغي ان تخرج الحكومة منه. فهل تستطيع الحكومة ان تنجح؟ هذا مستبعد جداً اذا ما اخذنا بالاعتبار اختلال التوازن بين الموارد التي تحت يدها والمطالب الضخمة على هذه الموارد.

بغية اعمار البنية الارتكازية، ولكي تعاود المصانع عملها، ولكي تُسدد القروض الاجنبية، ولكي يحصل الشعب على الغذاء والدواء، فان الاقتصاد ينبغي ان يكون قادراً على توليد ما يكفي من الدخل لدفع ثمن المستوردات اللازمة لتحريك الاقتصاد مجدداً. غير ان لدى العراق مصدراً واحداً فقط للنقد الاجنبي، وهو تصدير النفط. وبكلمة اخرى فان حظوظ المجتمع والاقتصاد مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بما يحدث للنفط، الذي يقرر هذه الحظوظ الى حد بعيد. ولكن الحكومة العراقية لا سيطرة لها على ما يحدث للنفط، بل تتقرر اسعاره في السوق العالمية.

وعنـد النظر الى سوق النفط في النصف الاول من عام ١٩٩٠ نجد انها متخمة بالنفط. وعندما يعود النفط العراقي الى هذه السوق فان على البلدان الاخرى ان تقبل بتخفيض حصصها من الانتـاج. ولنفـرض انها تقبل بذلك وان العراق سيصدر نفطه بالكمية التي كان يصدرها قبل الحرب وبسعر ٢١ دولار للبرميل، عندئذ سيتمكن من جني ٢١,٥ مليار دولار سنوياً. وسيكون تحت تصـرف العـراق ١٥ مليار دولار أي بنسبـة ٧٠٪ من المبلغ. أما بقيته فتودع في صندوق التعويضات حسب قرار مجلس الامن[61]. (ينبغي الاشارة الى ان سعر النفط في ١٩٩٣/١/١٩ كان ١٥,٠٥ دولاراً لنفط دبي و١٧,٣٠ دولاراً لنفط مزيج برنت و١٨,٨٥ لنفط غرب تكساس وذلك للتسليم في آذار القادم ـ المترجم).

ولو فرضنا ان العراق سيتمكن من التصدير بكامل طاقته خلال الفترة ١٩٩١ ـ ١٩٩٥، وهو امر غير متوقع، وكذلك يتمكن من بيع النفط بسعر ٢١ دولاراً، عندئذ يمكن ان يحصل في الخمس السنوات على ١٠٧,٥ مليار دولار بعد طرح حصة صندوق التعويضات. أما احتياجاته للسنوات الخمس نفسها فيتوقع ان تبلغ ٢١٤,٤ مليار دولار منها ٤٠,٨ مليار لتسديد القروض الاجنبية، و١٢,٤ مليار للخـدمات الصافية، و٤٨,٥ مليار للاستيراد، و٢,٤ مليار لتعويض المخزونات، و٢٠,٦ مليار لاعمار البنى الارتكازية المدمرة، و٥٥,٤ مليار لمشاريع الخطة التنموية[62].

وهكذا نرى ان العجز يقدر بحوالى ١٣٩,٤ مليار دولار أي ما يزيد على دخل تسع سنوات اخرى من النفط. وسيتباين العجز تبعاً لحركة السعر فوق أو تحت مستوى ٢١ دولاراً للبرميل.

والعامل الحاسم الآخر هو ما اذا كان مجلس الامن سيسمح ببلوغ صادرات العراق من النفط كامل طاقتها وان يستورد السلع حسب الخطة. لكن مهما كان قرار مجلس الامن، ومهما بلغ سعر النفط، فان العجز سيكون اكبر من ان تسده طاقات العراق التصديرية للنفط. ويترتب على ذلك اضطرار العراق الى اعادة جدولة ديونه والخضوع لقواعد «نادي باريس» بهذا الشأن، وهو ما حاول العراق دوماً ان يتحاشاه. ومن شأن ذلك بالتالي ان يضع العراق للمرة الاولى تحت رقابة صندوق النقد الدولي. أما الخيار الآخر فهو ان يلجأ العراق الى الحكومات الغربية طلباً لمنحه ائتمانات لاستيراداتـه السلعية. ولن يُمنـح هذه التسهيلات إلا تحت عدد من الشـروط تتعلق بسياسـاتـه الاقتصادية والخارجية. وصفوة القول، ستزداد تبعية العراق للنظام الرأسمالي الدولي على حساب حريته في التصرف.

قد يلجأ العراق الى تأجيل تنفيذ خطته التنموية ليقلص احتياجاته من النقد الاجنبي. ومن شأن ذلك ان يحدّ من نموه الذي تستهدف الخطة ان يكون بمعدل ٣,٦٪ سنوياً، وهو معدل واطيء أصلاً لاسيما حين نأخذ بالاعتبار ان الاقتصاد العراقي قد انحط الى ما كان عليه في السبعينات وان متوسط الناتج المحلي الاجمالي الحقيقي لا يتجاوز ثلث ما كان عليه في السبعينات.

ملاحظة ختامية

بصرف النظر عن الاسلوب الذي تدير به الحكومة العراقية سياستها الاقتصادية لفترة ما بعد

الحرب، فان خياراتها قليلة جداً ومحدودة جداً. لقد استغرق بناء الاصول في العراق خمسة عقود مستعيناً بعوائد النفط والخبرة الاجنبية. ثم ادت الحربان ليس فقط الى تدمير هذه الاصول بل كذلك الى افلاس البلاد مالياً، وافقار الشعب، وتخلف الاقتصاد، وتعميق التبعية للغرب. وادت الحربان ايضاً الى الاعتماد اعتماداً كارثياً ودائمياً على قطاع النفط. ومن الجدير بالملاحظة ان العراق حين اخذ يمول مشاريعه التنموية من النفط في مطلع الخمسينات كان عدد سكانه خمسة ملايين، أما في نهاية التسعينات فسيصل عددهم الى ٢٦ مليون نسمة.

ان آفاق العراق الاقتصادية معتمة حقاً وستمضي عقود من الزمن قبل ان يستطيع استعادة حيويته الاقتصادية.

ترجمة هاشم بشيء من الاختصار عن (المجلة الفصلية للعالم الثالث)
المجلد ١٣ العدد ٢ لسنة ١٩٩٢

الهوامش

[1] For a detailed analysis of these issues see Abbas Alnasrawi, 'Economic consequences of the Iraq – Iran war, *Third World Quarterly*, 8, (3), July 1986 pp 869 - 895
[2] See *Middle East Economic Digest* (MEED), various issues.
[3] See OPEC, *Secretary General's Annual Report*, Kuwait
[4] See The Economist Intelligence Unit, *Quarterly Economic Review of Iraq*, No 2, 1983, p 7; *Middle East Economic Survey* (MEES), 14 March, 4 April, 23 May, and 11 July 1983; K Mofid, *The Economic Consequences of the Gulf War*, London, Routledge, 1990, p 41.
[5] See, for example, *The New York Times*, 23 September 1985
[6] See Mofid, *The Economic Consequences*, pp 127 – 135.
[7] *Ibid*, p 127.
[8] See K Bradsher, 'War damages and old debts could exhaust Iraq's assets', *The New York Times*, 1 March 1991.
[9] See 'Iraq outlines dire economic prospects in plea to the UN for five year moratorium on war reparations', *Middle East Economic Survey* (MEES), 13 May 1991, pp D6 – D9.
[10] Economist Intelligence Unit, *Country Report: Iraq*, No 4, 1987, p 7.
[11] *Middle East Economic Digest* (MEED), 9 August 1985, p 5.
[12] *Middle East Economic Digest* (MEED), 15 February 1986, p 17.
[13] *Ibid*, 28 March 1987, p 18.
[14] *Ibid*, 15 August 1987, pp 6 – 7.
[15] EIU, *Country Report: Iraq*, No 4, 1987, p 7.
[16] For a good analysis of economic policy in the agricultural sector see Springborg, 'Iraqi infitah: agrarian transformation and growth of the private sector', *The Middle East Journal* 40 (1), winter 1986, pp 33 – 52.
[17] For Iraq's food imports see League of Arab States *et al*, *Joint Arab Economic Report, 1987*, p 267.
[18] See I El Khajaji, 'The war and the Iraqi economy', *Al Thaqafa Al Jadidah* (in Arabic), June 1989, p 11.
[19] Springborg, 'Iraqi infitah'.
[20] *MEED*, 18 November 1988, p 18.
[21] See *MEES*, 12 February 1990, p A10.
[22] See *MEED*, 4 July 1987, p 21 It is relevant to note in this connection that Iraq's interest to join the US to play a role in the security of the Gulf had already been voiced by Iraq's foreign minister Tariq Aziz in a 1984 interview when he said

> Iraq is the major power in the Gulf . . . A power for what? Not to change the governments in the area. Not to impose policies But, rather, a power which is an important partner in shaping the security, prosperity, and future of the 1980s . . . What I am saying is this: the US which is very concerned about how to secure this area, should consider the role that Iraq could play in helping to provide that security.

See A H Cordesman, *The Iraq – Iran War and US – Iraq Relations: An Iraqi Perspective, An Interview with Iraqi Foreign Minister Tariq Aziz*. Washington: National Council on US – Arab Relations, 1984, p 38.
[23] Estimates of inflation rates vary. According to data cited by Al Khafaji consumer price index (CPI) increased between 17% and 45% in the period 1980 – 86. The Economist Intelligence Unit places the CPI increase at between 25% and 45% for the period 1985 – 89 while the Iraqi government uses an average annual increase CPI of 17.7% for the period 1985 – 89. See Al Kafaji, 'The war and the Iraqi economy', p 6; Economist

Intelligence Unit, *Country Report, Iraq*, No 4, 1990, p 3, and 'Economic prospects', p D8.

[24] See K A Chaudhry, 'On the way to market, economic liberalization and Iraq's invasion of Kuwait', *Middle East Report*, May–June 1991, p 18. See also Economist Intelligence Unit, *Country Report: Iraq*, No 1, 1990, pp 10–11

[25] See *MEES*, 23 January 1989, pp B3–4 and *MEES*, 18 September 1989, pp B1–2

[26] See *MEES*, 15 January 1991, pp B2–B3

[27] *MEES*, 12 February 1990, pp 1–5

[28] *Ibid*

[29] For an articulation of Iraq's policy see R Salman, 'Iraq's oil policy', *MEES*, 12 March 1990, pp D1–6.

[30] See *MEES*, 7 May 1990, p A8

[31] See 'Documentation in Iraq–Kuwait crisis', *MEES*, pp D1–9.

[32] See 'Documentation' *MEES*, 22 July 1991, pp D1–D9.

[33] See 'OPEC lobbies overproducers', *MEED*, 6 July 1990, p 9.

[34] See 'Documentation', p D5. In a letter from the Kuwait's Director General of the State Security Department to the minister of interior reporting on the former's visit to the CIA the following item is reported:

> We agreed with the American side that it was important to take advantage of the deteriorating economic situation in Iraq to put pressure on that country's government to delineate our common border. The Central Intelligence Agency gave us its view of appropriate means of pressure, saying that broad cooperation should be initiated between us, on condition that such activities are coordinated at high level.

See P Salinger & E Laurent, *Secret Dossier: The Hidden Agenda Behind the Gulf War*, London: Penguin Books, 1991, pp 239–41.

[35] See 'Documentation', pp D6–D9. Another dimension of the oil dispute between the two countries was Iraq's contention that Kuwait took advantage of its preoccupation in the war with Iran to use diagonal drilling to produce oil from the Iraq side of the Rumailan oil field which straddle the border between the two countries. See 'Documentation', p D4.

[36] See 'Documentation on Iraq–Kuwait crisis', *MEES*, 23 July 1990, pp D1–9.

[37] See *OPEC Bulletin*, September 1990, p 7

[38] *Ibid*, p 8.

[39] See *OPEC Bulletin*, January and June 1991

[40] See Youssef M Ibrahim, 'OPEC members close to raising output ceiling', *The New York Times*, 28 August 1990.

[41] The lower inflation rate was reported by the government while the higher rate was estimated by outside agencies. For inflation rates for the period 1980–83 which were estimated by the government to have increased by 77%, see Ministry of Planning, *Annual Abstract of Statistics*, p 143. For the period 1985–90 the government reported a rise in the consumer price index of 126%. See 'Economic prospects', p D8. The much higher inflation rates may be found in Economist Intelligence Unit, *Country Report, Iraq*, various issues.

[42] For GDP data see United Nations, *Monthly Bulletin of Statistics*, July 1991, p 278.

[43] See Food and Agriculture Organization, *FAO Yearbook: Production, 1989*, pp 85–102.

[44] See 'Iraq, dreams and figures', *Tareeq al Shaab*, October 1990, p 5.

[45] See *The New York Times*, 6 December 1990, p A16.

[46] See *MEED*, 30 August 1991, p 22.

[47] *Country Report, Iraq*, No 1, 1990, p 3

[48] See *Report to the Secretary-General on humanitarian needs in Kuwait and Iraq in the immediate post-crisis environment by a mission to the area led by Mr Matti Ahtisaari, Under Secretary-General for Administration and Management, dated 20 March 1991*, p 5.

[49] See C Murphy, 'Iraqi death toll remains clouded', *The Washington Post*, 23 June 1991 and R Sinai, 'Greenpeace says 200 000 died in war', *Burlington Free Press*, 30 May 1991.

[50] Harvard Study Team Report, *Public Health in Iraq After the Gulf War*, May 1991, p 1.

[51] J Miller, 'Displaced in the Gulf War: 5 million refugees', *The New York Times*, 16 June 1991.

[52] For a brief review of some of these problems see K Evans, 'Years of war wrack Iraqi families', *The Christian Science Monitor*, 6 June 1991.

[53] C Haub, 'A demographic disaster', *Manchester Guardian Weekly*, 10 March 1991.

[54] B Gellman, 'Allied air war struck broadly in Iraq: officials acknowledge strategy went beyond purely military targets', *The Washington Post*, 23 June 1991.

[55] *Ibid.*

[56] See Harvard Study Team Report, Table 6.

[57] *MEES*, 29 July 1991, p D6.

[58] See A Kasslow, 'Shifting fortunes in the Arab world', *The Christian Science Monitor*, 26 June 1991, p 7.

[59] United Nations, *National Accounts Statistics: Main Aggregates and Detailed Tables, 1988*, New York, 1990, pp 821–27.

[60] See J Gray, 'UN decides to permit Iraq oil sale of $1.6 billion', *The New York Times*, 16 August 1991, p A8 and M Houk, 'Plan to allow Iraqi oil sale puts UN Chief in charge and Iraqi officials bristle', *The Christian Science Monitor*, 19 August 1991, p 6.

[61] It should be noted in passing that the $15 billion annual income translates in 1991 into $769 per capita or lower than the 1976 oil revenue per capita of $792 when total oil revenue amounted to $9 billion in that year.

[62] See 'Economic Prospects', *MEES*, 19 May 1991, p D9.

كردستان العراق: هل تصلح الفيدرالية ما افسده الحكم الذاتي؟

رياض الزهيري*

■ ارتبكت المعارضة العراقية وتحيرت بعد اعلان البرلمان الكردي في العراق (١٩٩٢/١٠/٤) قراره تبني الحكم الفيدرالي في منطقة كردستان العراقية. وجاء هذا القرار عقب اجتماع فصائل هذه المعارضة في كردستان خلال الفترة ٢٣ ـ ٢٧ من ايلول (سبتمبر) الماضي، حيث تراوحت ردود الفعل في صفوف هذه المعارضة بين الرفض والقبول والتحفظ.

ويبدو ان هذا القرار جاء لوضع المعارضة، التي لازالت مترددة في اتخاذ موقف صريح وواضح من القضية الكردية، امام الامر الواقع ولغرض التأكيد على ان صيغة الحكم الذاتي اصبحت بالية لا يمكن ان تلبي طموحات الشعب الكردي في العراق.

اسس هذا البرلمان قراره ذاك على المواثيق الدولية التي اقرت حق الشعوب في تقرير مصيرها وعلى البيانات الختامية لمؤتمرات المعارضة في فيينا وكردستان التي اعلنت قبولها لهذا الحق في اطار عراق موحد.

أما المعارضة العراقية فأعلن البعض منها تأييده لهذا القرار باعتباره يصب في الاهداف الديمقراطية التي تناضل من اجلها المعارضة، بينما اعلن البعض الآخر رفضه

* استاذ في القانون العام ـ لندن.

لهذا القرار باعتباره خطوة متقدمة نحو تقسيم العراق وتجزئته، في حين تحفظت قوى اخرى حيث رأت ان توقيت هذا القرار غير ملائم ويجب ان ينصب الاهتمام الرئيسي على اسقاط صدام حسين، بينما يرى آخرون ان مثل هذا الامر يحتاج الى استفتاء الشعب العراقي.

وعلى رغم هذا الاختلاف، يشترك الجميع في الفهم القاصر للنظام الفيدرالي اذ ان الجميع لا يدرك ما هو هذا النظام الفيدرالي الذي يرفضه أو يؤيده،فبيان البرلمان الكردي كان ضعيفاً من حيث التأسيس القانوني اذ استند الى المواثيق الدولية لاصدار هذا القرار، بينما النظام الفيدرالي المطلوب علاقة قانونية داخلية تؤسس بناء على الدستور والقانون العراقي لا القانون الدولي، وان كانت تلك المواثيق تبرر شرعية هذا القرار ولكن لا يصح الاستناد اليها لتأسيسه، كما استند هذا القرار الى البيانات الختامية لمؤتمرات المعارضة العراقية المشار اليها، في حين لا تعتبر هذه المؤتمرات سلطات دستورية أو قانونية دولية أو داخلية يستند اليها البرلمان الكردي في اتخاذ مثل هذا القرار الخطير. كما ان مثل هذا التأسيس يجرد هذا القرار من قوته التشريعية ويجعله قراراً ذا طابع سياسي وهو ما لا يختص به البرلمان الذي يقتصر اختصاصه على اصدار القرارات التشريعية لا القرارات السياسية، علاوة على ان النزول بمستوى هذا القرار الى مستوى القاعدة التشريعية المحلية سيجعله معرضاً للالغاء أو التعديل بموجب اية قاعدة دستورية أو تشريعية اعلى.

لذلك اعتقد ان هذا التأسيس الذي استند اليه هذا البرلمان كان احد الاسباب الرئيسية التي دفعت ببعض قوى المعارضة اعلان رفضها أو تحفظها عن هذا القرار، علاوة على عدم وضوح فكرة الفيدرالية لدى هذه القوى وتصوراتها الخاطئة عن حدود النظام الفيدرالي.

لماذا يرفض الاكراد؟

ارتبطت صيغة الحكم الذاتي للاكراد في العراق بقانون ١٩٧٤ الذي صدر في ظل بيئة دستورية وقانونية وسياسية تكرس استبداد السلطة المركزية وهيمنة الحزب الواحد لذلك لم يشذ هذا القانون عن هذه البيئة، بل ساعد الحكم المركزي ووفر له الظروف التامة لسلب حقوق سابقة تحققت للاكراد في ظل العهود السابقة. واستخدمت السلطة-لهذا الغرض - مفهوماً قانونياً متقناً في صياغة البناء الداخلي لنصوص هذا القانون تمكنت به من تجريد الحكم الذاتي من مفهومه الحقيقي وابقته اسماً من دون جوهر، ويتضح ذلك مما يلي:

١ ـ لم يحدد هذا القانون في نصوصه المفهوم القانوني الدقيق للحكم الذاتي. وإنما اعتبر كردستان «وحدة ادارية واحدة» وليست وحدة اقليمية سياسية ولهذا اصر هذا القانون على تسمية كردستان بـ «منطقة» ويرفض تسميتها «اقليماً»، الامر الذي نتج عنه حصر مفهوم الحكم الذاتي في نطاق الادارة فقط بل دون ان يمتد الى الحكم (الفقرة ج.م١ من القانون). بينما يعرف الحقوقيون ان الحكم الذاتي ليس صيغة للادارة فقط وإنما هو نظام للحكم كذلك.

٢ ـ لم يرد أي نص في هذا القانون يشير الى مبدأ «الاستقلال الذاتي» الذي يعتبر العنصر الجوهري في مفهوم الحكم الذاتي، بينما يركز هذا القانون في عدة نصوص على مبدأ وحدة الدولة في حين يقتضي هذا المفهوم الاعتراف بالمبدأين وتحديد عناصر تلازمهما.

٣ ـ حددت المواد ١٢ و١٥ و١٦ من هذا القانون اختصاصات مجالس الحكم الذاتي ونطاقها، وهي اختصاصات محدودة جداً غير قابلة للتوسع أو التطور بحكم ما ورد في نص المادة ١٦ اعلاه التي اعتبرت جميع الاختصاصات وما يستجد منها خارج نطاق ما هو محدد في المواد ١٢ و١٥ اعلاه يعود الى السلطة المركزية. اضف الى ذلك ان هذا القانون لم ينص على إلغاء أي نص أو قرار يتعارض مع الاحكام الواردة فيه مما فتح ثغرة قانونية كبيرة لقيام السلطة المركزية في تحجيم وتقليص اختصاصات هذه المجالس.

٤ ـ ان فحص القوة القانونية لقرارات المجلس التشريعي الذي تشكل استناداً الى هذا القانون يجعلنا نؤكد على انها مجرد قرارات ادارية لا تصل في مرتبتها الى مستوى التشريع، حيث وضعها القانون في درجة اقل من درجة النظام الصادر عن السلطة المركزية الامر الذي يؤكد ان هذا المجلس لا يحمل صفة تشريعية وإنما هو هيئة ادارية يمكن لأي هيئة مركزية إلغاء أو تعديل قراراته.

٥ ـ اشترط هذا القانون في ان يكون المرشح لعضوية مجالس الحكم الذاتي «عراقياً بالولادة من ابوين عراقيين بالولادة» ويترتب على ذلك عدم جواز الترشيح من قبل عراقي من ابوين عراقيين اكتسب كلاهما أو احد هما الجنسية العراقية عن طريق حق الاقليم أو التجنس. علاوة على ذلك فان هذا الشرط لم يشترط في ان يكون المرشح عراقياً كردياً أو من سكان اقليم كردستان الامر الذي ادى عملياً الى ادخال عناصر غير كردية أو أكراد ممن لا يقيمون في هذا الاقليم في هذه المجالس لموالاتهم للسلطة المركزية والحزب الحاكم خاصة وان القانون لا يوجب ان يحسن المرشح القراءة والكتابة باللغة الكردية وإنما اجاز الترشيح لأي «عراقي» يحسن القراءة والكتابة بـ «احدى» اللغتين العربية أو الكردية.

لكل ما تقدم اصبحت العودة الى صيغة الحكم الذاتي لتقرير مصير الشعب الكردي

في العراق مرتبطة بالخوف من ان تكون هذه الصيغة هي ذاتها التي اوجدها هذا القانون. كما ترسخ مفهوم الحكم الذاتي في ذهن جميع العراقيين وليس الاكراد فقط بهذه الصورة التي رسمها قانون سنة ١٩٧٤. لكل ذلك وجب الابتعاد عن هذه الصيغة والبحث عن صيغة بديلة تعيد الاطمئنان الى نفوس الاشقاء الاكراد، علماً بان تجارب الدول التي اخذت بنظام الحكم الذاتي لحل المسألة القومية فيها اثبتت عقم هذا النظام وفشله. لهذا ارى ان من واجب المعارضة العراقية التفكير جدياً بتطوير برامجها في حل القضية الكردية في العراق والابتعاد عن الصيغ المبهمة والمطاطة ووضع حل ملموس يستند الى النظام الفيدرالي.

جعل اعلان الحكم الفيدرالي من قبل البرلمان الكردي المواطن العراقي يتساءل: ما هو هذا الحكم وهل يصب في خانة تجزئة وتقسيم العراق كما تدعي بعض قوى المعارضة العراقية التي رفضت هذا الاعلان أو التي تحفظت عليه، أم انه يحقق التلاحم بين جميع القوميات والفئات من ابناء الشعب العراقي كما تقول بعض قوى المعارضة التي اعلنت تأييدها لهذا الاعلان؟

يجب ان نعترف ابتداء بان الحكم الفيدرالي ليس صيغة لحكم يستند الى نظام دولي أو معاهدة دولية، ومن ثم فهو لا يدخل في اختصاص القانون الدولي العام. إنما هو صيغة لنظام حكم يستند الى قواعد القانون الداخلي لكل دولة من الدول التي تأخذ به. ولهذا جاء في الاعلان اعلاه بان البرلمان قرر الحكم الفيدرالي في كردستان في اطار وحدة العراق.

واستناداً الى ذلك فان الاقليم الذي يتمتع بهذا الحكم لا تتوفر عنده عناصر الدولة التي يحددها القانون الدولي العام ولا يكتسب اعترافاً دولياً بالمعنى القانوني الدقيق لمصطلح الاعتراف في هذا القانون. إنما سيصبح الحكم الفيدرالي علاقة قانونية داخلية ينظمها ويحددها دستور الدولة وتشريعاتها الاساسية. ومن هذا الجانب يلتقي مفهوم الحكم الذاتي مع مفهوم الحكم الفيدرالي في حين يختلف كلا المفهومين عن الحكم الكونفيدرالي الذي يعد علاقة قانونية دولية تستند الى معاهدة دولية أو اتفاق دولي بين الدول المؤلفة للاتحاد الكونفيدرالي.

كما يتشابه الحكم الذاتي في مفهومه القانوني الدقيق مع الحكم الفيدرالي من حيث كليهما يجعلان الاقليم «وحدة اقليمية سياسية» مما يفرقهما عن مفهوم اللامركزية الادارية التي يقتصر دورها على تنظيم الوحدات الادارية في اطار التنظيم الاداري للدولة.

يؤدي اعتبار الاقليم وحدة اقليمية سياسية الى الاعتراف بالكيان السياسي لهذا الاقليم ومن ثم الاعتراف بان نظام الحكم الذاتي أو الفيدرالي ليس نظاماً للادارة فقط وإنما

نظام للحكم ايضاً مما ينتج عنه حتماً امتداد ممارسة الحكم في هذا الاقليم من قبل هيئاته على مستوى التشريع والتنفيذ والقضاء، وهذا هو جوهر الاستقلال الذاتي الذي يعتبر عنصراً اساسياً في تحديد مفهومي الحكم الذاتي والحكم الفيدرالي. لذا فان تجريد هذين الحكمين من هذا العنصر الاساسي ـ بأي شكل من الاشكال ـ يجعلهما من دون معنى ولا مضمون.

أما النقطة الاخرى التي يلتقي فيها الحكم الذاتي مع الحكم الفيدرالي فتتمثل بوجوب ممارسة الادارة أو الحكم على الاقليم في اطار مبدأ وحدة الدولة، حيث ان كلاً من الحكمين ينطلق من نقطة التوازن والتنسيق بين مبدأ الاستقلال الذاتي للاقليم الذي اشرنا اليه ومبدأ وحدة الدولة، اذ لا يمكن الحديث عن مفهوم قانوني دقيق لهذين الحكمين اذا استبعدنا عنهما مبدأ وحدة الدولة. فوجود هذا المبدأ يتلازم مع وجود مبدأ الاستقلال اعلاه.

هذا التوازن والتنسيق بين المبدأين يتم في اطار تنظيم قانوني يحدد حدود العلاقة بينهما أو حدود العلاقة بين هيئات الاقليم والسلطة المركزية. وهذه العلاقة ليست علاقة سلطوية أو علاقة وصاية ادارية تهيمن بموجبها السلطة المركزية وتفرض وصايتها على هيئات الاقليم كما هو معروف في نظام اللامركزية الادارية، كما انها ليست علاقة قانونية دولية تتولى عملية التنسيق بين اطرافها معاهدة دوليةكما في الاتحاد الكونفيدرالي، إنما هي علاقة قانونية داخلية بين الطرفين (الأقليم والمركز) في الدولة الواحدة يتولى الدستور تنظيمها ويحدد لكل من هذين الطرفين حقوقه والتزاماته المتبادلة، كما يجعل للقضاء حق مراقبتهما على حد سواء هنا. في هذه النقطة يبرز الاختلاف بين مفهوم الحكم الذاتي ومفهوم الحكم الفيدرالي، وهو اختلاف يتصل بمدى حدود تلك العلاقة بين الاقليم والمركز وليس بمدى وجود تلك العلاقة.

ففي نظام الحكم الذاتي تحدد العلاقة بين الاقليم والمركز على اساس مبدأ حصر اختصاصات الاقليم في الدستور أو في القانون وان ما يخرج عن نطاق هذه الاختصاصات سيعود الى السلطة المركزية وتترتب على ذلك النتائج الآتية:

١ ـ تتقيد هيئات الاقليم بتلك الاختصاصات المحددة لها ومن ثم تعتبر جميع قراراتها التي تخرج عن نطاق هذه الاختصاصات باطلة من الناحية القانونية ويجوز للقضاء ان يتدخل لالغائها أو ابطالها حسب الاحوال.

٢ ـ عدم قابلية اختصاصات الاقليم على التطور أو التوسع، لان كل اختصاص جديد سيعود الى السلطة المركزية بحكم الدستور أو القانون.

٣ ـ سيتحكم مبدأ التفسير الضيق في تفسير قواعد اختصاص الاقليم الامر الذي

يفتح ثغرة قانونية للسلطة المركزية في تحجيم وتقليص الاختصاصات المناطة بهيئات الحكم الذاتي .

أما الحكم الفيدرالي فيتميز عن الحكم الذاتي من حيث طريقة توزيع الاختصاص بين الاقليم والمركز، حيث تعتمد هذه الطريقة على حصر اختصاصات السلطة المركزية بموجب قاعدة دستورية وليست قاعدة تشريعية، أما ما يخرج عن هذا الحصر فيعود الاختصاص فيه الى هيئات الحكم الفيدرالي وتفيد تجربة الدول الفيدرالية في هذا المجال ان الدستور يجب ان يحدد على سبيل الحصر والدقة المجالات التي تختص بها السلطة المركزية كأن تحدد في مجال العلاقات الخارجية للدولة والدفاع الخارجي والعملة والقطاعات الاستراتيجية الاساسية . . الخ بحسب ما يتوصل اليه المجلس الدستوري الذي يضع الدستور، وفي هذا الصدد يقتضي الامر عدم التوسع في مثل هذه الاختصاصات بالشكل الذي يجعل مفهوم الحكم الفيدرالي مقارباً لمفهوم الحكم الذاتي . ويترتب على هذه الطريقة ما يلي :

١ ـ ستكون اختصاصات الاقليم قابلة للتوسع والتطور حسب مقتضيات الحاجة المحلية للاقليم .

٢ ـ سيتحكم مبدأ التفسير الواسع في تفسير اختصاصات هيئات الاقليم، بينما يتحكم مبدأ التفسير الضيق في تفسير اختصاص السلطة المركزية .

٣ ـ ان حصر الاختصاص بموجب قاعدة دستورية يمنح حماية قانونية واسعة لهيئات الحكم الفيدرالي من اعتداءات السلطة المركزية .

لكل ما تقدم نؤكد ان الحكم الفيدرالي لكردستان العراق تصاحبه نتائج حميدة وايجابية على مستوى ادارة دفة الحكم في العراق، فهو ليس اسلوباً للانفصال عن الدولة الأم كما انه لا يقوض اركان وحدة الدولة مادام لم يبلغ مستوى الاتحاد الكونفيدرالي .

ان تجربة الدول التي اخذت بهذا الحكم اثبتت ان هذه الصيغة من الحكم ساعدت على تقوية مبدأ وحدة الدولة في الوقت الذي سمحت للاقاليم ادارة وحكم نفسها بنفسها في اطار دستور ديمقراطي .

(عن الحياة) في ١٠/ ١١/ ١٩٩٢

نظرة في الازمة الاخيرة

كامل شياع

مرة اخرى يتفاقم التوتر في خليج الازمات، ومرة اخرى تتدخل القوة لرفع سوء الفهم أو لتأكيده، بينما صارت تنبعث من جديد، هنا وهناك، التساؤلات في الاسباب والغايات والابعاد. المواقف وردود الافعال على الضربات العسكرية الاخيرة للعراق عديدة ومتضاربة؛ ذلك لانها، كما هو الحال دائماً، لا تتعامل مع الحقائق الملموسة بذاتها بل من خلال تأطيرها بتصورات مسبقة (عالِمة أو شعبية، عملية أو خيالية) لمصير المنطقة والعالم. ما شهدناه في الايام الاخيرة من دروس محدودة في استعراض القوة سوف لن يضيف إلا اختلاقاً الى الاختلاف الذي قسّم الرأي العام العربي منذ نشوب ازمة الخليج الثانية عام ١٩٩٠. فهناك بيننا من بشّر بان اندفاع الولايات المتحدة وحلفائها لتحرير الكويت كان جزءاً من مخطط استراتيجي بعيد المدى للهيمنة على المنطقة والاستفراد بشعوبها وبثرواتها. ان ما صرنا نجابهه كعرب من خلال حالة العراق ـ كما يواصل اصحاب هذا الرأي ـ هو ليس غير عصر جديد من همجية الامبريالية الغربية. وتلازم وضوح الحجة هنا مع طريقة متميزة في دمج الحقائق الجزئية بلغة بلاغية عرمة، الالتزام المبدئي بهذيانات لاوعي الضحية (بالمعنى السياسي للكلمة) والتاريخ الفعلي بالمعتقدات الآخروية الخلاصية. من الناحية العملية وحدّ هذا الرأي بعض القوى اليسارية أو المتياسرة مع القوى الاصولية الشعبوية من حيث ان كليهما القى، كل لاسبابه الخاصة بالطبع، ثقل الادانة على قوى الخارج.

مقابل هذا ظهر رأي آخر ما كان مستثاراً بما تبغيه قوى الخارج بقدر استثارته بما جلبته علينا قوى الداخل (الانظمة السياسية بشكل خاص) من طرق مسدودة وكوارث. فلا معنى هناك لادانة قوة الخارج، هذه الادانة التي رهنت دائماً على انها سيف ذو حدين يكرر ويضلل، قبل ان تتم تسوية مشكلة الداخل. وهذه تتم عبر ايجاد تركيبة سياسية تضمن حداً مقبولاً من الاستقرار والعقلانية، تركيبة ينسجم فيها محتوى التحديث المطلوب مع شكله السياسي والفكري. ان نظام الأوليات المقترح هنا هو نظام اجرائي لان الداخلي والخارجي تربطهما، رغم تمايزهما، علاقة تداخل واعتماد متبادل. فالانظمة الدكتاتورية،

في منطقتنـا مثلاً، لم تعكس فقط الخصائص الاجتماعية والسياسية لواقعها المحلي بل وأيضاً خصائص التناقضات العالمية التي سادت منذ الحرب العالمية الثانية. وقيمة إحالة الاولوية الى العامل الداخلي هي ان العامل الآخر (الخارجي) سيظل دائماً غير مؤاتٍ لنا إذا ما عجـزنا عن تنصيب انظمة حكم تحترم مسؤولياتها ازاء مصائر شعوبها وتكف عن اجترار مشاعر الحَيفْ والمظلومية، أو لنقل تتجنب اكساءها بعداً لا تاريخياً.

انطلاقاً من هذا الرأي أعتبر عدوان العراق على الكويت مثالاً للطريقة التي يستجيب بهـا النـظام الحـاكم في العـراق لازماته الداخلية: خنق أزمـة بأزمة اخرى (أي الازمة الداخلية بالازمة الخارجية). وخلافاً لكل ما سبقها فان مغامرته تلك قد توافقت، قصدياً أو عبر المصادفة، مع بداية انسحاب الاتحاد السوفييتي سابقاً كقوة عالمية، ومبادرة الولايات المتحدة للبروز كقوة عالمية وحيدة ومقرِّرة. ما وفرته ازمة الخليج الثانية هو محك الاختبار الضروري لهذه الامكانية. وجاءت النتيجة لتخبرنا، بالاضافة الى كل ما شهدناه وعرفناه، بان زمن الحروب الكبيرة التي يؤمل منها تدشين عصور تاريخية بديلة قد تأجّل الى حين ـ قد يطول ـ من الزمان. ما بقي على السطح هو، بالاحرى، حروب صغيرة (اهلية أو بين الدول) متناثرة أكثر ما يثير فيها هو فداحة العنف والتدمير. ولكونها غير ذات أفق، من حيث انهـا لا تمثـل اكثر من ردود فعل يائسة على وضعيات غير مرغوبة، فان القوى العالمية المهيمنة لا تقابلها إلا بالتجاهل أو المحاصرة احياناً وبالاخماد الفوري احياناً اخرى. ان الامثلة في المشهد الدولي المعاصر اكثر وضوحاً من ذكرها بالاسم.

بخصوص العراق فان الضربات التي وجهت اليه مؤخراً تدفعنا الى التساؤل ليس عن مبدأ ممارسة السياسة عبر اسلوب القوة بحد ذاته، بل عن الشروط والكيفيات التي تستخدم فيهـا القوة من قبل طرف على طرف آخر لعدم ايفائه بـ، أو انتهاكه لـ، مبادىء القانون والاتفاقات الدولية. فاذا كان اللجوء الى القوة يخبرنا بان الطرف الذي لجأ اليها هو قوي بالفعل، فانه ايضاً يخبرنا باحتمالات متعددة لسوء الاستخُدام. وليس سوء الاستخدام هذا شيئاً آخر سوى التعبيرات الارادوية للقوة من اجل القوة. فالنظام العراقي مثلاً جرّب اكثر من مرة اغراءات القوة العمياء، ثم جاء الآن دور الادارة الامريكية وحلفائها لتجريبها وان ظهر ذلك ممزوجاً بمطالب الشرعية الدولية. وهذان المثالان وسواهما يبرران، من حيث المبدأ، القول بان الميل الى اساءة استخدام القوة هو أمر وارد بغض النظر عن الاعتبارات الجغرافية أو التاريخية أو الايديولوجية، التي لا تؤشر إلا الى اختلافات في الدرجة لا في النوع. بكلمة اخرى، فانه يصح من دون ارجاع الميل لاساءة استخدام القوة الى عوامل ثقافية وسياسية جوهرية (ميتافيزيقية).

ان اشارتنا الى انعدام المبررات المقبولة لاستخدام القوة من قبل الولايات المتحدة

وحلفائها لا يعني بأي حال ان الحاكم بأمره في العراق كان بمعزل عن دفع الامور سريعاً نحو التأزّم مستفيداً من اقتراب نهاية فترة حكم الرئيس الامريكي بوش. حدث هذا التأزم على خلفية تنصّل وعدم اعتراف النظام العراقي بالنتائج الفعلية المترتبة على هزيمته في مغامراته العسكرية في الكويت. اذ واصل النظام، تأكيداً لعدم اعترافه اللفظي والعملي، سياسته «الجهادية» كما لو ان ما حدث حتى الآن، على هوله، كان مجرد معركة في حرب لا ينبغي لها ان تنتهي ابداً. وربما كان هكذا تمثيل للواقع، بجعله من «خصوصية» الحق نقيضاً «لعمومية» القانون، هو الاحتمال الاخير للنظام لاسباغ شرعية ما على حكمه، شرعية تتأتى من التظاهر كما لو انه يحمل حقاً رسالة تاريخية. ولكننا نلاحظ ان هزيمته في حربه الاخيرة قد جلبت ـ بجانب نتائجها الميدانية ـ هزّة عميقة لسبب وجوده: الحكم باسم الامر الواقع من حيث انه، حسب تبجحاته، قوة مقتدرة داخلياً وخارجياً. وبدلاً من الرضوخ لنهايته الطبيعية: التنحّي الفوري أو التدريجي عن الحكم، احتفل بحلول بداية جديدة ونصّب نفسه لها. فحوّل اسم البلد من «أنثوية» الجمهورية العراقية الى «ذكورية» جمهورية العراق، وضيّق قاعدة الحكم ليصبح ابوياً ـ عائلياً، وأبقى ملف الحرب مفتوحاً نكاية بمصالح الوطن والشعب وبحثاً عن مصداقية مستحيلة لمعانٍ صوفية كالسيادة الوطنية والكرامة والصمود... الخ. وعندما أصرّ على مواصلة سياسته التقليدية في القبضة الحديدية ضد شعبه ظهرت على الخارطة منطقتان آمنتان شمال العراق وجنوبه. ليس هناك في هذا التدهور أي مفاجاءات: فالقمع يزعزع شرعية نظام الحكم (أي نظام حكم) وزعزعة الشرعية تعبّد الطريق للتدخل الخارجي.

أحد وجهي المشكلة العويصة التي تواجهنا هو ان نظام الحاكم بأمره في العراق لا يريد ان يرى تبعات سياسته التي ادت بالعراق لان يكون محكوماً بشكل مضاعف: كدولة ملزمة بقرارات بسبب خرقها القانون الدولي، وكدولة خسرت حرباً ليس امام القانون بل امام دول اخرى. اما الوجه الآخر لها فيكمن في ان الولايات المتحدة مستعدة اكثر من أي وقت سابق للجوء الى القوة من اجل تأديب «العصيان» العراقي وضبط ايقاع منطقة الخليج. يمكن ان تُفهم الضربات الاخيرة التي وجهت الى العراق كما لو انها اشبه بتصويب اطلاقات وداع حاكم الى صدر حاكم آخر، أو كما لو انها تتويجاً لعامين من سياسة المناورة والابتزاز والشدّ والارخاء. وقد تميل كفّة الرأي العام لصالح هذا الطرف أو ذاك. ولكن من المؤكد ان ابقاء الشعب العراقي في حالة وقف التنفيذ، معوّقاً خارج التاريخ، هو من مسؤولية نظام انتهك سيادة الدول مراراً اقتفاءً لاوهامه الخاصة، ولكنه تلكأ حتى الآن في ان «يغامر» لانقاذ حياة شعبه التي تصدعت بحربين كبيرتين واختنقت بالحصار الاقتصادي والارهاب.

١٩٩٣/١/٢٧

أزمة الحضارة

د. فيصل السامر

عثرت في أدراج مكتبي بجامعة الاقتصاد والتجارة الخارجية في العاصمة الصينية بيجنغ على كتاب يحمل عنوان «أزمة الحضارة» وفي وسطه اسم مترجمه الدكتور فيصل السامر. وكان لقاء مفاجئاً بهذا المؤرخ الجليل الذي غادرنا قبل الموعد وهو في عز العطاء والنبل. ومضيت أقرأ المقدمة فاذا هي دراسة اضافية على الكتاب لا تكتمل قراءته بدونها، ولا غرو فهذا المترجم ليس مجرد ناقل من لغة لاخرى بل مفكر ومناضل وهو عندما يختار كتاب للترجمة فلكي يعيد انتاجه مع تقييم نقدي وتقويم فكري - منهجي. وقد اخترت المقدمة لتنشر في الثقافة الجديدة لانها لم تقرأ كما لم يقرأ الكتاب وذلك بالنظر لصدوره عن وزارة «الثقافة» ببغداد والتي أصدرت كتب كثيرة فيها الغث والسمين دون أن تلقى الرواج المنشود لعدم الثقة بكونها وزارة ثقافة. وكيف تكون كذلك وهي تزوّر حتى تاريخ فيصل السامر الذي اختارت أن تنشر له ترجمة هذا الكتاب الهام حيث يكتب الاستاذ جميل الجبوري سيرة مختصرة للمترجم الفقيد يذكر فيها جميع مؤلفاته ما صغر منها وما كبر ويهمل كتابه الارأس الذي افتتح به المدرسة الجديدة في علم التاريخ الاسلامي وكان فيه رائداً حتى بالقياس للعلامة الشهيد حسين مروة وأعني به كتاب «ثورة الزنج» ولابد أن يكون سيف الجلاد هو الذي أملى حذف ذلك الكتاب الريادي.

مهما يكن فقد اخترت هذه المقدمة للنشر ليس فقط للتذكير بهذا الفقيد

العزيز ومقامه السامي بين أهل الثقافة الحرة بل ولأن مضمونها يتسم براهنية تتجاوز بكثير «راهنية» كثير من كتابات أصحاب (التفكير الجديد) الذين يرومون شطب الرأسمالية وسليلتها الامبريالية من ذاكرة شعوبنا من خلال أحاديثهم المشبوهة عن النظام العالم الجديد.

هادي العلوي

لا أغالي اذا قلت، ان هذا الكتاب واحد من أخطر وأهم الكتب التي ظهرت في الغرب في الآونة الاخيرة، ومن أكثرها جرأة وصراحة في التصدي للمشكلات الكبرى التي يعاني منها المجتمع الرأسمالي اليوم والتي اختزلها المؤلف تحت عنوان واحد جامع مانع هو «أزمة الحضارة».

ان مؤلف الكتاب ـ جوزيف كاميليري ـ يمسك المبضع بيده المتحدية الثابتة ليشرّح جسد الحضارة الصناعية الغربية وثقافتها، ويكشف عن الاورام القتالة التي تعاني منها.

لقد كرس المؤلف الفصول الثمانية الاولى، وهي التي آثرنا ترجمتها الى العربية، لافراز وشرح العوامل التي تفسر وتعلل الازمة المعاصرة في العلاقات الانسانية، ملقياً الضوء على اختلالات التوازن في أنماط التفاعل الاجتماعي القائم: اختلال التوازن النفسي ـ الاجتماعي، واختلال التوازن البنيوي، والاختلال في التوازن الجهازي، واختلال التوازن البيئي. ان الاختلال في التوازن النفسي ـ الاجتماعي هو، في رأي المؤلف، الفجوة الكبيرة الآخذة في الاتساع التي تفصل الفرد عن المجتمع وتقلص من آفاق ممارسته أي تأثيره على القرارات التي تقرر مصيره. ان الحياة الانسانية، وهي ملزمة بأن تنسجم مع متطلبات المجتمع التكنولوجي، صُيِّرت أكثر امتثالاً ورضوخاً لأوامر ونواهي هذا المجتمع بحيث أصبح الانسان مجرد بيدق شطرنج في لعبة التنافس الاقتصادي والعسكري.

لقد وُفّق المؤلف في تشخيصه للظواهر المرضية الشائعة في المجتمع الرأسمالي: الانهماك بالتملك والحيازة بدل الانهماك بالكينونة والصيرورة، والهوس بالقوة من أجل الهيمنة بدلاً من استخدامها من أجل التحرر، والاحساس العميق بالاغتراب عن الواقع الاجتماعي بدل المشاركة فيه، والموقف تجاه العمل وأوقات الفراغ كوسيلة لقتل الوقت بدل أن يعاش الوقت بصورة خلّاقة.

إن ازدياد الاجهادات والضغوط التي تلم بالوضع الانساني أخذ يفرض بالتدريج ضرورة إعادة تقييم عنيفة للايمان بعبقرية الانسان صانع الادوات والعُدد ومخترع

التكنولوجيا. ذلك أنه الى جانب منافع التكنولوجيا، التي تقاس عادة بمصطلح الانتاجية الاقتصادية، برزت الى الوجود الخسائر والكلف الباهظة التي يدفعها الانسان من جراء تدمير البيئة وتلويثها، والاخلال بنظام العلاقات البيئية، والتفاوت الاقتصادي، والامتثال الاجتماعي، والاحساس بالعجز السياسي، والمسيرة الانتحارية لتكنولوجيا الحرب النووية. وفوق كل ذلك يشهد عصرنا اتجاهاً واضحاً نحو جعل السلطة ذات طابع بيروقراطي، ونحو تركيز الثروة والقوة، وتزايد الالتجاء الى القهر الاجتماعي والمادي.

وعلى صعيد آخر، يتصدى المؤلف للفلسفة الاقتصادية في العالم الرأسمالي والمنافسات الرهيبة التي أدت الى قيامها داخل الاقطار الغربية الصناعية المتقدمة، والتي كانت احدى أخطر نتائجها اللامساواة الآخذة في الاتساع بين المجتمعات المفرطة النمو والمجتمعات الآخذة في النمو في العالم الثالث. إن استخدام تعبير «العالم الثالث»، مع انه مفيد للدلالة على كل تلك الاقطار التي كانت خاضعة للعملية الاستعمارية، سواء عن طريق غزو أراضيها أو عن طريق الهيمنة الاقتصادية، إلا أنه ـ كما يرى المؤلف ـ أبهم الطبيعة الجذرية لاختلال التوازن بين الاقتصاديات الغربية المتقدمة وبلدان آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية، وخلق انطباعاً بأن هذه البلدان الفقيرة عموماً تكوّن بمعنى من المعاني تجمعاً اقتصادياً وسياسياً منفصلاً ومستقلاً عن العالمين الرأسمالي والاشتراكي. ان ظاهرة نقص النمو Underdevelopment في أقطار العالم الثالث تعبر عن نظام دولي قائم على تبادل غير متكافىء ونمط خاص من العلاقات هي علاقات «المهيمن» بـ«التابع»، خصوصاً بفعل الشركات الكبرى المتخطية للحدود القومية Transnational والشركات المتعددة الجنسية Multinational.

وحين يعالج المؤلف «أزمة النفط» يعكس من جديد موقفه المتعاطف مع بلدان العالم الثالث، فهو لا يرى في اتجاه (الاوبك) نحو رفع أسعار النفط تحكماً وتعنتاً من جانب المنتجين والمصدرين، بل ـ على العكس ـ يرى في ذلك استجابة لأهمية النفط المتزايدة في الاقتصاد العالمي، ولاصرار العالم الغربي المصنّع على ابقاء النفط دون قيمة ندرته الحقيقية، في الوقت الذي يزيد الغرب من أسعار بضائعه المصنعة يوماً بعد يوم وبصورة خيالية. ان المؤلف يبدي حماساً نحو استخدام النفط كسلاح منذ حرب تشرين ١٩٧٣ يمكن أن يعزز الى حد كبير نضالية الشعوب المنتجة له في وجه الضغوط الامبريالية.

قلت أن المؤلف وفق في تشخيص الظواهر المرضية والاختلالات الجديه في التوازن والازمة الرهيبة التي تحيق بالعالم الغربي، فهل قدم تصوراً بديلاً لعالم أفضل يوفر الصحة والتوازن والاستقرار؟.

يعترف المؤلف بأن الهدف الاساس لكتابه هو تشخيص تلك القوى التي لا تهدد قدرة الانسان على التعبير عن ذاته فحسب، وانما بقاء النوع البشري بالذات كذلك، ومن ثم فهو لا يزعم بأنه قادر على تقديم أجوبة كاملة ومحدودة، وانما يبدي وجهة نظر شخصية حول اتجاهات الحاضر وخيارات المستقبل. ومن هذا المنطلق يقدم هذه الخيارات.

يتوجه المؤلف، أول ما يتوجه، الى استقصاء مهمة النظرية النقدية، وبالتالي مهمة التفكير اليوطوبي (الطوباوي - ث ج). وحين يستقصي السبل المقترحة مؤخراً لتحقيق اليوطوبيا، لم يقترح هو أية منها، بل لم يقترح أية استراتيجية لتحقيقها، وانما انصب غرضه على مقابلة الواقع الفعلي التعيس مع امكانية قيام شكل من الوجود بأنه محرَّر وتعاوني وجمالي. ويبدو واضحاً أن لبحثه لليوطوبيا هو الايحاء بأن آفاق البناء في المرحلة الراهنة من النشوء البشري قد تعتمد الى حد كبير على ثورة هادفة، وديناميكية وثقافية أكثر مما تعتمد على عملية عشوائية ولا واعية للتغاير الاجتماعي والبيولوجي القائم على مبدأ التجربة والخطأ.

ان المنظورات اليوطوبية لا تنبع من تقليد فلسفي أو ثقافي وحيد، كما أنها لا توحي بتصور للمجتمع يتميز بالتماسك الداخلي في جميع جوانبه، ومع ذلك فانها تشير الى اجماع حول طبيعة القيم الانسانية والامكانات الانسانية. غير أن المسألة الاكثر أهمية، ليست الرغبة في تحقيق الحلم اليوطوبي، بل امكان تحقيقه. ومن ثم يعترف المؤلف بأن اليوطوبيا ليست في المتناول، لكنه أراد توضيح الدور الذي يمكن أن تلعبه التبصرات اليوطوبية، ليس في تفادي الازمة، بل في توفير الاساس لاستجابة قد تزيد من فرص البقاء وتوجيه القيم والمؤسسات الانسانية في اتجاهات جديدة أكثر تبشيراً بالخير. ان المفهوم اليوطوبي كشكل كوميولي من الوجود واستقلالي في الوقت نفسه، وذلك بالتأكيد على البعد الجمالي والكوني للتجربة الانسانية، قد لا يكون قادراً على التحقق الآني والكامل، لكنه مع ذلك يستطيع أن يغذي بالحياة النضالات من أجل الانعتاق التي تخوضها في الوقت الراهن الحركات الثورية في العالم.

والحق أن هناك مجموعة من التصاميم الثقافية في الادب اليوطوبي، حيث يصف الكتاب تصوراتهم عن الحياة السعيدة ويقترحون الوسائل لتحقيقها. فقد اختار أفلاطون في كتابه «الجمهورية» حلاً سياسياً، ووضع الفارابي كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» على نفس الغرار، وفق المفاهيم الاسلامية. واختار القديس (أوغسطين) في كتابه (مدينة الله) حلاً دينياً. أما (توماس مور) و(فرانسيس بيكون) فقد اتجها نحو القانون والنظام، واتجه اليوطوبيون من مدرسة (روسو) في القرن الثامن عشر الى الصلاح الفطري في الانسان، ويحث كتاب اليوطوبيا في القرن التاسع عشر عن الحلول الاقتصادية، ورأى القرن

العشـرون ظهـور ما قد يُدعى بالبيوطوبيات السلوكية التي تناقش فيها سلسلة كاملة من الـظروف والـطوارىء الاجتمـاعية. ان فلاسفـة اليســار الجـديد ومفكريه يؤكدون قيمة اليوطوبيات الاجتماعية التي تعكس ارادة التغيير، التي تنفض الاحلام والاوهام وتفضي الى الثورة الاشتراكية، وتحمل صفة العمل وفق الخط الاشتراكي للتطور من أجل التغيير العقلاني.

غير أن السؤال الاساس في كل اليوطوبيات هو: هل ستكون عملية حقاً؟ ان هناك أسبـابـاً كثيرة تفسـر صعوبة وضع التصميم اليوطوبي موضعَ التنفيذ، اذ لا يمكن وضع مجموعة ضخمة مرنة من السكان تحت السيطرة الاجتماعية أو الاخلاقية غير الرسمية، لان المعززات الاجتماعية، مثل الثناء واللوم، قد تفعل مفعولها ضمن جماعة صغيرة، لكن السيطرة على مجموعة السكان، ككل، تستلزم مؤسسات متخصصة، القضاء، والشرطة، والتعليم، والاطباء وغير ذلك. ومن هنا أصبحت كلمة «يوطوبي» تعني في الواقع «غير عملي» ويبدو أن التاريخ يؤيد هذا المعنى، فقد اقترحت عدة تصميمات يوطوبية خلال ما يقرب من خمسة وعشرين قرناً، وقد باءت كل المحاولات والمجهودات التي بذلتها كل اليوطوبيات بالفشل الذريع.

حين تزاح الـوصـايا اليوطـوبية بعيداً عن الـواقـع، فانه ينبغي عندئذ ـ كما يقول المؤلف ـ ابتكـار مراحـل انتقـالية واستراتيجيات بديلة، من أجل جعل التحقيق الكامل للهـدف المحـدد أكثر امكاناً في تاريخ لاحق، أو بنظرة تقوم على انجاز نجاحات أكثر تحديداً، لكنها أكثر آنية وفورية.

ويعلق المؤلف أهمية كبيرة في نجاح المجهودات، من أجل التغيير، على تفكك المجتمعـات الصناعية المتقدمة والانقسامات الواضحة التي تتعرض لها بصورة مطردة. فحـركـات الاحتجاج وحركة الشباب والطلاب المنشقين في الولايات المتحدة وأورو با تعكس ـ كما يرى ـ تمزّق هذه المجتمعات وتفككها. وكذلك يتخذ التذمر العرقي من جراء الاحســاس الحاد بالحرمان وبالهوية الجماعية لدى الجماعة السوداء في الولايات المتحدة طابع الشجب لنظام ـ القيمة الخاص بالبيض المهيمنين والاستعداد لتوكيد الهوية الخصـوصية للسـود. وينظر المؤلف الى نجاح حركات التحرر في آسيا وافريقيا، وظفر الثورات التحررية في العالم الثالث من هذه الزاوية أيضاً، باعتبارها نقلة جوهرية في ميزان القوى الدولي، وعاملاً حاسماً في هزيمة الامبريالية.

إن خلق نظام عالمي جديد قادر على البقاء، لا يمكن أن يفرض من الاعلى، بل ينبغي أن يأخـذ طريقه على أساس اتفاق جماعي في الرأي، واشتراك واسع يشمل كل أولئك الذين لهم مصلحة حيوية في البنية المستقبلية للمجتمع العالمي. إن العنصر الاول

في استراتيجية تهدف الى تطوير ثقافة شمولية وقادرة على تعجيل موت الدولة الصناعية الرأسمالية يتضمن ـ في رأي المؤلف ـ تعبئة الامكانات الفكرية والنفسية لتنمية الادراك بأن جميع الافراد هم جزء من أسرة إنسانية واحدة وأعضاء في حضارة شمولية هي في طور التكون.

هذا هو الاتجاه العام الذي يتحتم على المجتمع الانساني أن يسلكه اذا أراد أن يقيم علاقة مقبولة مع بيئته الطبيعية، ونظاماً يحقق العدالة التوزيعية، وحضارة تشبع الحاجة الى الاستقلال الذاتي والتنظيم على حد سواء. إن هذا البرنامج المقترح من أجل التحول البنيوي، الذي يهدف في الاساس نحو استئصال المرض الاجتماعي، ذو صلة وثيقة بالسلم والحرب، لان السلم، بحد ذاته، يعتمد على امكانية التغير الاجتماعيي الجذري، وعلى ازالة اللاتوازنات التي تميز الواقع المعاصر.

لقد وضع المؤلف، في دراسته، نظامين للعالم في المقابلة، أحدهما فعلي والثاني احتمالي امكاني، ومجموعتين من القوى، احداهما تميل الى تعزيز الواقع الراهن والاخرى تهدف الى تقويضه. ترى هل في الامكان صياغة استراتيجية للتغيير الاجتماعي تضمن أن موت النظام القديم لن يجلب في أعقابه مستويات الانطلاق من المعاناة الانسانية والخراب المادي؟ ما هي الخيارات العملية المتاحة لاولئك الذين يعيشون في المجتمعات المضطهدة، الذين يدركون التناقضات الملازمة لهذه المجتمعات والاخطار التي تنطوي عليها، والذين يشاركون في الالتزام العميق باعادة بناء المجتمع المحلي والدولي؟.

ان أحد خطوط العمل ـ كما يقول المؤلف ـ يتمثل في تبني استراتيجية اصلاحية تتخذ صورة مبادرات ومقترحات، تستهدف تقليص درجة المجازفة التي تشير اليها نزعات الحرب النووية وكارثة العلاقات البيئية، ولكن هذه الاصلاحات المقترحة لا توفر علاجاً دائماً للاتوازنات الجوهرية التي تطرح أكبر تهديد للبقاء. ان أية استراتيجية لا توقف هذه الاخطار، وتزيحها، لايمكن أن يتوقع منها أن تستحث الخيارات الشاقة المتطلبة، من أجل حفظ الحياة وتحقيق القيم الانسانية الاساسية الاخرى.

ويقف في مقابلة الفلسفة الاصلاحية، وبصورة حادة، الخيار الفوضوي القائم على أفكار رومانسية وعدمية فيما يتعلق بالمجابهة، والذي يأخذ على عاتقه التدمير المتطرف، وعند اللزوم عن طريق العنف، لبنى القوة والثروة والسلطة السائدة في المجتمعات المصنّعة. ان تطبيقاً لهذه الاستراتيجية بدا للعيان ـ كما يقول المؤلف ـ في انتفاضة الطلاب العفوية وموجة الاضرابات اللاحقة، والاعتصامات والمظاهرات، التي جرت في فرنسا بصورة عاصفة في أيار ١٩٦٨، والتي تحولت الى انفجارات معزولة من الغيظ

والاتهام المتبادل. ان فشل هذه الانتفاضة نبع مباشرة من التطبيق العملي الابتر من قبل المثقفين والعمال الذين كانت رؤيتهم على درجة من التجريد والتكيف بموجب الثقافة المهيمنة، بحيث انحطوا الى مستوى الخطب الرنانة من جهة، والى المطالبة الصاخبة باعادة توزيع خيرات المجتمع على الاخرين من جهة أخرى. اذن، أين يعثر على العتلة التي تستطيع تقويض خطوط دفاع المجتمع القائم؟ ان اللاعقلانية المتنامية، والتناقضات الداخلية واللاتوازنات الاساسية هي التي أخذت تدلل ـ كما يقول المؤلف ـ على أن مجالات النضال الثوري، في المستقبل المنظور، هي المجالات الايديولوجية والثقافية. ان الطلبة والمثقفين وأعضاء الطبقة الوسطى المحرومين من الملكية هم الذين سيلعبون الدور القائد في هذا النضال. ولإنجاح هذا المشروع الطموح، لابد أن يزج بطاقات حركة ثورية واسعة، وأن يمنع التطبيق العملي المتباين والمتعدد، الذي تقوم به عناصر هذه الحركة، من أن ينحلّ الى تعبيرات كثيرة غير مترابطة من العفوية المنطوية على ذاتها والتي تهزم ذاتها في آخر الامر. والمطلب الثاني الملح هو أن المشروع الثوري يجب أن يتخذ صيغة ثقافية، مركّزاً أكثر اهتمامه على تحرر الوعي الاجتماعي. ان الفعل الثقافي، دون مشاركة فاعلة وواسعة من جانب أبناء الشعب، سيكون مجرداً من أهميته الثورية ومن قدرته على تقويض مؤسسات المجتمع القائمة وانشاء مراكز لصنع القرار، والايذان باعادة صنع المجتمع.

ويضفي المؤلف أهمية في هذا الصدد على ما يسميه «اللاعنف الثوري» الذي لا يتضمن السلبية، كما يقول، والذي أكد أشهر مؤيديه على التزامهم الجازم بالتغير الاجتماعي. ان الفعل اللاعنفي هو استراتيجية للتحول البنيوي والثقافي وتقنية للنضال على حد سواء. ان اللاعنف، باستخدامه الاسلحة السياسية والاخلاقية، وعن طريق تطوير وتهذيب مختلف أشكال الاحتجاج، يستطيع أن يهدد مركز قوة الخصم بصورة جدية، ويجرده من تبرير الانتقام العنفي. ان الخصم ـ وقد اعتاد على حماية مصالحه وراء ترس من العنف، سوف يضطرب وتفكك صفوفه وتُسلب حيويته، حين يتخلى الاخرون في نهاية الامر عن وسائل الدفاع هذه. ان أهلية اللاعنف تكمن ليس فقط في أثره الموهن على البنى الراسخة، بل وكذلك في الثقة بالنفس التي يغرسها في الحركة الثورية.

وفي ختام هذه الرحلة الطويلة، يختم المؤلف كتابه بهذه الكلمات المتفائلة «ان المشروع في الحقيقة مشروع ضخم. انه يتطلب تجديداً جوهرياً في طرز الحياة، واعادة تركيب جديدة للمجتمع، وتوسيع الآفاق لتشمل الجنس البشري بأكمله. ومع ذلك، فبسبب جميع الاخطار التي تقف بالمرصاد وجميع علامات الازمة الوشيكة الوقوع، يظل الامل من بين جميع العواصف الانسانية، حالة ذهنية شاملة، تضيء الواقع القائم فعلاً

والمقبل، ورؤية مخططة للمستقبل قادرة على تغيير الحاضر. ان الامل في الحقيقة، هو جزء مكمل لارتباط الفرد الحالي بالتاريخ».

ان المؤلف ـ كما يتضح من عرضنا لابرز أفكاره ـ يلتقي مع «اليسار الجديد» في عدد من المنطلقات ووجهات النظر. فهو ـ شأن فلاسفة هذا التيار ورواده ـ يولي أهمية كبرى لأشكال جديدة من النضال والعمل الثوري. لكن اذا كان الدكتور كاميليري ـ مؤلف الكتاب ـ قد عرض بجلاء وجرأة أزمة الحضارة الصناعية المتقدمة وشخّص أمراضها، فهل استطاع بالتالي أن يقدم بالفعل استراتيجية متكاملة بديلة للتغيير؟ لا أظن. فلا اليوطوبيا، ولا اللاعنف، ولا حركات الاحتجاج، ولا الاقتصاد القائم على الحالة المستقرة، تكفي لاستئصال الامراض المتأصلة التي يعاني منها النظام الرأسمالي.

ومع ذلك، فالكتاب قيّم وجليل، فهو يمثل تياراً جديداً من التفكير التقدمي، **ترعرع** في أوربا الغربية والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية، منذ الستينات، واستطاع أن **يجتذب** أوساطاً واسعة من المفكرين والمثقفين، وكل أولئك الذين استفزتهم عيوب الرأسمالية في الداخل، وعدوان الامبريالية في الخارج، فتنادوا الى خلق مجتمع جديد تتحقق فيه العدالة والتكافؤ في الفرص.

والكتاب، فوق كل ذلك، جاد وعلمي ويدلل على جهد ودأب ومثابرة. وقد أضاف المؤلف في آخره ملاحظات دقيقة ومسهبة، ورجع الى قائمة متنوعة من المراجع المتخصصة ذات الفائدة لمن يطمح من القراء في اغناء معرفته في جانب أو أكثر من جوانب الكتاب.

لقد وقع الاختيار على الفصول الثمانية الاولى من الكتاب ـ وهي تكوّن أكثر من ثلثيه ـ باعتبارها أهم وأغنى ما جاء به المؤلف، وهي ـ في الواقع ـ جوهر الكتاب ولحمته وسداه. وفي ظني أن اختيار ترجمة هذه الفصول سيكون ذا نفع وجدوى للقارىء العربي.

لقد حرصت على أن تكون الترجمة تامة الوضوح، وبأسلوب مباشر غير ملتو وغير معقّد. ولما كان المؤلف قد تعرض لموضوعات كبيرة التنوع: سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وعلمية، وفلسفية، فقد بذلت غاية الجهد في استقصاء المفردات والمصطلحات العربية الدقيقة التي تقابل تلك التي استخدمها المؤلف، اللهمّ الا تلك التي درجنا اليوم على استخدامها بلغتها الاصلية أو معربة. والله من وراء القصد.

الكندي فيلسوف العرب الاول

ابو حقي

مر القرن الثاني الهجري على الإمبراطورية العربية وهي قوية تضم اراضي شاسعة وشعوباً شتى، ونتيجة للتطورات الاجتماعية والاقتصادية وتفاعل اندماجها مع غيرها من الأمم المختلفة صاحبة المدنيات القديمة والاديان المتباينة تكونت حالة اجتماعية تتوتر فيها العلائق بين طبقات المجتمع الاسلامي، فيستهل القرن الثالث وهو مشحون بالصراعات الفكرية والثورات الاجتماعية ويصفها الكاتب عارف ثامر بأنها «ثورات اشعلها الفلاحون المضطهدون في فترات الأزمات الاقتصادية الخانقة... كانت بنت ساعتها ومكانها وظروفها المباشرة.. تهب ثم تنطفي... وتنطفي لتهب في مكان آخر»[1]. سعة رقعة الامبراطورية والتطورات الاقتصادية اوجبتا اقامة حكم مركزي يقوى على ادارتها ويثبت كيانها، مما هيأ الظروف لانتقال الحكم إلى العباسيين الذين كونوا حلفاً مع الفارسيين الذين بدورهم جندوا خيرة الفكر الفارسي وجهابذة الادارة الفارسية لتثبيت هذا الحكم. وقد كان عليه ان يطور الزراعة والحرف المهنية التي تخدمها، ثم كان عليه ان يشجع الصفقات التجارية سنداً لتجار المدن ومرابيها، نتيجة لكل ذلك اقتضى ان يكون هذا الحكم: ثيوقراطي مطلقي. اراضي شاسعة اقصيت للاقطاعيين، وعبيد جلبوا من أماكن شتى في افريقيا ليفلحوها، وهكذا طوروا حكم الاقطاع وثبتوا جذوره، هذا كله أوجب تطوراً في الصراع الفكري، وتصاعداً في مراحله الايديولوجية. عندما يقوى ويسيطر حكم الاقطاع بحكم طبيعته يحاول تفكيك سيطرة الدولة المركزية، وهكذا تسيطر اللامركزية في

الحكم وتشله من القيام بواجباته تجاه الرعية، فتندلع الثورات وكلها ذات طابع اقتصادي.

فكانت ثورة البابكيين التي شاركت فيها، جماهير فلاحية من منطقة اذربيجان بينهم العرب والفرس والاكراد والارمن والروم وغيرهم من قبائل القفقاس، وكان أحد بنود برنامجها الأساسي هو انتزاع الاراضي الواسعة من اربابها الذين اغتصبوها سابقاً من الفلاحين، أو من الدولة وتوزيعها على الفلاحين: على الرغم من ان قيادة الثورة كانت برئاسة بابك الخرمي لم تكن هناك أية مطالب قومية. لقد اندلعت هذه الثورة سنة ٨١٧ م واخمدت سنة ٨٣٨ م.

جاءت ايدولوجية البابكيين استمراراً وتطوراً لآراء المزدكيين من القرن السادس الميلادي الذين دعوا إلى المساواة ونزع الاراضي من الاقطاعيين. فقد أعلن مزدك «بأن الناس ولدوا سواء ليعيشوا سواء»[٢] وجعل الله الارزاق لتقسم بين العباد بالتساوي. وانما الناس قد تظالموا ولهذا شاع سوء التوزيع. وقد كانت المزدكية مرتعاً للحركات الاجتماعية التي دعت إلى المساواة.

يقول بندلي جوزي: «ان آراء مزدك لم تمت بموته وموت الالوف من اشياعه الذين كانت دولة ساسان تتعقبهم في كل البلاد الخاضعة لها، بل بقيت حية في صدور الكثيرين من تلاميذه الذين سلموا من القتل ولجأوا إلى اذربيجان وآران مصدر الحركة المزدكية وعش الشيوعية وكل الحركات الاشتراكية»[٣]. وهو ينقل ما قاله صاحب معجم البلدان بـ «ان فئة من أصحاب مزدك اختبأت بعد محنته المعروفة في جبال اذربيجان المنيعة حتى ظلت تحافظ على مبادئها إلى أيام بني سلجوق».

وقد كان لجماعة مزدك برنامج اجتماعي واضح يدعو إلى المساواة وتوزيع الاراضي، ودعا إلى اقامة نظام اشتراكي طوبوي ويعلق المستشرق المعروف برنارد لويس على برنامجهم هذا فيقول: «ويمكننا ان نفهم أساس بر مج مزدك الجماعي عن عبارة تنسبها اليه(سياسة نامة)وهي يجب ان تشاع الاموال وتوزع حسب الحاجة»[٤].

دعا البابكيون إلى الثورة ضد المحتلين وإلى بناء مجتمع اشتراكي، وقد انضم تحت لوائهم كثير من معدمي شعوب الشرق. فقد جثم على صدورهم المحتل والدهاقنة والاقطاعيون فكانوا مضطرين إلى الدفاع عن انفسهم بالقوة كما حدث سنة ٨٠٧ م في سمرقند حين خرج الشعب على عامل الخليفة المستبد الظالم وقتله شر قتلة أو كما فعل الشعب مرات عديدة في مصر والعراق وارمينيا واذربيجان التي كانت تئن تحت نير اولئك الظالمين. فيعلق على ذلك بندلي جوزي ويقول: «نعم ان بابك واتباعه كانوا يرمون إلى هدم ذلك النظام المستند على أصحاب الاملاك ورؤساء الدين والجيوش المسخرة المأجورة وابداله بنظام جديد ليس فيه طبقات ولا نزاع مستمر ولا ظالم ومظلوم ولا غني ولا

فقير ولا سيد وعبد ولا كبير ولا صغير، نظام مبني على العدل والأخاء والمساواة»[5].

وقد كان اشتراك الاكراد في هذه الحرب ضد الامبراطورية العباسية شاملاً كما يذكر المؤرخـون.ويذكر اليعقوبي : «وكان محمد ابن البعيث الكردي امير ميراندا في طاعته» (يقصد طاعة بابك). وقد ساندتهم كل الفرق الاسماعيلية ويقدر جيشهم بثلثمائة الف نسمة وقد كانت الويتهم حمراء، وعاملوا اسراهم بالحسنى وغالبا ما كانوا يطلقون سراحهم ويذكـر الـطبـري : «انه لما اسر بابك وجيء به مع أخيه إلى بغداد للمحاكمة'بالاحرى للتعذيب. . . كانت النساء اللواتي اطلقهن قبلا من الاسر يضربن على وجوههن ويبكين حزناً وشفقة عليه»[6].

لم تكن حسبما ادعى اعداؤهم مقاومة للاسلام وذويه ولا مقاومة العرب كأمة قائمة، بل محاربة ذلك النظام الاجتماعي الذي كانت تئن تحته الطبقات السفلى من جميع الأمم بمـا فيهم الأمـة العـربية نفسهـا، وهـدم ذلـك النـظام المستند على أصحاب الاملاك (والدهاقنة) ورؤساء الدين. ومن أهم آرائهم :

١ ـ نزع الاراضي من اربابها الذين اغتصبوها سابقاً من الفلاحين أو الدولة وتوزيعها مجاناً على المزارعين المحتاجين اليها.

٢ ـ تحرير المرأة الشرقية أو الايرانية على الأقل من عبوديتها الابدية واعطائها أهم ما للرجل من حقوق.

فالاراضي في اذربيجان وآران كان يملكها اشخاص معدودون من طبقة الدهاقنة والخانات، والفلاح كان يشتغل في أراضي سيده كالرقيق لا يأخذ على تعبه أية مكافأة. وقد كان في أيام بني ساسان رقيقاً، حتى حق الزواج والتمتع بامرأته مرهون بموافقة سيده. ثم جاء الحكم العربي ولم يغير هذا الوضع الاقتصادي إلا قليلاً، ويقول المؤرخ اليعقوبي الذي زار بنفسه هذه البلاد وعرف احوالها (في تاريخه)، ان طبقة العلوج وهم الفلاحون الذين لا يملكون اراضي كانت كثيرة العدد في ذلك الاقليم وان حالتهم كانت تسوء يوماً عن يوم مما كان يضطرهم مراراً إلى الخروج على سادتهم وتأليف العصابات للنهب والقتل.

ثم جاءت ثورة الزنج التي اندلعت في ضواحي البصرة سنة ٨٦٩ م والقوة الثائرة من زنج شرق افريقيا اصلاً، قائدهم (علي بن محمد) كان بارعاً في القيادة والتنظيم والتعبئة، ثم اخمدت سنة ٨٨٣ م.

جاهر صاحب الزنج بعقيدة الخوارج التي ترفض كل تمييز قومي، وقد انضمت اليه القبائل البدوية الضاربة في الاقليم، وحاربت جنباً إلى جنب مع الثوار ضد جنود السلطة وشرطتهم.

استعمل العبيد في جميع الاشغال الشاقة، منها للزراعة واصلاح الاراضي القاحلة، وجموع غفيرة منهم استعملت في اكتساح السباخ العظيمة في نواحي الفرات الجنوبية وشط العرب في البصرة، وكانت اوضاعهم الاجتماعية تزداد سوءاً من يوم لآخر، في وقت فيه كانت الاوضاع مضطربة جداً في البصرة، والصراع بين القوى الاجتماعية شديداً ودامياً.

يصف الطبري احدى الحوادث التي كانت تجري وقائعها في نواحي البصرة فيقول: «حتى عزل محمد بن رجاء عن البصرة فخرج عنها فوثب رؤساء الفتنة من البلالية والسعدية ففتحوا المحابس واطلقوا من كان فيها»[٧]. ان دل هذا فهو يدل على وجود فرق كثيرة مناوئة للسلطة في البصرة وليس للخلافة القدرة الكافية للسيطرة عليها.

ان الاوضاع الاجتماعية كانت ناضجة لنشوب الثورة ضد الاقطاع والمتعهدين البصريين نتيجة للضغوط الهائلة المسلطة على رؤوس العبيد والارقاء. تمكن صاحب الزنج بسرعة هائلة ان يجمع حوله مئات الآلاف جلهم من الزنوج الثائرين مستغلا الاحوال المضطربة في العاصمة وإستياء العمال في كل مكان، والطبري يقول عن ذلك التجنيد: «والفاسق (يقصد صاحب الزنج) يومئذ في زهاء ثلثمائة الف انسان كلهم يقاتل أو يدافع فمن ضارب بسيف وطاعن برمح ورامٍ بقوس وقاذف بمقلاع ورام بعرادة أو بمنجنيق»[٨].

لم تكن لهم ايديولوجية خاصة أو نظرية مضادة للخلافة ومطلبهم الأساسي كان في تحسين اوضاعهم القاسية، ويقول المستشرق بروكلمان: «وان الذي لا شك فيه انه لم يناد بشيء من الاصلاح في الاحوال الاجتماعية ولكنه اكتفى بأن وعد هذا الشعب المظلوم ـ والعبيد بجملتهم ـ وعداً قاطعاً بتحسين حالهم وضمان الحرية والثروة لهم»[٩]..

زعزعت هذه الثورة الامبراطورية العباسية في عقر دارها وكادت تقوض اركانها وقد انفذ الخليفة المعتمد (٨٧٠ م ـ ٨٩٢ م) العساكر تلو العساكر لتأديب، حسبما يسميه الطبري،«عدو الله» أو «الخبيث» وكلها كانت تفشل في حربها، فقد استعصم الزنج كما يقول الطبري في منطقة كثيرة المستنقعات والاقنية ملائمة لحركاتهم الحربية. وتمكنوا من رد جند الخليفة على اعقابهم خاسرين. ويقدر عدد القتلى في هذه الثورة زهاء نصف مليون انسان.فيقول عنها المؤرخ فيليب حتي: «وكان من افجع حوادث هذا العصر وادماها ثورة الزنج»[١٠].

نجح الموفق اخو الخليفة في اخماد هذه الثورة بعد ان تمكن من ان يضرب المرافق الاقتصادية لدولة العبيد:منها قتل المواشي التي دأبوا على تربيتها كي يقتاتوا بها وتدمير الحقول الزراعية التي طوروها في نواحيهم.

من أهم أسباب سقوط هذه الثورة انها لم تملك ايديولوجية مناهضة للسلطة تطالب باعادة تنظيم المجتمع لمصلحة الطبقات المظلومة. يقول المستشرق فون غرينبويم في

كتابه حضارة الاسلام: «ومع ان نسبة جسيمة منهم كانت هي نفسها الرقيق فانهم لم يظهروا أية رغبة في الغاء الرق بل عمدوا بدلاً من ذلك إلى اتخاذ العبيد لانفسهم»[١١].

وتبدأ في هذا الوقت بالذات أهم ثورة في التاريخ العربي وهي ثورة القرامطة. بدأت بذور هذه الثورة تنمو في سواد الكوفة عام ٨٧٧ م، انها ثورة ذات وجه ايديولوجي وقد كان لها خطة وبرنامج ونظرية. ايديولوجيتها كانت معارضة لايديولوجية الدولة ومن تمثلهم الدولة من اقطاعيين ورجال دين محافظين، كان لها تنظيم سري دقيق وتنظيم مالي صارم، استمر الصراع والمطاردة بينها وبين السلطة إلى ان تمركزت قواها في البحرين بقيادة سعيد الجنابي الذي كان في الأصل عاملاً بسيطاً يشتغل بترقيع اكياس الطحين لقاء أجر قليل حتى نشر دعوته الفكرية في المؤاخاة بين الناس على اختلاف اديانهم وقومياتهم، فأثار فيهم أحلام السعادة في الحياة على هذه الأرض دون الانتظار للسعادة الآخروية.

أقام جمهورية قرمطية في البحرين خلال عشرينات القرن الرابع الهجري. وكانت أول جمهورية عربية في تاريخ العرب، جمهورية لها نظامها السياسي ونظريتها وايديولوجيتها القائمتان على فلسفة تتمثل بفكرة تأليه العقل، كان لهذه الجمهورية قيادة جماعية وحكومة يرأسها ستة أشخاص يؤلفون ما سموه بمجلس العقدانية وكان هذا المجلس يصدر مقرراته بالاجماع. ومن مقرراته الغاء ضرائب الارض والرسوم التي كانت ترهق شغيلة الارض، وتشريع نظام ضرائبي لا يرهق المواطنين، وعن انتمائهم الطبقي تدل كل المصادر على انهم كانوا الفلاحين المعدمين، وعمالاً وصناعاً ويحكي لنا الطبري عندما تمكن بدر غلام الطائي من التغلب على احدى فرق القرامطة اضطر إلى اخلاء سبيلهم «خوفاً على السواد ان يخرب اذ كانوا فلاحيه وعماله»[١٢].

نراهم عندما يستلمون السلطة يبطلون فريضة الصلاة ومما نقله برنارد لويس عن سفر نامة قول ناصر خسروا «وهم لا يصلون ولا يصومون على الرغم من اعترافهم بنبوة محمد»[١٣]. بينما في حين كان العمال والفلاحون يشتغلون في مزارع الاقطاعيين فرضوا خمسين صلاة في اليوم مما حدا بالاقطاعيين الى الشكوى، وبرنارد لويس يقول: ان أول احتجاج على دعوة القرامطة السلمية وجهه مالك احدى المقاطعات يشكو من الخمسين صلاة في اليوم التي أمر بها الداعي لأنها تعرقل شغل عماله»[١٤].

وقد كانوا سنداً للعمال والفلاحين المأجورين اينما ظهروا في سوريا والعراق والبحرين ويقول عنهم عارف تامر: «كانوا يقولون ان العامل المأجور في مجتمع يقوم أساسه على نظام الأجور يبقى ابداً تحت رحمة مخدوميه»[١٥]. ثم يقول عنهم: «فكانوا يقولون ويدعمون اقوالهم بالبراهين الدامغة بأن الطبقة المالكة احتفاظاً بثروتها ومصالحها لجأت إلى قوتها الاقتصادية تدافع فيها عن وجودها ومكانتها»[١٦].

ويدعي عارف تامر بأن القرامطة طبقوا نظام افلاطون في جمهورياتهم، وهذا طبعا غير صحيح لأن افلاطون تحدث عن الاحرار فقط وليس عن العبيد بينما القرامطة حرروا العبيد.

كانت القرامطة احدى الفرق المتطورة للاسماعيلية وقد كانوا أقرب الناس في العقيدة والغـاية للبـابكية. وقد كانوا عقليين (RATIONALISTS) والفرق بينهم وبين المعتزلة أن الاسمـاعيلية كانـوا يؤولـون الـديانات واحكامها وشعائرها تؤويلاً يؤدي إلى نفيها، بينما المعتـزلة كانوا يحاولون التوفيق بين الدين والعقل، وقد كيفوا نفسهم للواقع وطالبوا نزع السلطة من ايدي بني العباس ونقلها إلى خلفاء علي وابنائه، ويقول برنارد لويس: «ويتفق هذا مع ما توصلت اليه تحقيقات فلوتن وبيكر من ان الاسلام لم يكن في ادواره الاولى بقدر ما كان علامة امتياز للارستقراطية المنتصرة، والمذهب الرسمي للدولة التي تمثله. وعلى هذا فان الشيعة الثورية كانت النتيجة الطبيعية في وسط ثيوقراطي لثورة الطبقات المظلومة»[١٧].

وابن رزام يؤكد في مواقف عدة على ان الاسماعيليين كانوا يبشرون بأن الشرائع لم تسن إلا لتقييد الجمـاهير وصيانـة المصالح الدنيوية للطبقة الحاكمة. وقد كان الغزالي صريحـا في هذا الشـأن فقال ان خطر الهرطقة الرئيسي انما هو في استهوائها الطبقات العاملة وأهل الصناعات والحرف.

ومن أهم بنود برنامجهم الاجتماعي المساواة بين الجنسين ثم ابطال ملكية الارض وتوزيعها على المحتاجين اليها مجاناً.

هم أول من قاوم في الاسلام العصبية القومية ودافع عن فكرة الاخاء الحقيقي لا بين المسلمين فقط بل بين جميع النـاس على اختلاف قومياتهم واديانهم. أي عـزم الاخاء المبني ليس على وحدة الدين كما كانت الآراء في الاسلام والكثلكة في القرون الوسطى

اراؤهم كانت على عكس «الشعوبية» والشوفينية المتطرفة، مبنية على أسس أممية.

وقد اصبحوا الممثلين الحقيقيين لجماهير الشعب المظلومة وضموا تحت لوائهم معـدمي جميع القوميات في الامبراطورية العربية. وقد حددت الطبقات طابعها الطبقي بغض النظر عن انتمائها القومي ويقول برنارد لويس: «ولكن حينما أخذ التمايز العضوي بين العـرب والمـوالي يزول شيئـا فشيئـا ويحـل محله التمايز الاقتصادي بين أصحاب الامتيازات والمحـرومين منهـا، أصبـح الشيعة الثوريون لا يمثلون الموالي وحدهم بل اصبحوا لسان حال الطبقات المظلومة كلها، فصار زرادشتيو الطبقات الراقية من الفرس سنة وبقوا على امتيازاتهم، وأخذ فقراء عرب العراق وسوريا والبحرين بالآراء الشيعية

المتطرفة»[18].

ثم يذكر في مكان آخر من كتابه: «وكادت باستيعاب تعاليمها وغاياتها البسيطة تنجح في توحيد شعوب الشرق الاسلامي كلها بغض النظر عن عقائدها واحوالها الاجتماعيه والدينية السائدة في ظل الخلافة الوسيطة»[19].

كانت الجمهورية القرمطية مكونة اكثريتها من سواد الشعب كما يسميهم ابن الاثير أي الفلاحين. ويقول ناصر خسرو: «لم تكن هنالك مسألة أزمة أرض أو فلاحون لا أرض لهم لأن الحكومة كانت تبتاع على حسابها ما تحتاج اليه من الاراضي لتوزعه على الفلاحين الذين لم يكن لهم أراضٍ يعتملونها بايديهم»[20]. وقد أقاموا مزارع حكومية لمصلحة أبناء الشعب وها هو ناصرخسرو يقول بأنه رأى بأم عينيه: «ثلاثين الفا من السودان يشتغلون في الحقول والبساتين على حساب العقدانية وهي الحقول التي اشترتها بمال الأمة، وان الشعب هناك لم يكن يؤدي لحكومته ضرائب ولا اعشاراً»[21].

وقد وضع ابو سعيد الجنابي نظام مالية متقن «حتى الصوف وفتل الحبال ودبغ الجلود وصناعة الجلود كلها عن طريق الدولة»[22]. وأقام المصارف الحكومية لتسلف الفلاحين والصناعيين بدون أي ربا، والطواحين كانت حكومية تطحن دون مقابل، واصلاح المنازل والمزارع والمرافق العامة كانت من واجب الحكومة وليس من واجب الافراد.

امتنعوا عن تعدد الزوجات.والزنا لم يكن معروفاً عندهم، ويقول عنهم الكاتب مصطفى غالب: «فالقرامطة عرفوا بزخم العاطفة الزوجية، وصدق الشعور والاعتزاز بالنسب، وبالعلاقات الزوجية الصادقة المبنية على التفاهم والمحبة والوفاء والتساوي بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات»[23]. كل تلك الاحداث والتطورات الاجتماعيه حدثت والفكر المعتزلي الذي كان خلال أكثر من قرن يقوم بدوره التاريخي، ليصبح علم الكلام عقبة في طريق التطور لأنه لاهوتي، وفي هذه الظروف الجديدة بالضبط أصبحت الحاجة ملحة في ايجاد فلسفة فكرية لهذا المجتمع.

استقلال الفلسفة

يقول كارل ماركس: «لا يخرج الفلاسفة من الأرض كما تخرج النباتات الفطريه، وانما هم ثمار عصرهم وشعبهم» ان أساس الفلسفة في الامبراطورية العربية كان قد بني على ايدي المعتزلة مؤسسي علم الكلام. وقد كانت الايديولوجية الدينية هي السند الحقوقي الأساسي لسلطة الخلافة وسيطرتها السياسية أي سلطة المنتفعين بالنظام الاجتماعي، وقد جلبت التطورات في العلوم الطبيعية والتجريبية في القرن الثالث الهجري

تحولات نوعية في مجال النشاط الفكري في المجتمع العربي مما هيأ للفلسفة ان تستقل عن علم الكلام.وهذا معناه الانتقال من الموقع الذي كانت تحل فيه مشكلة المعرفة حلاً عقلياً لاهوتياً مزدوجاً إلى موقع تملك فيه الحق بأنِ تحل مثل هذه المشكلة حلاً فلسفياً محضاً منفصلاً عن سيطرة النظرة اللاهوتية التي كانت من مستلزمات علم الكلام . والمفهوم الحقيقي لاستقلال الفلسفة في تلك المرحلة هو كون الفلسفة أخذت تنطلق في معالجتها لقضايا العصر والمجتمع من منطلقها الخاص ومنهجها الخاص متحررة من ضرورة الارتهان لمسلمات الفكر اللاهوتي ومعتمدة في مقولاتها المستقلة على مبادىء عقلية صرفة.

على الرغم من نجاح المحاولة لم يكن واقعياً ان نتخلص بقفزة واحدة من علاقتها المتشابكة مع علم الكلام ، فقد ظلت النزعة اللاهوتية تلازم بعض نظرائها واستنتاجاتهم وتعيق منطلقهم.

ظهرت إلى الوجود التجليات الأولى للفلسفة العربية بصورتها المستقلة على وجهتين، ظاهرة الكندي وظاهرة التصوف كشكل آخر لهذه الحركة والتي تعارض جوهرياً المنهج الاخلاقي لعلم الكلام المعتزلي.

الكندي

وهو يعقوب ابن اسحاق الكندي المتوفي سنة ٨٦٦ م وفيلسوف العرب الأول. ان بروز ظاهرة هذا الفيلسوف العربي في المجتمع العباسي لم تكن مصادفة اعتباطية، ولا حالة استثنائية بل كانت نتاج حركة تطور ذلك المجتمع بمضمونها الشامل.

وفلسفته ليست فلسفة يونانية بلغة عربية كما يزعم بعض المستشرقين الغربيين، بل كانت الشكل العربي الاسلامي التي اقتضت حاجة المجتمع العربي الاسلامي ظهوره.

حياته

ولد الكندي سنة ٨٠١ للميلاد بالكوفة واسم عائلته منسوب إلى كندة وهو من بني كهلان وبلادهم اليمن وكان ابوه اميراً عليها، درس في البصرة وبغداد علوم الدين واللغة والأدب. بدأ حياته العقلية متكلماً وشارك المعتزلة في بحوثهم المتعلقة بالعدل والتوحيد، ألمّ بعلوم الرياضيات والطبيعيات، والفلك والطب، والجغرافية، والموسيقى.

كان الكندي مرتبطا ايديولوجياً بالسلطة فهو سليل اسرة نبلاء وكان ابوه ممثلا للخليفة

العباسي، وكان هو شخصياً من اغنياء بغداد، وصاحب عقارات وكانت له صلات وثيقة بالبلاط لذلك جاءت شخصيته في تكوينها الفكري في تركيب معقد متناقض الجوانب.

لم يكن هو المؤسس للفلسفة العربية لأن أساس تلك الفلسفة كان قد بني قبل الكندي في زمن يمتد أكثر من قرن على ايدي مفكري المعتزلة الذين كان لهم ثقافة ومعرفة بالفكر اليوناني؛ وينقل لنا الدكتور حسين مروّة عن ريتشارد فالتزر «... انهم جميعاً يرجعون إلى اصول ثقافية واحدة مزيج من الافلاطونية والارسطوطالسية وان حظوظهم من هذا المزيج تختلف باختلاف امزجتهم وتنوع ميولهم الشخصية»[٢٤] بل هو كان أول من خرج عن المسلمات اللاهوتية، وهكذا وضع أساس البرهنة الفلسفية القحة. فقد ظهرت بهذا القرن ظاهرة تاريخية جديدة في المجتمع العباسي ظاهرة الاهتزاز والتصدع في ايديولوجية دولة الخلافة بفعل عوامل اقتصادية اجتماعية متضافرة. ومنها ظهرت الحاجة إلى شخصية قادرة على حمل لواء مقارعة الفكر اللاهوتي بجدارة. وقد نقل لنا الدكتور حسين مروّة عن القفطي في أخبار العلماء بأن الكندي اشتهر «بالتبحر في فنون الحكمة اليونانية والفارسية والهندية والتخصص باحكام النجوم»[٢٥]. وقد حصي للكندي ٣٧٩ مؤلفاً في مختلف العلوم. الأصل الأم لميلاد الفيلسوف هو المجتمع العربي الاسلامي الذي منه ولد فلاسفة العرب ومنه ولدت فلسفتهم ومنه عاشت من جديد تلك الاصول الثقافية اليونانية نفسها مع مشكلات انسانية جديدة هي علاقات المجتمع الاقطاعي ذي الخصائص المتميزة، لا علاقات المجتمع العبودي اليوناني القديم. ظهور الفيلسوف حينئذ كان انعكاساً غير مباشر لابرز السمات المميزة لعصره ومجتمعه.

يقول عنه المستشرق الغربي بروكلمان «الكندي فيلسوف العرب وأحد العقول الكبرى في تاريخ العالم كما دعاه كاردانو سنة ١٥٥٢ »[٢٦].

فلسفته

الكندي أول من فتح أمام الفكر العربي افاق المعرفة الفلسفية بمفهومها الأوسع وآفاق المعرفة الطبيعية والنظرية التجريبية دون ان يربطها بقضية العلاقة بين الله والطبيعة، وقد وضع تعريفاً للفلسفة سماها «علم الاشياء بحقائقها بقدر طاقة الانسان»، وقسم موضوعاتها إلى حسي وعقلي والهي، ونتيجة مهمة يصل اليها عقله الفلسفي حيث يقول: «ان ليس من حدود يقف عندها عقل الانسان».

دار الصراع بين المعتزلة وخصومهم، فوقفت المعتزلة إلى جانب احترام التراث الفكري الفلسفي العالمي والاستفادة منه لتطوير علم الكلام، ووقف السلفيون موقف

العداء للفلسفة وتراثها كله، أما الكندي فكان موقفه فلسفياً، فقد اعتبر هذا التراث نتاجاً بشرياً مشتركاً اسهمت في انتاجه خلال العصور آلاف العقول من مختلف الاقوام والشعوب، فهو يقول في (رسالته الأولى في الفلسفة) «كان ذلك انما اجتمع في الاعصار السالفة المتقادمة، عصرا بعد عصر إلى زماننا هذا، مع شدة البحث ولزوم الدأب وايثار التعب في ذلك، وغير ممكن ان تجتمع في زمن المرء الواحد وان اتسعت مدته واشتد بحثه، ولطف نظره وآثر الدأب، ما اجتمع بمثل ذلك من شدة البحث والطاف النظر وايثار الدأب في اضعاف ذلك من الزمان الاضعاف الكثيرة».

ان تحيزه للفلسفة وحرية التفكير جريء وصريح. امتازت فلسفة الكندي بطابعها التوفيقي بين الدين والفلسفة، والواقع ان المسألة لم تكن عملية توفيق ارادية بل كانت عملية تاريخية موضوعية جرت في سياق الصراع الايديولوجي الذي أخذ يبرز خلال الثورات المتلاحقة في مختلف اقطار دولة الخلافة العباسية ضد أشكال الاضطهاد الاجتماعي والقومي.

وقد كان الكندي التجلي الملموس لكل من شكلي هذا التداخل والازدواج، لذلك لم يستطع ان يحل مشكلة العلاقة بين الدين والفلسفة. يشق لنفسه وللفلسفة العربية التي ظهر كاول ممثل لها طريقاً ذات خط مستقل بوجه عام، وله أول صياغة فلسفية عربية للمفهوم الاسلامي عن الله وعلاقته بالعالم.

وهو أول مفكر عربي وضع قضية المعرفة في مجال أوسع مما كان من قبل وفتح أمام الفكر العربي آفاق المعرفة بمعناها الأشمل، وآفاق المعرفة الطبيعية النظرية والتجريدية دون ربطها ـ ضرورة ـ بالعلاقة مع الله، فقد حصر أهل الحديث معرفة أصول العقائد الاسلامية في مصدر واحد في (نصوص القرآن والسنة) واهملوا الفلسفة،وحتى المعتزلة لم تخرج محاولاتهم الفكرية عن نطاق المنهج اللاهوتي لأنهم لم يبحثوا العالم الطبيعي إلا من خلال علاقة هذا العالم بالله.

ان الكندي كان العصارة الأولى لعملية التفاعل الاجتماعي والثقافي الحيوي بين تراثات روحية متنوعة لشعوب وقوميات عدة.

وقد قسم نظرية المعرفة حسب مواضيعها:«علم الربوبية» «حين يكون الموضوع عن الله والشريعة»؛ «والعلم الطبيعي» حين تكون معرفة حسية وموضوعها العالم المحسوس (العلم المادي) «والعلم الرياضي» حيث تكون المعرفة عقلية وموضوعها من الأمور التي لا تدرك بالحس ولا يمكن الوصول اليها إلا بالطرق الاستدلالية وبالعقل كموضوعات العلم الرياضي.

نزعته الفلسفية تقربه إلى الميول المادية الارسطية في نظرية المعرفة، وقد نشأت

عند الكندي بفضل ممارسته مختلف العلوم الطبيعية نظرياً وتطبيقياً ورسالته في العقل هي الأولى من نوعها في الفلسفة العربية وقسمها إلى أربعة أقسام :

(١) العقل الذي بالعقل ابدا.

(٢) العقل الذي بالقوة وهو النفسي.

(٣) العقل الذي خرج في النفس من القوة إلى الفعل.

(٤) العقل الفعلي، ورؤيته تتضح بانها صحيحة وهي ان المرحلة الأولى للمعرفة عند الانسان تبدأ بحالة الامكان المطلق أو ما ندعوه في لغة العصر بالقابلية، أو الاستعداد، أو التهيؤ الطبيعي لتلقي المعرفة وان مرحلة أخرى تعقبها هي مرحلة التلقي الفعلي للمعرفة أي مرحلة اكتساب المعارف التي بها تتكون ملكة التفكير الفعلية ملكة تجريد الاشياء من صورها الحسية وتحويلها إلى صور نوعية أي تحويلها من كونها «أشياء» إلى كونها «أنواعاً» بل يمكن القول ان الكندي تنبه كذلك إلى المرحلة الثالثة من مسار هذه العملية وهي مرحلة الانتقال إلى «الأشياء» نفسها ووضع «الأفكار» أو «الأنواع» المنتزعة منها سابقاً موضع التطبيق عليها من جديد.

فلسفته بالمقارنة مع الفلاسفة اليونان

في قضية هل عالمنا المادي حادث أم قديم، أي هل هو مخلوق أو غير مخلوق، واذا كان مخلوقاً هل خلق من وجود أو عدم؟ يجيب الكندي: «العالم حادث مخلوق من عدم» موقفه هذا ديني يعارض موقف ارسطو الذي ينطلق من مفهوم الله عن نظرة عقلانية ويعالج القضية بطريقة عقلانية فالله عنده عقل نظري وليس هو الله الديني العادي. والعالم مادي جسمي في حين ان الله غير مادي وغير جسمي فكيف يمكن التماس بينهما، ما لم يكن الشيء موجوداً بالقوة أي بالامكان يمتنع ان يكون موجوداً بالفعل، فان العدم لا يمكن ان ينتج وجوداً البتة، فلذلك وجود المادة اذن ازلي غير مسبوق بالعدم.

وقد اختلف بنفس المنطلق مع افلاطون لأنه لا يعترف بوجود أزلي حقيقي غير وجود الله الواحد، بينما افلاطون يعترف بوجودات ازلية كثيرة. لا شيء في العالم الحسي مخلوق من لا شيء، عند افلاطون، وعند الكندي يخلق شيء من لا شيء. لدى افلاطون سبب وجود الاشياء متعدد في عالمنا ولدى الكندي سبب كل شيء في هذا العالم هو الله. افلاطون يفترض الوهية العالم والله ليس مفارقاً للعالم ويبقي الازدواجية بين الله والطبيعة، وعند الكندي فان الله بما انه خالق العالم هو خارج العالم مفارقاً له.

وقد اختلف الكندي مع الافلاطونية المحدثة أيضاً. الكندي يقول بخلق العالم من

عدم.الافلاطونية المحدثة تقول بخلقه من وجود أزلي، والعالم قديم أزلي لأنه وجد بعملية الفيض ومرتبط بأزلية الأول، والعالم المادي أزلي.

نظرية الفيض الافلاطونية الحديثة ترى ان صدور الوجود من الأول هو عملية اضطرارية حتمية غير مقترنة بالارادة والاختيار. وهذا فارق أساسي بينها وبين الكندي، لأنه يرفض بصورة قاطعة تصور عملية خلق العالم دون ارادة الله واختياره.

العالم المادي عالم خسيس في نظرية الافلاطونية المحدثة لكونه أدنى درجات الفيض، والكندي يرفض هذه الموضوعة لأن الاسلام ينظر إلى الروح والجسم (المادة) كماهيتين مستقلتين متكافئتين ويرى ان الحركة والزمان لها نهاية لذلك للجسم نهاية.

أما في قضية العلاقة بين ارادة الله وارادة الانسان فقد التزم مذهب الاختيار دون الجبر.

خاتمة

ملك الكندي اصالة الفيلسوف، وهذه الاصالة كانت تستدرجه، رغم عدم تخلصه من انتمائه اللاهوتي، إلى مواقف فلسفية تضعه على المفترق شبه الحاسم بين النزعتين، وأحياناً بين الاتجاهين المثالي والمادي. كانت ظروف المجتمع العباسي في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) تقتضي من الكندي ان يتجاوز هذا المفترق ، ولكن انتماءه اللاهوتي كان يبقيه على المفترق لا يتجاوزه رغم ما كان في نزعته الفلسفية من دوافع قوية إلى التمرد والتجاوز.

الهوامش

(١) القرامطة، اصلهم، نشأتهم، تاريخهم وحروبهم تأليف عارف تامر، ص ٣٠.
(٢) فجر الاسلام لاحمد أمين، ص ١٠٩.
(٣) من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام، لبندلي جوزي، ص ٩٣.
(٤) اصول الاسماعيلية في الفاطمية والقرمطية، لبرنارد لويس، ص ١٥٦.
(٥) من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام، بندلي جوزي، ص ٩١.
(٦) تاريخ الأمم والملوك، لابي جرير الطبري، الجزء العاشر، ص ٣٣٨.
(٧) تاريخ الأمم والملوك للطبري، الجزء الحادي عشر، ص ١٧٥.

(٨) نفس المصدر، ونفس الجزء، ص ٢٧٨.
(٩) تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان، ص ٢١٦.
(١٠) تاريخ العرب (مطول) بقلم الدكتور فيليب حتي والدكتور ادور جرجي والدكتور جبرائيل جبور، ص ٥٦١.
(١١) حضارة الاسلام، بقلم فون غرينبويم، ص ٢٦٨.
(١٢) تاريخ الأمم والملوك، للطبري، الجزء الثالث عشر، ص ٢٧٠.
(١٣) اصول الاسماعيلية والفاطمية والقرمطية، لبرنارد لويس، ص ١٦٠.
(١٤) نفس المصدر، ص ١٥٠.
(١٥) القرامطة اصلهم، نشأتهم... تأليف عارف تامر، ص ٨٢.
(١٦) نفس المصدر، ص ٨٠.
(١٧) اصول الاسماعيلية... لبرنارد لويس، ص ١٤٩.
(١٨) نفس المصدر، ص ٥٩.
(١٩) اصول الاسماعيلية... لبرنارد لويس، ص ٣١.
(٢٠) تاريخ الحركات الثورية في الاسلام، لبندلي جوزي، ص ١٩٧.
(٢١) نفس المصدر، ص ١٩٨.
(٢٢) القرامطة اصلهم نشأتهم... لعارف تامر، ص ٩٠.
(٢٣) القرامطة بين المد والجزر، لمصطفى غالب، ص ٤٤٥.
(٢٤) النـزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية لحسين مروّة، الجزء الثاني، ص ٤٦، نقلاً عن الفلسفة الاسلامية ومركزها في التفكير الانساني لريتشارد فالتزر.
(٢٥) النزعات المادية في الفلسفة العربية، الجزء الثاني، ص ٤٨.
(٢٦) تاريخ الشعوب الاسلامية، لكارل بروكلمان، ص ٢٠٢.

ملاحظات حول الازمة الاقتصادية الراهنة

د. سعاد خيري

تكمن الثورة العلمية التكنولوجية في اساس البركان الذي هزّ العالم على اختلاف انظمته وعلى اختلاف درجات تطوره. وستبقى حممه تصلي البشرية وتدمر ثمرات جهودها ما لم تتوصل هذه الى جذر التناقض في علاقات الانتاج الذي فرضته هذه الثورة وحل هذا التناقض وفقاً لقوانينها التي هي في مصلحة البشرية وضمان تطور حضارتها وحمايتها.

لقد انفجرت ازمة المنظومة الاشتراكية بفعل تخلفها عن استيعاب الثورة العلمية التكنولوجية في مختلف فروع الاقتصاد لتحقيق القانون الاساسي لانتصار الاشتراكية وهو الانتاجية الاعلى وما تبعه من فشل في تحقيق الافضلية في جميع الميادين على الرأسمالية ولاسيما في مجال حقوق الانسان فان معالجة الازمة كان يجب ان تبدأ بمعالجة الاقتصاد بتعميم الثورة العلمية التكنولوجية في جميع فروع الاقتصاد كما فعلت الصين دون اهمال النواحي الاجتماعية والسياسية. . الامر الذي ادى اهماله الى انهيار تلك الانظمة في حين تتمتع الصين اليوم باقتصاد حيوي ينمو بوتيرة تفوق جميع بلدان العالم وتقدر بـ ١٥٪ في حين لا تزيد وتيرة نمو أرقى البلدان الرأسمالية المتطورة على ٣٪.

وتسحق الازمة البلدان المتخلفة ويذهب ضحيتها ملايين الناس جوعاً بعد ان استنزفت البلدان الرأسمالية المتطورة خيراتها ودماءها وحرمتها من ثمرات الثورة العلمية

التكنولوجية. ان معالجة ازمة البلدان المتخلفة ولاسيما افريقيا لا تتم بتقديم المساعدات الانسانية مهما بلغت من الضخامة فلا يمكن لشعوب قارة بأكملها ان تعيش على الصدقات ولا يمكن للانسان مهما اتسمت هذه المساعدات بطابع انساني ان تغنيه عن العيش بكرامة بجهده و بداعه دع عنك ما يرافق هذه المساعدات من صفقات واهداف بعيدة عن المظهر الذي ترتديه. ان الحل الوحيد للازمة يكمن في ضخ الاستثمارات والتكنولوجيا الحديثة الى القارة بنطاق واسع لتستعيد شعوب افريقيا حيويتها وكرامتها ولتسهم في تطور الانسانية.

وتنطوي البلدان المتخلفة على العديد من بؤر التفجر نتيجة للتخلف الاقتصادي الاجتماعي وتعمل البلدان الرأسمالية المتطورة في ركضها وراء الارباح الى الغام هذه البؤر بأسلحة الدمار الشامل مما يهدد العالم بالفناء. ولا يمكن انقاذ العالم وشعوب هذه البلدان إلا باطلاق التطور الاقتصادي الاجتماعي بادخال الثورة العلمية التكنولوجية وتحريم اسلحة الابادة الشاملة وتجارة الاسلحة عموماً وتحريم الحروب كأداة لحل المشاكل الوطنية والاقليمية والدولية. .

وتعيش البلدان الرأسمالية المتطورة ازمة مستحكمة لا تجد منها مخرجاً منذ اعوام فلم تعد العلاجات التي ابتكرها فطاحل الاقتصاديين الرأسماليين تجدي نفعاً. . فمدرسة فريدمان التي تؤمن بعلاج الصدمة والتي تلقي بأعباء الازمة على المجتمع وتقف ضد تدخل الدولة وصرف اموالها لحل الازمة وضد التضخم. . هذه السياسة الاقتصادية التي سارت عليها ادارة بوش عمقت الازمة الاقتصادية في الولايات المتحدة بشكل لم يسبق ان شهدته تلك البلاد. . والمدرسة الكينزية التي يتبناها كلينتون مرشح الحزب الديمقراطي لانقاذ الاقتصاد الامريكي من الازمة من خلال ضخ الاستثمارات الحكومية الواسعة لتحقيق التشغيل العام وتحريك السوق من خلال زيادة الاستهلاك واجراءات اقتصادية مهمة اخرى (كتقليص الميزانية العسكرية بشكل كبير والاهتمام بمشاكل البيئة وزيادة الضرائب على الاغنياء وتخفيضها على الفقراء. . وتعميم التدريب الشامل والمستمر للعمال. . الخ) هذه الاجراءات الايجابية سوف تخفف من الازمة التي يعانيها الاقتصاد الامريكي دون ان تقضي عليها. فكل هذه الاجراءات تنهض بها ادارة الاقتصاد الالماني والياباني ومع ذلك فانهما يعانيان من الازمة الاقتصادية ولو بشكل اخف من امريكا وبريطانيا لان كل هذه الوسائل تعالج نتائج الازمة وليس لبها وترمم علاقات الانتاج السائدة ولا تجددها كما تقتضي الثورة العلمية التكنولوجية.

ولفهم كنه هذه الازمة الرأسمالية الشاملة والمستحكمة، وسبل حلها لا بد من الاستعانة برأسمال ماركس دون تحويله الى وصفات جاهزة. . فكل ما نتمتع به من خيرات وما نتوق للتمتع به وكل ما في العالم من قيم حضارية وكل الارباح التي يتمتع بها مختلف

اصناف الرأسماليين هي من انتاج العاملين في ميدان العمل اليدوي والفكري من عمال وفلاحين وعلماء ومهندسين وفنانين وادباء . . ومن خلال علاقات الانتاج الرأسمالية يجري توزيع واعادة توزيع القيم التي ينتجها العمل بالشكل الذي يعيد انتاج العلاقات الرأسمالية وبما يخدم تطورها وتوسعها من خلال تطوير القوى المنتجة. فكل ما يصيب أي فرد في المجتمع من قيم سواء ما يكفي لسد الرمق أو الارباح الطائلة التي يستولي عليها المضاربون بالبورصة وغيرهم من الطفيليين هي أجزاء من القيم الاضافية التي تخلقها قوة العمل . . فقوة العمل كما يعرفها ماركس هي البضاعة الوحيدة التي تنتج اكثر من قيمتها . . فقسّم يوم العمل الى وقت العمل الضروري الذي يعوّض به العامل عن قيمة قوة عمله ووقت العمل الاضافي الذي يستحوذ عليه الرأسمالي بشكل القيمة الزائدة. وكلما تطورت القوى المنتجة تضاءل وقت العمل الضروري للتعويض عن قيمة قوة العمل وتزايد وقت العمل الاضافي أي تزايدت القيمة الزائدة التي يستحوذ عليها ويتقاسمها الرأسماليون الصناعيون والماليون والتجار وعن طريق اعادة التوزيع وتدخل الدولة بتقاسمها كل المجتمع وفقاً للعلاقات الرأسمالية .

ولكن الثورة العلمية التكنولوجية خفضت وقت العمل الضروري للتعويض عن قيمة العمل الى لحظات وضاعفت من وقت العمل الاضافي المكون للقيمة الزائدة بشكل فاق كل تصورات ماركس وتجاوز كل القواعد التي وضعها لتحديد متوسط الربح الذي يستولي عليه الرأسماليون على اختلاف اصنافهم وأصبح العامل الواحد ينتج في الوحدة الزمنية ما كان ينتجه مئات العمال قبل الثورة العلمية التكنولوجية أو الآن في المجالات التي لم تشملها الثورة. وأدى ذلك في البلدان الرأسمالية المتطورة التي استوعبت الثورة العلمية التكنولوجية الى نتائج مترابطة اهمها: فيض اليد العاملة، فيض الانتاج . . انخفاض قيمة البضائع نتيجة لانخفاض وقت العمل الاجتماعي الضروري لانتاجها . .

وبدلاً من تخفيض ساعات يوم العمل كما تقتضي الثورة العلمية التكنولوجية وهو كأس العلقم الذي يجب ان يتجرعه الرأسماليون دفعة واحدة لجأوا الى اسهل الطرق بدفع كأس العلقم الى العمل فتم فصل العمال الفائضين حتى بلغوا عشرات الملايين الامر الذي فاقم ازمة فيض الانتاج. اذ ان زيادة العمال العاطلين قلل من الاستهلاك العام واصاب الاقتصاد بالركود.

وبدلاً من تخفيض اسعار البضائع وفقاً لانخفاض قيمها انسجاماً مع قانون القيمة (احد القوانين الاساسية للرأسمالية) اصدرت الدول الرأسمالية المتطورة قوانين حماية الاسعار وتقف الرأسمالية الامريكية بالمرصاد دون تخفيض اسعار البضائع المتراكمة الذي تتبعه اليابان باتهامها باقتراف جريمة «الاغراق» (Dumping) أي البيع بسعر دون تكاليف

الانتاج! فتحول بذلك دون تمتع معظم فئات المجتمع بنعم الثورة العلمية التكنولوجية وتشدد في نفس الوقت من ازمة فيض الانتاج.

ولم تعد مقولة ان الرأسمالية تمتص دماء وعرق العمال العاملين هي الاساس في الرأسمالية المعاصرة ولاسيما وان معظمهم اخذ يدفع اجوراً تعويض عن قيمة قوة العمل التي اصبحت ضئيلة جداً بالنسبة للقيمة الزائدة التي يستحوذون عليها واحتلت مكانها مقولة ان الرأسمالية تمتص حيوية المجتمع بأسره بطرحها المزيد والمزيد من اليد العاملة خارج ميدان العمل. . ولا يمكن لأي تعويض عن البطالة أو أي ضمان اجتماعي ان يصون حيوية المجتمع الا بتوفير العمل لكل انسان قادر عليه وراغب فيه وهذا بدوره يطلق الطاقات الاستهلاكية للمجتمع لتستوعب فيض الانتاج الذي اتاحته الثورة العلمية التكنولوجية ويمهد السبيل لتطورها وتطور الحضارة الانسانية.

ولا يمكن تحقيق ذلك في عصر الثورة العلمية التكنولوجية إلا بتقليل ساعات يوم العمل فبدلاً من ان يشتغل العامل ثماني ساعات مرهقة بالجهد العصبي والجسمي المكثف الذي تتطلبه التكنولوجيا الحديثة، يعمل اربع ساعات فيمكن مضاعفة عدد العمال، علماً بان تقصير يوم العمل هذا لا يلغي الوقت الفائض الذي ينتج القيمة الزائدة والارباح الطائلة والانتاج الوفير وإنما يقصره نسبياً في حين يستعيد الاقتصاد نشاطه والمجتمع حيويته وهذا بحد ذاته ثورة في علاقات الانتاج كما وصف ماركس تخفيض ساعات يوم العمل الى (١٠) ساعات بتأثير الثورة الصناعية.

واحدثت الثورة العلمية التكنولوجية فجوة في مستوى تطور طرفي قوى الانتاج. . فارتفاع مستوى التكنولوجيا لم يرافقه ارتفاع مناسب في مستوى العمال المهني والثقافي الامر الذي يتطلب نشر الثقافة العامة والتدريب التكنولوجي المستمر للعمال لكي يواكبوا التطور المستمر للتكنولوجيا. . وقد تلافت لحد ما هذه الثغرة البلدان الرأسمالية التي مازالت تتمتع بحيوية كألمانيا واليابان. فقد بلغت فترة التدريب المستمر للعمال ١٠٪ من وقت العمل في حين لم يتجاوز هذه الفترة في البلدان الرأسمالية المحافظة مثل الولايات المتحدة وبريطانيا ٢٪ من وقت العمل. وقد تبنى الرئيس الامريكي بوش فكرة التدريب المستمر للعمال تحت شعارات براقة لتكون امريكا السباقة في جميع الميادين. فسأل مسؤول البرنامج الاقتصادي لقناة التلفزيون الامريكي (C.N.N.) احد رؤساء ادارة بوش لشؤون العمال: ـ هل اصبح التدريب اذن من حقوق العمال؟ فأجابه المسؤول: ـ كلا. . ولكنه اصبح ضرورة ملحة لمواجهة المنافسة الاقتصادية مع ألمانيا واليابان. . !

ويرتبط خفض ساعات يوم العمل بتوفير الوقت لتدريب العمال المستمر وتوفير وسائل رفع المستوى الثقافي للمجتمع عموماً. .

ولم يعد نظام التوزيع السائد الملائم لعلاقات الانتاج لعصر ما قبل الثورة العلمية التكنولوجية يلائم عصرنا . . فالاجور اخذت تشمل فئات اقل فأقل من العمال والضرائب مهما ارتفعت لم تعد تكفي لسد حاجات المجتمع الحضاري والتراكم المالي لدى الرأسماليين لم تعد تستوعبه الطاقة الانتاجية التي يحدّ منها الاستهلاك المحدود فأخذت تفيض به البنوك وأسواق الاوراق المالية (البورصة) . . وفاق بذخ الرأسماليين بذخ الاقطاعيين في عهد انحلال نظامهم فراجت تجارة الجنس والمخدرات وازدهرت وسائل الدعاية وصناعة الاعلام مستخدمة ارقى ما انتجته الثورة العلمية التكنولوجية لقولبة الرأي العام العالمي وتبذل المليارات في شتى المجالات لتحويل كل ما هو جميل وانساني الى تجارة حيث تغدق الملايين على لاعبي الرياضة فتحول الرياضة من هواية انسانية وابداع الى مهنة وتجارة فقد ارتفع سعر لاعب كرة القدم مارادونا الى ٩ ملايين دولار وهو يطالب بـ ١٥ مليون دولار ليستطيع تحرير نفسه من عقد سابق . . ! وفي لعبة الشطرنج افرد رأسمالي يوغسلافي خمسة ملايين دولار للاعبين فشر وسباسكي وبلاده تتقطع اوصالها وشعبه ينزف دماً . . ولعبة التنس المفتوحة في امريكا خصص لها ثمانية ملايين دولار بحيث يخرج الفائزون في هذه اللعبة بملايين الدولارات ويصبحون في عداد المليونيرية في حين يتضور ارقى علماء العالم جوعاً في روسيا ولا تدفع امريكا لقاء استخدامهم اكثر من ألف دولار سنوياً . لقد اجاب احد هؤلاء العلماء في مقابلة تلفزيونية عن تأثير الاحداث على حياته فقال متألماً : ـ ان اطفاله يرفضون التعلم . . ! إذ ما فائدة العلم والعلماء يجوعون بينما يغدو الاميون مليونيرية . . !

ويتهافت الرأسماليون على استثمار اموالهم في البلدان الرأسمالية المتطورة ركضاً وراء الربح الوفير السريع والمريح بما فيهم رأسماليو البلدان المتخلفة وملياردييرية النفط العرب في حين تتمرغ شعوب البلدان المتخلفة في وهدة الفقر ومآسيه . . واذ تتهاوى قيم ارصدتهم واستثماراتهم بفعل الازمة فليس امامهم سوى الاستثمار في البلدان المتخلفة التي سبقتهم اليها الرأسمالية اليابانية في زحفها البطيء من جنوب شرقي آسيا . .

ان الثورة العلمية التكنولوجية تفرض نظام توزيع جديد يتلاءم مع الغنى والوفرة التي حققتها . . وان برنامج المرشح الديمقراطي لرئاسة الجمهورية الامريكية للخروج من الازمة بزيادة الضرائب على الاغنياء وتخفيضها على الفقراء وزيادة مخصصات الرعاية الاجتماعية والصحية والاهتمام بالبيئة هذه الاصلاحات ترمي الى ترميم نظام التوزيع السائد والواقع يتطلب تجديده . فالثورة العلمية التكنولوجية تتطلب توزيعاً يضمن التطور المتناظر لجميع فئات المجتمع وجميع مناطق العالم مع تبلور التمايز في الابداع والخصوصية ، كما يضمن تمتع جميع البشر بنعم الحضارة الانسانية وامكانية المساهمة في تطويرها . . انها تتطلب

خلق آليات جديدة ومقاييس جديدة للتوزيع . فان ما موجود من آليات ومقاييس لم تعد تلائم عصرنا . . وحتى البنوك الدولية كصندوق النقد الدولي وبنك الاعمار الدولي والمؤسسات الدولية الاخرى استطاعت الرأسمالية تحويلها الى ادوات لتحقيق اهدافها الضيقة . فها هي جميعها تتفرج على ما تعانيه شعوب افريقيا ولا تعمل اكثر من تقديم الفتات لها على شكل مساعدات انسانية تزين وجه الرأسمالية القبيح في حين تستطيع ضخ المليارات المتوفرة لديها لاعمار افريقيا .

لقد ادركت بعض فئات الرأسماليين عمق الازمة التي يعيشها النظام الرأسمالي ولكنهم بطبيعتهم الاستغلالية لا يستطيعون شرب كأس العلقم دفعة واحدة وإنما على دفعات فلم يفكروا بتخفيض ساعات يوم العمل بل حتى العمال لم يطالبوا بذلك لانهم مستعدون للعمل بأي شروط لاثبات انسانيتهم وحقهم بالعمل، ولكنهم يضطرون الى تخفيض ساعات يوم العمل لحساب التدريب ويضطرون الى الصرف على رفع كفاءة العمال دون ان يعترفوا بانها حقوق مشروعة للعمال ويحاولون اظهارها كمنحة دون ان تصبح قانوناً وحقاً . . وستبقى الرأسمالية تتخبط في ازمتها وتبقى الانسانية تعاني الآلام وتتعرض لخطر الفناء ما لم يجر تطبيق وتطوير قوانين الثورة العلمية التكنولوجية في تخفيض ساعات يوم العمل ورفع مستوى الشغيلة مهنياً وثقافياً وضمان التطور المتكافيء لجميع فئات المجتمع وجميع مناطق العالم . وهذه ليست أماني طوباوية وإنما تطورات حتمية يعجل في تحقيقها تحولها الى شعارات تناضل من اجلها البشرية جمعاء .

١٩٩٢/٩/١٤

عدو عدوي...

باتريك كوكبرن ترجمة: مصطفى الموسوي

من بعيد تبدو الالغام منتشرة كالفطر الاصفر على طول منحدر التلال في كردستان العـراقية، وعلى مسافة عشرين قدماً تبدو واضحة الاسلاك المعدنية التي تربطها. وأي اقتراب اكثر نحوها يعني ان حياتك في خطر. ففي كل قرية، تقريباً، هنالك رجال يمشون على عكازات بعد ان فقدوا احدى سيقانهم نتيجة انفجار لغم اثناء محاولة زرع محصول أو جمع حطب.

في حقول الالغام تلك، المنثورة في كردستان على مدى عشر سنوات تقدم صناعات الاسلحة التابعة للبلدان المصنعة، بما فيها الولايات المتحدة وفرنسا وايطاليا وبريطانيا، اوراق اعتمادها. ولاتزال تقتل وتجرح منذ زرّعها المهندسون العسكريون العراقيون. وفي محافظة السليمانية وحدها هنالك ما بين ٢٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ شخص فقدوا احد اطرافهم خلال سنة واحدة. والالغام هذه من النوع البلاستيكي الذي يصعب كشفه بواسطة كاشفة الالغام المعدنية، فضلاً عن وزنها الخفيف الذي يسهّل انتقالها بواسطة امطار الشتاء الى الانهار حيث تغسل النساء الكرديات ملابسهن.

وصل الى العراق ما يقدر بأربعين مليون لغم، منتشرة الآن في الجبال والسهول الكردستانية، عبر شبكة التجهيزات التي اقيمت بمساعدة اجنبية خلال الحرب العراقية ـ الايرانية. تلك الالغام واحدة من المنتجات النهائية لشبكة واسعة تشمل شركات مثل «ماتريكس تشرشل» التي تصنع معدات عسكرية، وبنوك مثل فرع «بانكا ناسيونال ديل لافورا» الايطالي في اتلانتا وجيورجيا، والحكومات الغربية التي شجعت وسمحت وتغاضت عن بيع هذه الالغام أو عجزت عن منعه. وهي (الالغام) ثمرة قرار غير معلن من قبل الولايات المتحدة وبريطانيا لدعم العراق، على رغم تظاهرهما بالحياد في الحرب التي بدأت عام ١٩٨٠.

ان ما كان يجري داخل نظام التجهيز العسكري العراقي المعقد ودور الحكومتين البريطانية والاميركية في ذلك ابتدأ يتضح في الاسابيع الستة الماضية. ففي ظروف متشابهة جداً في لندن واتلانتا انهارت قضيتان منفصلتان لافراد متهمين بمساعدتهم اللاقانونية للعراق، حينما كشف ان مسؤولين حكوميين كباراً كانوا على علم بذلك:

في اتلانتا (١ تشرين الاول) اجبرت وزارة العدل الاميركية على سحب الدعوى ضد كريستوفر دروغول مدير فرع البنك الايطالي باعتباره قد تصرف بمفرده لاقراض العراق خمسة مليارات دولار. بعد ذلك (في ٩ تشرين الثاني) حدث في لندن امر مشابه تماماً في قضية «ماتريكس تشرشل» اذ تبيّن ان وزراء كان لديهم علم بان صادرات الشركة للعراق تستخدم لاغراض عسكرية.

غير ان «ماتريكس تشرشل» و«عراق غيت»، بعد افتضاح دور فرع البنك الايطالي في الولايات المتحدة، كانتا آخر الحلقات في مسلسل العلاقات شبه السرية بين العراق والغرب، والتي دُشنت عام ١٩٧٩ حين اطاح الخميني بشاه ايران، الحليف المهم للولايات المتحدة وبريطانيا. سبق لهذا النوع من النكسات الاستراتيجية ان حدث من قبل، لكن وصول الاصوليين الى السلطة في ايران ادّى بشكل مفاجىء لامر لم يسبق له مثيل: الاستيلاء على السفارة الاميركية وايداع ٥٢ دبلوماسياً كرهائن.

فاقمت هذه الاهانة مرارة الموقف الاميركي ازاء ايران لعقد من الزمن. فقد اقتبس احد المستشارين (غاري سيك) من زبيغنيو بريجنسكي، مستشار الامن القومي في عهد كارتر، قوله عام ١٩٨٠: «ينبغي ان تعاقب ايران بكل الوسائل». واضاف سيك «لقد اطلق (بريجنسكي) تصريحاً علنياً فحواه انه لا يعارض تحركاً عراقياً ضد ايران». فهل ذهب بعيداً الى حد تشجيع صدام حسين على غزو ايران في ٢٢ ايلول ١٩٨٠؟ الايرانيون ومعظم قادة الشرق الاوسط مقتنعون تماماً ان الولايات المتحدة فعلت ذلك لتسلط ضغطاً على ايران كي تنهي ازمة الرهائن.

كان بريجنسكي ينكر، دائما، تشجيع العراق بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على شن الحرب. ربما يكون ذلك صحيحاً لكن واشنطن وبغداد على علم بنيّات بعضهما، وبمصالحهما المشتركة دون الحاجة الى تآمر مباشر.

لقد ابلغ صدام السعوديين بخطته، وتقول مصادر سعودية انه حصل على معلومات استخباراتية اميركية، عبر السعودية، عن الدفاعات الايرانية. وكان هذا فاتحة اسلوب ساد خلال السنوات العشر التالية: دعم اميركي للعراق، قدر المستطاع، عبر اطراف ثالثة.

وطبقاً لوثيقة هيئة الاركان المشتركة، التي سُمح بتداولها اخيراً، فان الولايات المتحدة كانت لديها معلومات جيدة، اكثر بكثير مما تدّعي، حول نوايا العراق. ذلك لانه كان لديها جاسوس له صلات وثيقة مع القيادة العراقية. ففي الثامن من نيسان (ستة اشهر قبل مهاجمة ايران) جاء في تقرير المخبر هذا: «هنالك احتمال يقدر بخمسين في المئة ان العراق سيهاجم ايران. فقد حرّك اعداداً كبيرة من الافراد والمعدات العسكرية الى الحدود العراقية ـ الايرانية، في ما يتوقع انه غزو. ويستخدم العراق قضية النزاع على جزر طنب الصغرى وطنب الكبرى وابو موسى (في الخليج) كذريعة لاستفزاز ايران، وهو يواصل الاستفزازات هذه. كما ان الهجوم الصاروخي في ٦ نيسان على حقل نفطي جنوب ايران قامت به وحدة عراقية من القوات الخاصة».

من الواضح ان هذا الجاسوس الذي عمل لصالح «وكالة استخبارات الدفاع» التابعة للبنتاغون، قد وُصف في تلك الوثيقة بانه كان يكتب تقاريره «بشكل يُعوّل عليه وطبقاً لمواعيد زمنية مناسبة منذ ١٩٧٨»، غير ان المعلومات التي تسمح بمعرفة هويته قد تم اخفاؤها بعناية. اما اتصالاته فكانت جيدة بما يكفي لان يكون متأكداً من ان العراق مقتنع بان «الجيش الايراني ضعيف الآن ومن الممكن ان يهزم بسهولة» وان يتوقع ايضاً «ان الاستفزازات ستتواصل الى حين احداث رد فعل لدى القيادة الايرانية مما يوفر ذريعة للقوات العراقية لغزو ايران».

كان مخبر «استخبارات الدفاع» مصيباً تماماً في ما يتعلق بالنوايا العراقية، لكن صدام اساء تقدير ما تبقى من قوة لدى ايران بعد الثورة. فأمسى جيشه يخوض في مستنقع حرب الخنادق حين اشتدت المقاومة الايرانية. في هذه المرحلة كان الحلفاء الرئيسيون للعراق هم: العربية السعودية والكويت والامارات المتحدة الذين قدموا له قروضاً جاوزت، في نهاية الامر، الاربعين مليار دولار، برغم ان العراقيين اوضحوا ان لديهم نية ضعيفة لتسديد الديون التي اعتبروها ثمناً لحماية دول النفط العربية من الخميني.

حاول صدام ان يضمن عدم دفع ثمن سياسي في الداخل بسبب الحرب مع ايران. وغدت بغداد ورشة عمل كبيرة، فكانت المدافع وقوالب الزبدة تصل في آن معاً. ولم يكن

العراقيون لوحدهم يتحسسون الفائدة. ففي عام ١٩٨٢ كان قطاع صناعات البناء الالماني الغربي، بشكل خاص، يتلذذ في وليمة العقود العراقية، وفي هذا الجو كانت الحكومات في انحاء العالم مستعدة لتقديم قروض سهلة للعراق.

غير ان الموقف على جبهة القتال كان سيئاً للغاية، ففي نهاية عام ١٩٨١ وفي الاشهر الاولى من ١٩٨٢ بدأت كتل وحدات المشاة الخفيفة الايرانية تخترق الدفاعات العراقية مستعيدة مدينة خرمشهر التي احتلها العراق خلال سنة من الحرب. وفي نهاية عام ١٩٨٢ قدّرت «وكالة استخبارات الدفاع» التابعة للبنتاغون خسائر العراق بـ ٤٥ ألف قتيل ومثلهم من الاسرى. وفجأة واجهت الولايات المتحدة كابوس الخميني سيّداً في بغداد كما في طهران، وهيمنة القوة (الايرانية) في الخليج ان لم تكن في الشرق الاوسط كله. وعلى عجل تدارست ادارة ريغان ما يمكن عمله لدرء ذلك.

كان اول عمل قامت به واشنطن لمساندة صدام في بداية عام ١٩٨٢ هو شطب اسم العراق من قائمة الدول الداعمة للارهاب، مما مكّن الحكومة العراقية من الحصول على قروض ومساعدات اخرى. وتم اخبار الرأي العام ان وزارة الخارجية (الاميركية) قد تبيّنت علامات التحسن في سلوك العراق. غير انه ليس هناك ما يدعم ذلك، فطوال الثمانينات كان العراق ينزع الى استخدام الاغتيال لتصفية الحسابات السياسية. وفي الثالث من حزيران، على سبيل المثال، اطلق الرصاص على شلومو ارغوف، سفير اسرائيل في بريطانيا من قبل مسلح يعمل لصالح ابو نضال، ويعتقد انه اخذ اوامره من بغداد (الحادث الذي اخذته اسرائيل ذريعة لاجتياح لبنان في حزيران ١٩٨٢ ـ المترجم). ولم تُعِدْ وزارة الخارجية الاميركية العراق الى القائمة إلا في ايلول ١٩٩٠، أي بعد غزو الكويت.

وفي لحظة ذعر عام ١٩٨٢، حين تقدمت القوات الايرانية على البصرة، ثاني أكبر مدن العراق، اخذت واشنطن بنظر الاعتبار بيع العراق اسلحة اكثر تطوراً. فقد كانت لرجل اعمال فلسطيني ذي اتصالات جيدة بالعراق، علاقة بصفقة عرض فيها العراق ٢٥٠ مليون دولار لشراء صواريخ «هاربون» البحرية. لكن الخطة عُطلت في اللحظة الاخيرة حين تأكد ان ليس هناك اختراق ايراني للاراضي العراقية، فاشترى العراقيون صواريخ «اكزوسيت» الفرنسية.

لو حدث ان تمت صفقة صواريخ «هاربون» لكان ذلك امراً استثنائياً. فقد كان دور الولايات المتحدة مجرد دور تنسيقي دون ان تكون مجهِّزاً مباشراً. كما كانت مصانع الاسلحة المصرية ناشطة لانتاج عتاد للعراق بمباركة اميركية. فقد اكد مسؤول اميركي قوله: «لقد قمت بزيارة هذه المصانع، ووجدتها تنتج مدافع ١٣٠ ملم، ومدافع اخرى على اساس التصميم السوفييتي، لتباع للعراق. انها طريقة للحصول على موارد بالنسبة

للمصريين وهذا يقلل من تكاليفنا لدعم اقتصادهم».

في عام ١٩٨٦ بدأ مستوى التورط الاميركي والبريطاني يتغيّر. فلأربع سنوات كان صدام في وضع دفاعي مردداً ان اسلحة الجيش العراقي المتفوقة ستستنزف الايرانيين. بعد ذلك، في ١٠ شباط، شن الايرانيون هجوماً مباغتاً وناجحاً على الفاو مهددين البصرة من الجنوب. وكان رد الفعل العراقي هو الانتقال الى استراتيجية اكثر عدوانية وذلك بتوسيع فرق الحرس الجمهوري من ثلاث الى خمس وعشرين خلال عامين. كذلك سرّعوا في تطوير صواريخ ارض - ارض التي بإمكانها ضرب طهران ومدن ايرانية اخرى.

غير ان العراقيين كانوا يحاولون توسيع واعادة تجهيز جيشهم خلال عام واحد شهد هبوطاً مفاجئاً لاسعار النفط. واستنتجت دراسة قام بها «بنك التصدير والاستيراد» الحكومي الاميركي (وهو البنك الذي يقدم القروض): «ان انهيار اسعار البترول وانتصارات ايران العسكرية عام ١٩٨٦ اذهلت العراقيين، لفترة، الى درجة انهم لم يردوا على مراسلات المقرضين». وكانت فرصة نادرة امام العراقيين ان يكتشفوا مصدراً جديداً للقروض هو فرع اتلانتا لـ «بانكا ديل لافورا» (ثالث اكبر البنوك الايطالية).

بلغت قروض هذا البنك للعراق، في نهاية الامر، خمسة مليارات دولار. اذ بدأ مدير فرع البنك، كريستوفر دروغول، اقراض العراق ضمن برنامج وزارة الزراعة الاميركية. لكن ذلك تطور سريعاً الى مخطط يقضي باستخدام مجموعة سجلات تجارية لتمويل مشتريات العراق العسكرية. هكذا كانت اهمية هذا البنك بالنسبة الى العراقيين. وفي عام ١٩٨٩ بعث حسين كامل حسن، وزير الصناعة والتصنيع العسكري، وصهر صدام، بتلكس شخصي الى دروغول جاء فيه: «اعبّر عن تحياتي وامنياتي الشخصية لك ولعائلتك ولكل العاملين في بانكاديل لافورا - اتلانتا بمناسبة احتفالات عيد الفصح».

لا تبدو اسماء العقود والمشاريع التي يموّلها هذا البنك بريئة دائماً، وعادة ما تكون مضلِّلة. فعلى سبيل المثال لا يبدو ما يسمى «سد بادوش» ويدعى ايضاً «مشروع ٣٩٥» مغامرة تستحق صرف ١٠٠ مليون دولار، إلا انه في واقع الامر غطاء لتطوير صواريخ «كوندور ١٠٠» الباليستية التي يصل مداها الى ٦٠٠ ميل (حوالي ٩٥٠ كم). وفي ٤ آب ١٩٨٩ اغار «مكتب التحقيقات الفيدرالي» على البنك، بناء على معلومات سرية زوده بها اثنان من العاملين فيه. وبذلك توقف هذا المشروع نهائياً.

ما مقدار ما تعرفه الحكومتان الاميركية والايطالية حول حقيقة نشاط هذا البنك؟ لقد إتُهم كل من دروغول والعاملين الآخرين بالتلاعب في اموال البنك نفسه. لكن المقاضاة لم تتم عندما كُشف عن ان «وكالة المخابرات المركزية» قد استلمت وثائق من مكتبها في روما تشير الى علمه بما كان يحدث في اتلانتا، لكنه (المكتب) اخفى المعلومات. كما

صرّحت الوكالة بان وزارة العدل طلبت منها حجب المعلومات عن القاضي والمتهمين. وفي وسط اتهامات عن تستر البيت الابيض سُحبت من المحكمة قضية مدير الفرع (دروغول) في بداية اكتوبر.

في هذه الاثناء بدأت في بريطانيا شركة «ماتريكس تشرشل» لصناعة المكائن والآلات تلعب دوراً اساسياً في التعامل مع العراق في ما يتعلق بتسهيل حصوله على اسلحة. وبدأ الامر عام ١٩٨٧ بشراء العراق «مخارط» تبيّن انها تستخدم لصنع قذائف مدفعية. وفي نهاية ذلك العام باعت (ماتريكس) للعراق بموافقة الشركة الام وبمباركة سرية من المخابرات البريطانية، التي ارادت الحصول على معلومات حول العراق عبر باول هندرسون، المدير الاداري للشركة.

لم يكن هناك شك بالدور الذي ستلعبه «ماتريكس تشرشل» عبر مالكيها العراقيين. فعلى سبيل المثال بعثت الشركة الحكومية العراقية والمسؤولة عن «مشروع ٣٩٥» في بغداد بتلكس مقتضب الى الفرع الاميركي لـ «ماتريكس» في اوهايو، تطلب فيه التهيئة لوفد عراقي ينوي مقابلة ١٩ شركة اميركية بشأن «سد بادوش». ويتم ترتيب اقامة الوفد من قبل القسم التجاري في السفارة العراقية كما جاء في التلكس. ولم تكن الحكومة العراقية مهتمة اصلاً بكتمان هذا الامر.

تظهر الوثائق الاميركية التي سُمح بتداولها اخيراً، ان لدى العراقيين اسباباً كافية للتصرف بمثل هذه الثقة. ففي ٦ آب ١٩٨٨ وفي نفس الوقت الذي وصل فيه الوفد العراقي للولايات المتحدة، كان احد موظفي وزارة التجارة الاميركية يعدّ رسالة حول طلب آخر لاجازة تصدير سبق لوزارة الدفاع ان اعترضت عليها ليس على اساس ان الزبون مكلف من قبل هيئة التصنيع العسكري العراقية فحسب بل لانه تابع لمؤسسة عسكرية، فضلاً عن ان «ذلك سيساعد على زيادة قدرات العراق العسكرية» كما تضيف وزارة الدفاع. غير ان وزارة التجارة رفضت ذلك كله قائلة: «ان حقيقة كون التحريات التي اجريت قبل منح الاجازة اظهرت ان المستخدِم النهائي جهة تابعة لهيئة التصنيع العسكري العراقية سبب غير كاف للرفض». أما صدى ذلك فكان يرتجع في الوزارات البريطانية حيث كان يجري امر مشابه تماماً.

بدأت العراقيل التي تعترض عمليات تصدير المعدات العسكرية للعراق تتصدع باستمرار. والاكتشاف العرضي لمثل تلك المواد كان تأكيداً على تسربها برغم تلك العراقيل. ففي شباط ١٩٨٨ اكتشفت الشرطة اثناء تفتيش صناديق متوجهة الى العراق في مطار فيوميتشينو الايطالي انها لا تحتوي على قطع غيار للمطابخ (كما هو مصرّح) بل على قنابل عنقودية.

أما ما هو مدى معرفة الحكومتين الاميركية والبريطانية، بما يحدث، فنحن نعلم انه قبيل غزو صدام للكويت كان الوزراء البريطانيون يرخصون ويشجعون المصدرين لاخذ الجانب المرن، قدر الامكان، من النظم الحكومية المعلنة الخاصة بالسلاح. كذلك نعلم بأنهم كانوا على دراية باستخدام بعض المنتجات البريطانية لاغراض عسكرية. لعلّ الادارة الاميركية ليست على علم مباشر بما فعله فرع البنك الايطالي في اتلانتا، لكن ما حدث ينسجم مع سياستها منذ عام ١٩٨٠ والقاضية بالدعم المنظّم لصدام عبر اطراف ثالثة.

المثير للسخرية في ما يتعلق بانهيار قضايا اتلانتا ولندن هو ان الحكومتين، الاميركية والبريطانية، كانتا ضحية سياستهما بتحويل صدام بعد غزو الكويت، الى بعبع من اجل الحصول على دعم متزايد لحرب الخليج، لكنّ ذلك يجعل من الصعب ايجاد تفسير للحلف السري معه على مدى السنوات العشر الماضية.

عن صحيفة الـ «اندبندنت» البريطانية

١٥ تشرين الثاني ١٩٩٢

لوحة الاحداث السوفييتية بعد عام من الردة

عباس القصاب

في هذه المتابعة يعرض كاتبها رؤيته لممهدات وعواقب انهيار النظام السوفييتي دون ان يتطرق الى العوامل التي تكمن وراء ازمة الحزب والنظام برمته وارتداد العديد من قادته وضعف المقاومة التي ابداها الشيوعيون، وعامة الشغيلة، ضد نهج المرتدين.

كانت احداث ١٩ - ٢١ آب ١٩٩١ معلماً بارزاً في تاريخ البلاد التي كانوا يطلقون عليها تسمية الاتحاد السوفييتي. ولم تكن تلك الاحداث وليدة يومها طبعاً، فقد انتهزت قوى الردة فرصتها الذهبية واجهزت على الحزب والسلطة السوفييتية. وتبعثرت القوى السياسية التقليدية في البلاد وانهارت هياكلها ورموزها دون مقاومة تذكر.

كانت لوحة الاحداث واضحة بما فيه الكفاية. لقد اوصلت قيادة غورباتشوف

للحزب والدولة البلاد الى طريق مسدود، ومكنت في الواقع قوى الردة في داخل البلاد وخارجها، موضوعياً، من تدمير الاتحاد السوفييتي. فقد حولت زمرة غورباتشوف الحزب الى كتلة هلامية وافقدته طابعه وقدراته وسماته السياسية والتنظيمية والايديولوجية، بعد ان تخلى، في المؤتمر الثامن والعشرين (تموز ١٩٩٠) عن طابعه الاحمر والطبقي، والاهم من ذلك حرمه من امكانية التجديد المبدع في حياته الداخلية وأسسه التنظيمية والفكرية والسياسية، وأعاقه عن مواكبة الاحداث العاصفة، وجعله نهباً لشتى التيارات الانتهازية التقليدية منها والحديثة، وغدا جيش الشيوعيين اللجب دونما بوصلة يهتدي بها.

وحينما اوصلت زمرة غورباتشوف التصفوية الحزب الى مؤتمره الثامن والعشرين، كان الحزب مثخناً بطعنات خطيرة وغارقاً في ازمة عميقة.

«ففي النصف الاول من عام ١٩٩١ نشرت الصحف الحزبية والحكومية وتلك التي تقع تحت توجيهات الحزب ١٧ ألف مادة صحفية ضد لينين ألصقت به شتى التهم، بما في ذلك العمالة» (صحيفة غلاسنوست ٢ ـ ٧ ـ ١٩٩٢). وكانت معادل المرتد اليكسندر ياكوفليف عضو المكتب السياسي وسكرتير اللجنة المركزية تنهال على تاريخ الحزب وتراثه. وقد اعادت اللجنة، التي كان يقودها، الاعتبار الى كل خونة الحزب والشعب منذ ثورة اكتوبر حتى الفترة الاخيرة. ففي حديث مع رفيق من اعضاء اللجنة المحلية لواحدة من مناطق موسكو، قال لي: «كان اليكسندر ياكوفليف يقول لاعضاء اللجان المحلية: (ان تاريخ الحزب هو تاريخ جرائم لا تحصى وعليكم ان تتخلصوا من تلك الآثام ومن معزوفة ان الحزب الشيوعي السوفييتي هو الحزب القائد والموجه للمجتمع السوفييتي لان الشعب لم يمنحكم حتى قيادته)».

وقبل انعقاد المؤتمر الاخير كان الحزب ممزقاً وبرزت فيه اكثر من عشرين كتلة، وتخلى معظم اعضاء الحزب عن دفع اشتراكاتهم ورفض زهاء مليون عضو الاشتراك في صحيفة «برافدا»، وفقد ملايين الاعضاء ثقتهم بقيادة الحزب التي ابتعدت عنهم وصمت آذانها عن سماع اقتراحاتهم وملاحظاتهم.

وكان غورباتشوف يتأرجح بين اليمين واليسار، ثم وجد ملاذه في مستنقع الوسط الذي عبر عنه في كلمة القاها في مينسك في بداية ١٩٩٠ بقوله: «لا يمين ولا يسار، أنا من انصار الوسط، وهذا هو الوعاء الذي يضم القوى السليمة في الحزب وسوف لا أحيد عنه».

وكان البرلمان السوفييتي قد تحول آنذاك الى منبر للهجوم على الحزب والاشتراكية والسلطة السوفييتية واهم مؤسساتها: وزارة الدفاع، اجهزة الامن الداخلية والخارجية، وزارة

الداخلية الخ . . . وقد فشل الحزب في رد الهجومات المتتالية عليه داخل البرلمان وخارجه.

وكان الثلاثي : غورباتشوف - ياكوفليف - شيفاردنادزه يواصل وظائفه على النحو التالي : اضعاف الحزب والسلطة وتعزيز الروح الانفصالية والتفكك والانهيار، وصولاً الى الاحتراب القومي ، ومواصلة إلغاء المعسكر الاشتراكي ونحر ألمانيا الديمقراطية.

وفشل غورباتشوف في المحافظة على احكام الدستور كرئيس للدولة. وكان يتراجع أمام ضربات يلتسين في «تدمير المركز» أي انتزاع روسيا من الاتحاد السوفييتي! . والاخطر من ذلك ان تجارب غورباتشوف قد اوصلته الى «قناعة راسخة» على حد قوله بـ الانتقال الى اقتصاد السوق، أي الى الرأسمالية. وكان الرجل ولهاناً الى حد الجنون بتصفيق الغرب ، بينما كانت مظاهرات «الديمقراطية» تحتقره وتزدريه وتطالب باسقاطه . أما جماهير الحزب والشغيلة فكانوا يحتقرونه بطريقتهم الخاصة. وكف عن ان يكون رمزاً للحزب والسلطة في البلاد التي عاشت عقوداً من الزمن على الرموز.

وفي مثل هذه الظروف تظافرت جمهرة من رجال الحزب والسلطة في محاولة لانقاذ الوضع المتدهور، لكنها اخطأت في الاساليب واختيار الظرف ووفرت فرصة ذهبية لثورة الردة. فأجهز يلتسين وزمرته على الحزبين الشيوعي السوفييتي والروسي فأوقف نشاطهما ، وأعقبه غورباتشوف بقراره المشهور في التخلي عن مركز الامين العام وحل اللجنة المركزية. وبدأ الهجوم على مكاسب الشعب وبقايا الركائز الاشتراكية في الهياكل الاقتصادية. وتوالت الطعنات في جسد الحزب المثقل بآثام قيادته وتبعثرت وحدته وسادت روح اللاابالية صفوفه وتحولت الى روح انهزامية وغابت القيادة الواعية عنه . وعطلت صحفه واحتلت مقراته وأممت أمواله وممتلكاته واستحوذ على وثائقه وانهالت الطعنات على كوادره وشنت عليه حملة لا مثيل لها من الافتراءات والتشويهات. واعتكف معظم قادته الذين انتخبهم المؤتمر الثامن والعشرون للحزب، ولم تخرج مظاهرة واحدة في موسكو دفاعاً عن الحزب. . «وانبرى التاريخ في حيرته - أأماماً يتخطى أم وراءً (البيتُ للجواهري) .

وبقي غورباتشوف قابعاً في مكتبه في الكرملن، وزحفت ثورة الردة، وكان ارتعاب غورباتشوف يزداد مع مرور الوقت، فأذعن بعد ايام من احداث آب الى الاعتراف بانفصال جمهوريات استونيا ولاتفيا وليتوانيا، وانهارت احلامه بـ «المعاهدة الاتحادية». أما ازلامه والمقربين منه، أمثال ياكوفليف وشيفاردنادزه وميدفيديف وشاهنزاروف وغيرهم فقد تحولوا، بقدرة قادر، الى مصلحين يطالبون بـ «الوفاق» و«السوق» و«نبذ البلشفية الحديثة»! .

وبدأت موجة «استقلال جمهوريات الاتحاد السوفييتي» ، ومنعت حكومات جمهوريات البلطيق الاحزاب الشيوعية هناك، وتغيرت اسماء هذه الاحزاب في

الجمهوريات الاخرى، واستحوذ «الديمقراطيون» على اجهزة الاعلام وبدأ التحريض على الشيوعيين وطرد عشرات الالوف من وظائفهم، وبدأت تماثيل لينين ودزيرجينسكي وكالينين وفوروشيلوف وغيرهم تتهاوى بشكل لا اخلاقي بأيدي صبيان الردة وقادتها أمثال بوبوف وسوبتشاك وبونير، زوجة ساخروف، وغيرهم.

وبرز في المجتمع عشرات الالوف من المرتدين والانتهازيين والخونة من امثال مالك سيف ورفيق جالاك وعزيز الحاج ومئات من امثال عبدالله النعساني وبهجت العطية ونائل عيسى وسعيد قزاز.

واثر سيطرة يلتسين واحزابه على مقاليد الامور في روسيا، شنت اجهزة الاعلام الرسمية و«الديمقراطية» و«المستقلة» جداً جداً! حملة لا سابق لها ضد الشيوعية داخل البلاد وخارجها، واستخدمت وثائق الحزب التي سطت عليها لهذه الاغراض، محولة التضامن الاممي والدعم المتبادل بين الاحزاب الشيوعية الشقيقة الى «عمالة ودسائس وارهاب وتطاول على الديمقراطية وتآمر وأعمال هدامة» أي نفس الصيغ التي كان اعداء الشيوعية يستخدمونها في «العالم الحر». وهاجمت الصين وفيتنام وكوبا ودول الانحياز وساعدت على تسعير الاحداث الدامية في يوغسلافيا وتمزيقها، وجعلت من ايريك هونيكر وتشريده واهانته مجرماً دولياً مناصراً للارهاب وقاتلاً! دون أي رادع من ضمير وأي اعتبار لحقوق الانسان والاعراف الدولية.

وتحول الاتحاد السوفييتي الى قلعة لمعادة الشيوعية بعد انهياره وسيطرة «الديمقراطيين» على مقاليد الحكم في روسيا، وغدت الصحف واذاعات واقنية تلفزيونات الغرب امثال «اذاعة الحرية» و«صوت اميركا» و«الموجة الالمانية» و«صوت اسرائيل» وغيرها تتحكم بالاعلام وتغدق الاموال ببذخ على عملائها من المرتزقين في الداخل. فقد كشف المحامي الشيوعي ايفانوف في مناظرة تلفزيونية قبل مدة عن سر حيث قال: «ان اذاعة الحرية التي ينفق عليها الكونجرس الاميركي تصرف سنوياً ٣٤٠ مليون دولار على اعمالها واستمالة العملاء لها في روسيا».

زد على ذلك ان العمالة للاميركان غدت شرفاً عظيماً لخونة الشعب والوطن، فقد نشرت بعض الصحف «الديمقراطية» رسائل يقول كاتبوها: «دلونا على كيفية الاتصال بالاستخبارات الاميركية لتقديم اشياء مفيدة لهم».

واقدم فاديم باكاتين مدير الاستخبارات الروسية قبل استقالته على تقديم جميع وثائق وأسرار الامن السوفييتي في نصب اجهزة الاتصال في بناية السفارة الاميركية الجديدة في موسكو الى ستراوس السفير الاميركي الصهيوني الجديد في روسيا. وقال السفير: «هذه اثمن هدية قدمت لي في حياتي».

وقال النائبان في برلمان روسيا ليف بونماريوف وغليب ياكونين وهما عضوان في اللجنة البرلمانية لفحص وثائق تمرد آب ١٩٩١ : «اننا نعتز بتقديم وثائق اللجنة الى الاستخبارات الاميركية»! . وقد قدما جميع الوثائق الى الاستخبارات الاميركية فعلاً، وحدثت ضجة وفضيحة في البرلمان وطالب النواب الشيوعيون والمعارضون تقديمهما الى المحاكمة وشكلت لجنة تحقيق لهذا الغرض .

ونشرت صحيفة «دين» مقالة هامة قبل اسبوعين اتهمت فيها يفغيني بريماكوف مدير الامن في روسيا بانه مذ كان مبعوثاً خاصاً لغورباتشوف الى اميركا، سلم وثائق كثيرة عن الاسلحة الاستراتيجية السوفييتية والتقى قادة المنظمات الصهيونية في اميركا . ولم يرد بريماكوف على المقال حتى الآن .

وحصل الاميركان على الغالبية الساحقة من وثائق الحزب، ويباع بعضها بطرق ملتوية، وان السلطات الروسية اختارت الوثائق التي تتهم الحزب الشيوعي السوفييتي، كما تعتقد، بغية التشهير به .

وارتفع نهج العداء للشيوعية الى المستوى الرسمي والنشاط العملي لحكام روسيا، اذ ان كلمات رأس النظام يلتسين في اثناء زياراته لعواصم الغرب وجولاته في الداخل مشبعة بالحقد على الاشتراكية ومكتسبات الشعب السوفييتي الاساسية . فالشيوعية التي قضى هذا الرجل زهاء اربعة عقود من حياته في ظلها غدت، بعد ارتداده «تتعارض والنزعة الانسانية» و«لطخة عار في جبين الانسانية» . ويحرض من منابره على الشيوعيين انبيلوف والجنرال المتقاعد في جهاز الامن ستيرليكوف ويهددهما بانهما سيقدمان الى المحكمة .

اجل، لقد استولى المرتدون واعداء الاشتراكية على السلطة، وسددوا ضربات مدمرة الى الحزب الشيوعي، غير ان الشيوعيين بدأوا ينهضون من كبوتهم . ففي نهاية العام الماضي، أي في تشرين الثاني وكانون الاول تشكلت مجموعات شيوعية، وفرض بعضها شرعيته على السلطة . ففي الثاني والعشرين من كانون الاول ١٩٩١ تشكل «حزب الشغيلة الاشتراكية» في موسكو، وفي ٢٣ ـ ٢٤ من تشرين الثاني تشكل «حزب العمال الشيوعي الروسي» وفي ٩ تشرين الثاني تشكل «الحزب الشيوعي لعموم الاتحاد السوفييتي (البلاشفة)» وفي تلك الفترة تشكل حزب «اتحاد الشيوعيين» وحزب «شيوعيي روسيا» وبعد ذلك تشكل حزب «العمال والفلاحين الاشتراكي»، وفي الرابع من تموز ١٩٩٢ عقد «المؤتمر التاسع والعشرون للحزب الشيوعي السوفييتي» في بلدة بوشكينو في ضواحي موسكو وحضره وفود من معظم جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابقة . ولازالت عملية استعادة الانفاس مستمرة وربما ستظهر تشكيلات اخرى . وليس ثمة فوارق جوهرية في

نشاط هذه الاحزاب، باستثناء البلاشفة الذين يصرون على النزعة الستالينية. وان كلاً من هذه الاحزاب قد طرد غورباتشوف من صفوفه لانه تخلى بجبن عن قيادة الحزب وفرط بمصلحة الدولة الاشتراكية العظمى. وثمة احساس لدى الجميع بضرورة الوحدة. بيد ان القاسم المشترك بين هذه الاحزاب هو تخلفها عن المطالب الاقتصادية للجماهير، وضبابية البديل في ظروف تمزق الاتحاد السوفييتي ونشوء جمهوريات مستقلة. ويستعيد الشيوعيون انفاسهم في جمهوريات آسيا الوسطى الاربع: اوزبكستان طاجيكستان قرغيزيا تركمانيا، وفي كازاخستان أيضاً، واوكرانيا، والوضع غامض في مولدوفا بسبب الاحتراب، وقد منع الحزب من التسجيل الرسمي في بيلوروسيا، أما الاحزاب الشيوعية في جمهوريات البلطيق، استونيا ولاتفيا وليتوانيا، فهي ممنوعة رسمياً ويزج انصارها في السجن وان القائد الشيوعي روبيكس لايزال في السجن حتى الآن.

ولم يتبلور بعد اصطفاف حقيقي للقوى السياسية في البلاد وخاصة في روسيا. ففي هذه الجمهورية ٢٤ حزباً سياسياً الآن ومئات من الجمعيات والمنظمات الاخرى. وقد انشق «الديمقراطيون» ايضاً وتوزعوا بين مؤيد ليلتسين ومعارض «بناء» له. وانتعشت في الفترة الاخيرة المنظمات اليمينية المتطرفة من صهيونية وشوفينية وقومية وحتى عنصرية.

وتسود في البلاد موجة عاتية من الغلاء والبطالة والاجرام واعمال النهب والاعتداء والفوضى، وتتحكم العفوية بدلاً من القوانين، وقد سلبت المكاسب الاساسية للكادحين في السكن والعناية الصحية والراحة والدراسة والتعليم والعمل، ويتأقلم الناس على اوضاع شاذة لم يألفوها، فالبلاد تعيش عصر الرأسمالية البدائية المتوحشة والقاسية والاجرامية، يرافقها انفلات فوضوي لا مثيل له.

بيد ان اللطم على الخدود وذرف الدموع والحنين الى الماضي لا يجدي نفعاً. ولا يمكن اعادة الماضي، بل وليس صحيحاً اعادته كما كان، لانه لم يكن منزهاً ونقياً وصافياً، بيد ان الحفاظ على مصالح الجماهير والدفاع عن استقلال البلاد السياسي والاقتصادي هي مهمة المهمات لدى كل القوى التقدمية والثورية في المجتمع. ان جمهورية روسيا قد فقدت استقلالها السياسي والاقتصادي فعلاً. فهي الآن بلد تابع، ناهيك عن دول الرابطة الاخرى التي تتحكم الاحتكارات الدولية بمصائرها، وبهذا الصدد فقد نشرت الصحف مؤخراً وثيقة هامة، هي قرار صادر عن الكونغرس الاميركي وقد جاء في هذا القرار: «ان على الهيئات الحكومية لجمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق ان تنشر المعلومات التي لديها عن النشاطات السرية السابقة للحزب الشيوعي السوفييتي للرأي العام ولكي تستفيد منها الحكومة الاميركية، أي جميع الوثائق منذ العام ١٩١٧ حتى انهيار الاتحاد السوفييتي. والمقصود هي الوثائق حول:

١ ـ النشاط ضد الولايات المتحدة الاميركية والاعمال السياسية الهدامة ضد اميركا وحلفائها، مع الاسماء الكاملة لرجال لجنة امن الدولة السوفييتية الذين توغلوا في المؤسسات الحكومية الاميركية منذ العام ١٩١٧ جتى الفترة الاخيرة.

٢ ـ حجم المساعدات المالية الكامل التي قدمها الحزب الشيوعي السوفييتي الى الحزب الشيوعي الاميركي.

٣ ـ معلومات كاملة عن نشاط الحزب الشيوعي السوفييتي حالياً.

٤ ـ الاساليب السياسية وغير ذلك من الخطط التي تمكن الحزب الشيوعي السوفييتي بموجبها من الاستيلاء على السلطة خلال حقبة العهد السوفييتي.

٥ ـ دور الحزب الشيوعي السوفييتي واعوانه في اختفاء اثر وموت الدبلوماسي السويدي راول فالينبيرغ.

٦ ـ دعم الحزب للمنظمات الارهابية، مثل منظمة التحرير الفلسطينية والجيش الايرلندي السري ومجموعة بادير ماينهوف وجميع العلاقات مع هذه المنظمات.

٧ ـ كل ما كان معروفاً في الاتحاد السوفييتي السابق عن اسرى الحرب الاميركان في الحرب العالمية الثانية والحرب الفيتنامية.

وان الكونغرس سيمتنع عن تقديم المساعدات المالية لهذه الجمهوريات اذا لم تقدم هذه المعلومات. . .». (عن صحيفة ازفيستيا ١٩٩٢/٧/٢١).

تلكم هي محصلة سنة على الانهيار، دون تعليقات أو رتوش!

موسكو ٣٠/ ٧/ ٩٢.



مذكرة حول جرائم الطغمة الحاكمة

اعد لفيف من المحامين والقانونيين العراقيين المذكرة الضافية التالية التي وجهوها الى د. بطرس غالي، الامين العام للامم المتحدة وارسلوا نسخاً منها الى لجنة حقوق الانسان بمكتب الامم المتحدة في جنيف، ومنظمة العفو الدولية (لندن) ومنظمة مراقبة الشرق الاوسط (نيويورك) والمنظمة العربية لحقوق الانسان. وقد وقع المذكرة السادة:

ابراهيم اسماعيل حجي اسماعيل (حقوقي)، احمد الموسوي (دكتور في القانون)، تحسين اسماعيل عبان (محامي)، جلال الزبيدي (دكتور في القانون)، حاتم السعدي (محامي)، حامد ايوب (دكتور في القانون)، سالم محمد علي الدوسكي (محامي)، شمس الدين المفتي (محامي) عبد الرزاق الصافي (محامي)، عبد اللطيف المنشد (حقوقي)، غانم السماك (محامي واستاذ محاضر في كلية الحقوق في جامعة حلب)، غازي زيباري (حقوقي)، محمد الحبوبي (حقوقي)، مكي طيب العمادي (محامي)، مهدي العبيدي (حقوقي)، محمد سليم محمد حسن (حقوقي)، ناجي محمد علي محمد (حقوقي).

منذ تولي الحكام الحاليين زمام السلطة في العراق بعد انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨، تعرض شعبنا العراقي الى محن وآلام لم يشهد لها مثيلاً في تاريخه المعاصر.

لقد دشن الانقلابيون حكمهم بتسلط الارهاب ضد جميع القوى والاحزاب السياسية دون استثناء في محاولة لاسكات كل صوت معارض، وتثبيت حكمهم والانفراد بالسلطة.

لقد قام النظام منذ البداية وحتى الوقت الحاضر بممارسات منافية لحقوق الانسان وحرياته الاساسية واقدم على ارتكاب ابشع الجرائم ضد الشعب واصبح العراق بلد الحضارات، البلد الذي سن اول شريعة في العالم وهي شريعة حمورابي، على رأس قائمة الدول التي تنتهك حقوق الانسان.

وبعد صعود صدام حسين الى قمة السلطة في عام ١٩٧٩ ازداد الوضع سوءاً وتصاعدت وتيرة اعمال البطش والتصفيات الجسدية والاعدام وحملات الابادة. واصبحت ارادة هذا الدكتاتور لها القول الفصل في تقرير شؤون البلاد في كل الميادين.

ان ممارسات النظام اللاانسانية واللاقانونية لم تقتصر على العراق بل امتدت الى خارجه. فقد شن النظام الحرب ضد الجمهورية الاسلامية الايرانية التي دامت ثماني سنوات ثم اعقبها غزو الكويت واحتلال اقليم هذه الدولة وضمه للعراق بطريقة اثارت دهشة واستنكار الرأي العام العالمي.

ان الانتهاكات التي صدرت عن الحكومة العراقية للقوانين الداخلية والقانون الدولي يمكن حصرها بما يلي:

اولاً: شن الحرب ضد الجمهورية الاسلامية الايرانية.

ثانياً: غزو الكويت.

ثالثاً: انتهاك حقوق الانسان في العراق.

اولاً: شن الحرب ضد الجمهورية الاسلامية الايرانية

بعد تولي صدام حسين رئاسة الجمهورية بفترة وجيزة قامت القوات المسلحة العراقية في ١٩٨٠/٩/٢٢ تنفيذاً لاوامره باجتياز الحدود مع ايران وتوغلت في الاراضي الايرانية واحتلت جزءاً منها. حدث ذلك مباشرة بعد اعلان السلطات العراقية عن الغاء معاهدة ١٩٧٥ المعقودة بين العراق وايران بشأن الحدود من طرف واحد، وفي حينها اعلن صدام حسين رفضه قبول اية وساطة لحل النزاع واعتمد الحرب وسيلة لحسم النزاع مع ايران.

ان شن الحرب ضد ايران، تحت اية ذريعة كانت، تشكل انتهاكاً صارخاً لميثاق الامم المتحدة وهو لا يحرم استخدام القوة فحسب، بل والتهديد باستعمالها ضد سلامة الاراضي والاستقلال السياسي لاية دولة اخرى. وألزم الميثاق الدول كافة بحل منازعاتها بالطرق السلمية على وجه لا يجعل السلم والامن الدوليين عرضة للخطر.

وألزمت المعاهدة المعقودة بين البلدين في عام ١٩٣٧ الاستعانة بالوسائل السلمية لحل كل خلاف بينهما. ونصت معاهدة ١٩٧٥ الموقعة من قبل صدام حسين نفسه وشاه ايران بتسوية الخلافات الناشئة بين الطرفين عن طريق المفاوضات الثنائية المباشرة. وفي حالة عدم الاتفاق يلجأ الطرفان الى طلب المساعي الحميدة لدولة ثالثة، وفي حالة رفض احد الطرفين اللجوء الى

المساعي الحميدة أو فشل اجراءاتها فان حل الخلاف سيتم عن طريق التحكيم.

لقد استمرت الحرب بين البلدين ثماني سنوات كلّفت الشعبين اكثر من مليون من القتلى والجرحى والمعوقين وألحقت باقتصاد البلدين الدمار والخراب وعرّضت السلم والامن في المنطقة والعالم الى الخطر.

مما تقدم ان شن الحرب ضد ايران يرتب المسؤولية الدولية على صدام حسين والمسؤولين العراقيين الآخرين لقيامهم بأفعال منافية للقانون الدولي.

١ ـ ان استخدام القوة المسلحة ضد دولة ذات سيادة والتوغل في اراضيها هو انتهاك لميثاق الامم المتحدة والاتفاقات المعقودة بين العراق وايران نخص بالذكر اتفاقيتي عام ١٩٣٧ و١٩٧٥.

٢ ـ خلال الحرب، قامت القوات العراقية المسلحة باستخدام الغازات السامة (غاز الخردل وغاز الاعصاب) ضد القوات المسلحة الايرانية ابتداءً من عام ١٩٨٣، لقد تأكد هذا الاستخدام بالكشف الطبي على المصابين في مستشفيات اوربا، وقد اعترف مسؤولون عراقيون بمن فيهم وزير خارجية العراق آنذاك طارق عزيز باستخدام الغازات السامة. وورد ت الاشارة الى هذا الاستخدام في تقارير بعض المنظمات الانسانية ووسائل الاعلام.

ان استعمال الغازات السامة خلال الحرب هو محرم في القانون الدولي استناداً الى (بروتوكول جنيف) لسنة ١٩٢٥ والعراق من الدول الموقعة على هذا البروتوكول.

٣ ـ لقد نجم عن الحرب التي بدأها صدام ضد ايران انتهاك لاتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩، فقد تعرضت مدن آهلة بالسكان لقصف مدفعي وصاروخي ادى الى مقتل الكثير من المدنيين ودمار الممتلكات، كما جرى التعامل مع الاسرى على نحو لاانساني وعدم مراعاة نصوص اتفاقية جنيف الخاصة بمعاملة الاسرى.

لقد عقد صدام حسين بنفسه معاهدة ١٩٧٥ ثم اعلن عن إلغائها من طرف واحد قبل دخول القوات العراقية الاراضي الايرانية وعاد وتنازل عن كل ادعاءاته السابقة واعتبر المعاهدة سارية المفعول بين الطرفين من جديد.

لقد رجع صدام حسين الى الموقف الذي كان عليه قبل شن الحرب ضد ايران فالحرب التي دامت ثماني سنوات والكوارث والفواجع التي نجمت عنها لكلا الشعبين العراقي والايراني لا تعني شيئاً بالنسبة لحاكم دكتاتور لا يهمه لا مصير شعبه والشعوب المجاورة ولا مصالح السلم والامن في المنطقة والعالم.

ثانياً: غزو الكويت

اصبحت حرب الخليج التي بدأها صدام حسين بعدوانه المسلح على الكويت واحتلاله اقليم هذه الدولة اخطر حرب ذات طابع دولي منذ الحرب العالمية الثانية.

إن هذا العدوان جلب للعراق ايضاً كوارث وفواجع لا تحصى. فاستناداً الى التقارير الرسمية،

شنت القوات العسكرية الامريكية والقوات الحليفة (١١٠) آلاف غارة جوية القيت خلالها (٨٨٥٠٠) طن من القنابل على العراق وهي تعادل المرة ونصف المرة من القنابل التي ألقيت على فيتنام خلال الحرب التي دامت ثماني سنوات وتؤكد القوات الحليفة بان القصف قد استهدف اهدافاً عسكرية، لكن ادارة الدفاع الامريكية تقول بان ٧٠٪ من القنابل التي اسقطتها هذه القوات لم تحقق اغراضها، ولم يعرف حجم الضحايا حتى الآن. لكن من المتوقع ان يصل عدد الاصابات في صفوف المدنيين الى عشرات الآلاف، ويشكل ذلك انتهاكاً للمواثيق الدولية خاصة اتفاقية جنيف الرابعة التي تتضمن حماية المدنيين وتثبيت قواعد الحرب التي تحرّم قتل واصابة المدنيين خلال الحرب.

ان العمليات العسكرية التي قامت بها الولايات المتحدة ودول التحالف باسم الشرعية الدولية وتطبيقاً لقرارات مجلس الامن لم تسبب في موت ضحايا ابرياء من المدنيين والعسكريين فقط بل ادت الى تدمير شامل الى البنى الاقتصادية والمرافق الحيوية بما لا تعد ولا تحصى، لازال شعبنا يعاني بسببها الكثير في حين ترك الجاني وشركاه المرتكبون الحقيقيون للجرائم بمنأى عن العقاب.

أما عدوان العراق على الكويت وغزوها في الثاني من آب فهو جريمة حرب خطيرة وشكل اخطر ضروب الانتهاك للقانون الدولي منذ الحرب العالمية الثانية.

لقد ارتكبت حكومة صدام حسين بعدوانها على الكويت جرائم دولية (جرائم حرب) يجب استعراضها وحصرها:

١ ـ استخدام القوة المسلحة ضد الشعب الكويتي المسالم.

لقد تعرض الشعب الكويتي خلال فترة الاحتلال الى اعمال منافية لقوانين وعادات الحرب مثل اعمال الاغتصاب والتعذيب وتنفيذ احكام الاعدام العشوائية، وقد تأكدت هذه الافعال بشهادات مواطنين كويتيين نشرت في الصحافة العالمية وعلى اشرطة الفيديو، وتضمنتها تقارير منظمة العفو الدولية خاصة التقرير الصادر في ١٩٩١/١/٢٩ بعنوان (العراق يحتل الكويت) الذي تضمن وقائع تفضح حالات انتهاك حقوق الانسان في الكويت من قبيل القتل والتعذيب، فقد تحدث التقرير استناداً الى الجثث التي شوهدت عن استخدام طرق تعذيب متنوعة كقطع اللسان والآذان وقلع الاعين وكسر المفاصل واحراق الجلد وتوجيه صعقات كهربائية واطفاء السجائر في الاجساد وبعد التعذيب ينهون حياة الضحية بتوجيه طلقة في مؤخرة الرأس أو في الفم أو الآذان.

٢ ـ تدمير ونهب الهياكل والمؤسسات المدنية

استناداً الى تقارير مقدمة الى الامم المتحدة، خسرت الكويت ما قيمته بين ٢٠ ـ ٢٥ مليار دولار بسبب نهب وتدمير الاقتصاد الكويتي، فقد سرقت ودمرت السلع الصناعية والاستهلاكية، ودمر النظام المصرفي، ونهبت كميات كبيرة من الاحتياطي الذهبي الكويتي.

٣ ـ الابعاد القسري لاعداد كبيرة من المواطنين

عندما انسحبت القوات العراقية من الكويت في نهاية شباط اخذت معها الآلاف من المواطنين الكويتيين (عددهم ٣٣ ألف حسب المصادر الكويتية)، ورغم ان البعض قد اطلق

سراحه، إلا ان هناك (٣٠٠٠) لازالوا رهن الاسر باعتراف السلطات العراقية.

ان تعريض المواطنين الكويتيين الى القتل والتعذيب والخطف والاسر وتدمير ونهب المؤسسات المدنية هو انتهاك للمواثيق والاعراف الدولية اذ تؤكد اتفاقات جنيف لسنة ١٩٤٩ على التعامل الانساني مع المرضى والجرحى والاسرى العسكريين وحماية المدنيين خلال الحرب.

٤ ـ لقد اتبع النظام في العراق اسلوب استخدام مواطني الدول الاخرى كرهائن، وتعامل مع اسرى الحرب بشكل لاانساني، وهذه اعمال منافية للقانون الدولي فهي جرائم حرب، اذ تحرم المادة (٣٤) من اتفاقية جنيف الرابعة اخذ الرهائن وتلزم بحماية المدنيين زمن الحرب. وتضع المادة (٣٥) اسس التعامل مع الاجانب في مناطق النزاع.

لقد منع النظام في العراق المواطنين الاجانب من جنسيات مختلفة من مغادرة العراق بحجة الرد على انذار الدول الحليفة، ولم يسمح بعد ذلك إلا للاطفال والنساء من المغادرة نتيجة لضغط ومطالبة الرأى العام في العالم.

ان النظام لم يكتف بمنع الاجانب من مغادرة البلاد بل وضع العديد منهم في نقاط استراتيجية في العراق والكويت كـ «دروع بشرية». وبعد ذلك اطلق سراحهم تحت ضغط الرأي العام العالمي.

ان هذه الاعمال تنافي اتفاقية جنيف الثالثة. فالمادة (١٣) منها تلزم حماية اسرى الحرب في أي وقت. والمادة (١٤) منها تنص على ان يحظى اسرى الحرب في كل الميادين باحترام شخصياتهم وشرفهم العسكري.

٥ ـ الهجمات الصاروخية العشوائية على مدن آهلة بالسكان فالقانون الدولي يحرم العمليات الحربية ضد المدنيين تحت أية ذريعة كانت.

٦ ـ انتهاك الحصانة الدبلوماسية للبعثات الاجنبية

يشترط القانون الدولي الحماية الكاملة للدبلوماسيين والسفارات والقنصليات (اتفاقية فيينا ١٩٦٣ بشأن العلاقات القنصلية) وفيها جميعاً ضمانات الحصانة الدبلوماسية وحماية السفارات الاجنبية، وتحريم انتهاك مبانيها وحصانة وثائقها وضمان حرية الحركة والتنقل لاعضائها وضمان سلامتهم وعدم الاساءة لهم. . . الخ.

لقد خرق النظام العراقي خلال غزوه للكويت حصانة السفارات الاجنبية فقد حاصرها واقتحم البعض منها بالقوة وأمر البعثات بمغادرتها وقطع عنها خدمات الماء والكهرباء واخذ بعض الدبلوماسيين الى بغداد ومنعت البعثات الاجنبية من ايواء أي من رعاياها في سفارتهم طلباً للحماية.

٧ ـ التدمير المتعمد للبيئة الطبيعية

قامت قوات الاحتلال العراقية خلال الحرب ولاغراض عسكرية، بسكب النفط الخام في الخليج واشعلت آبار النفط الكويتية وقد سبب هذا العمل خراباً جدياً وخطيراً للبيئة في الخليج، ورغم ان العراق غير موقع على اتفاقية (١٩٧٢) حول تحريم تلويث البحار بالفضلات ومختلف

المواد الضارة، فان تدمير البيئة الطبيعية والذي لا يضاهيه حدث مماثل في الخطورة والسعة يعتبر جريمة حقيقية كبرى.

لقد تجاوزت كمية النفط الخام المنسكب في الخليج من ٧ ـ ٨ مليون طن وهي اكبر كمية من النفط المنسكب في البحار والمحيطات، وتسببت هذه الكمية في كارثة حقيقية للحياة في البحار، تركت آثاراً ضارة على محطات التصفية المائية التي تزود سكان السواحل بالمياه العذبة.

لقد بلغ عدد آبار النفط المدمرة اكثر من (٦٠٠) بئراً أي ما يوازي ٨٠٪ من اجمالي آبار النفط في الكويت ـ حسب تصريح وزير النفط الكويتي، وتبلغ كميات النفط التي تحترق يومياً ستة ملايين برميل.

ثالثاً: انتهاكات حقوق الانسان في العراق

ان النظام الدكتاتوري القائم لم يقيد حريات المواطنين ويصادر حرياتهم فحسب، بل قام بممارسات لاانسانية ولا قانونية تمثلت بأعمال البطش والتعذيب والاعدام والاعتقال وحملات الابادة والتمييز بين المواطنين بسبب اديانهم وطوائفهم وقومياتهم.

وتتجلى مظاهر الدكتاتورية في غياب المؤسسات الدستورية والحريات الديمقراطية والمؤسسات المعبرة عن الرأي العام،وفي افتقاد بلادنا لدستور دائم منذ فترة طويلة، وحتى الدستور المؤقت المعمول به والصادر في عام ١٩٧٠ هو معطل من الناحية العملية، وتخضع البلاد الى مجلس قيادة الثورة وهو هيئة غير دستورية ولا منتخبة يضم في عضويته كبار القياديين في الحزب الحاكم وتعتبر قراراته بمثابة قوانين نافذة على الرغم من تناقضها مع كل المعايير والقواعد القانونية، وتنص في بعض الاحيان على احكام تصل حد الاعدام على افعال ـ اذا وصفناها تجاوزاً بالجريمة ـ لا يمكن اعتبارها وفق كل المعايير القانونية السليمة سوى جنح، وقسم من هذه القرارات يصادر حق الانسان في الرأي والاعتقاد ويحرمه من جميع اشكال التعبير عنهما، مع ان هذا الحق مكفول في الدستور العراقي المؤقت الذي سنته السلطة الحالية في عام ١٩٧٠.

ونعرض فيما يلي صوراً من انتهاكات السلطات العراقية لحقوق الانسان:

١ ـ الابادة الجماعية

لم يتورع النظام في العراق عن ارتكاب المجازر الجماعية التي راح ضحيتها عشرات الالوف من المواطنين العراقيين في اوقات مختلفة. فقد استخدم السلاح الكيمياوي على وادي باليسان وخاصة قرية شيخ وسّان وضد سكان مدينة حلبجه في ١٧ آذار ١٩٨٨ وبلغ عدد القتلى خمسة آلاف مواطن كردي عراقي وبرغم الادانة العالمية الواسعة للجريمة قام النظام مجدداً وبكثافة باستخدام الاسلحة الكيمياوية في آب ١٩٨٨ بعد وقف القتال بين العراق وايران ضد المدنيين الاكراد بذريعة القضاء على قوى المعارضة المسلحة في المنطقة. لقد ادت هذه الحملة العسكرية الى اصابة الآلاف من المواطنين بين قتلى ومصابين والى هروب عشرات الآلاف الى كل من تركيا وايران،

وظهر بعد ذلك ان عدد الذين لاقوا حتفهم هو (١٨٠) ألف مواطن من الاكراد العراقيين. وإثناء المفاوضات التي جرت اخيراً بين السلطات العراقية ووفد الجبهة الكردستانية ـ اثير موضوع الضحايا وعندما وجه الوفد الكردي اصبع الاتهام الى علي حسين المجيد (أمين سر مكتب تنظيم الشمال للحزب الحاكم) في ذلك الوقت ووزير الدفاع الحالي ـ بارتكاب هذه المجازر، اجاب هذا الاخير بان (رقم ١٨٠ ألف غير دقيق، العدد الدقيق للمفقودين هو ١٠٠ ألف). ويبدو ان السلاح الكيمياوي اصبح وسيلة معتادة للنظام في ضرب كل منطقة يلجأ اليها معارضوه، ففي عام ١٩٨٩ استخدم هذا السلاح ضد سكان الاهوار في جنوب العراق ولاقى الآلاف حتفهم ولم تتوفر لحد الآن احصائيات بعدد القتلى والجرحى.

وعندما عبّر الشعب العراقي عن غضبه من مغامرة صدام حسين بغزو الكويت وضمه للعراق في انتفاضته في آذار ١٩٩١، واجه النظام الشعب بأساليب رهيبة ومنها استعمال الاسلحة المحرمة دولياً مثل قنابل النابالم والفسفورية وضرب المدن والاحياء بالمدفعية الثقيلة والدبابات والقصف الجوي والصاروخي وخرب الاماكن والاضرحة المقدسة والمستشفيات وغيرها دون تمييز وفرض الحصار على سكان المناطق المنتفضة وتجويعهم والاعتقال العشوائي لآلاف الاطفال والنساء والرجال واستخدامهم كدروع بشرية وغيرها من اعمال الابادة التي راح ضحيتها عشرات الآلاف من المواطنين.

لقد نجم عن قصف المدن الآهلة بالسكان بمختلف اسلحة الابادة خاصة في كردستان اضخم عملية نزوح شهدها العصر الحديث، فقد اجبر اكثر من مليوني مواطن عراقي على الهروب من ديارهم عبر الحدود الى تركيا وايران وأدى ذلك الى هلاك الآلاف منهم بسبب الجوع والبرد والامراض.

وفي جنوب ووسط العراق، مارست قطعات الحرس الجمهوري اعدام المواطنين بالجملة، وقامت بعمليات قتل عشوائي للسكان الذين كانوا يحاولون الهرب من مناطق سكناهم بسبب كثافة النار الموجهة الى تلك المناطق، وفي بعض الحالات كانت تترك الجثث في العراء عرضة لنهش الحيوانات السائبة، وفي حالات اخرى كانت تحرق أو ترمى في الانهار، وفي احدى المرات قيدت ارجل وأيدي (١٥٠) مواطناً قيل انهم من الثوار وألقوا في نهر دجلة بمدينة العمارة ليموتوا غرقاً.

ان الجرائم التي ارتكبها افراد الحرس الجمهوري في الجنوب والوسط وفي كردستان لا تعد ولا تحصى ولا نستطيع الدخول في تفاصيلها ولكننا نملك الادلة والوثائق التي تؤكد ادعاءنا، لقد تأكدت هذه الجرائم في العديد من تقارير المنظمات الدولية والانسانية وسجلها المراسلون ووكالات الانباء ونقلتها وسائل الاعلام في العالم.

ولقد إدان مجلس الامن انتهاكات السلطة العراقية، واصدر القرارات التي تتضمن اجراءات ردعها.

٢ ـ عقوبة الاعدام

تعددت وتنوعت الافعال التي تجيز الاعدام في العراق، فقد سجلت (المنظمة العربية

لحقوق الانسان (١٧) قراراً صادراً عن مجلس قيادة الثورة منذ عام ١٩٧٦ وحتى عام ١٩٨٧ **تجيز** عقوبة الاعدام في (٢٩) نوعاً من الافعال المرتكبة في حين تنص المواثيق الدولية لحقوق الانسان على عدم جواز فرض هذه العقوبة إلا بالنسبة لـ «اكثر الجرائم خطورة فقط». ومن الحالات الشاذة ان القانون العراقي ينص على تطبيق الاعدام على (المنتسبين الى حزب الدعوة الاسلامية أو العاملين لتحقيق اهدافه تحت واجهات وتسميات اخرى)، وينفذ هذا القرار على الجرائم المرتكبة قبل صدوره والتي لم يصدر قرار باحالتها الى المحكمة المختصة وهذا ما يخالف صراحة المادة (١٥) من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية لسنة ١٩٦٦ وقانون العقوبات العراقي.
وثمة حالة شاذة اخرى منافية للقوانين العراقية والقانون الدولي هي اعدام من هم دون الثامنة عشر من عمرهم، فقد تكررت هذه الحالة في اوقات مختلفة وسجلتها التقارير الصادرة عن منظمة العفو الدولية في سنة ١٩٨٧، والمحاكم في العراق، وبخاصة المحاكم التي تنظر في ما يسمى بالجرائم السياسية هي في العادة محاكم استثنائية تتألف هيئاتها القضائية من عسكريين معظمهم بعيد عن النزاهة أو الالتزام بالمعايير القانونية في اصدار الاحكام، والمتهم لا يتمتع بحق الدفاع عن النفس، هذا اضافة الى ان احكام هذه المحاكم غير قابلة للنقض إلا من قبل الرئيس العراقي نفسه، ووصل الامر برئيس مجلس قيادة الثورة (صدام حسين) ان اصدر قراراً برقم (٧٠٠) بتاريخ ١٩٨٨/٨/٢٧ يمنح حق اصدار حكم الموت وتنفيذه في الحال للمنظمة الحزبية للحزب الحاكم وهي هيئة ليست قضائية، وذلك عن «جريمة» الهروب من الجيش أو التخلف عن اداء الخدمة العسكرية.

وشيوع حالات الاعدام ـ بدون محاكمة ـ ظاهرة مألوفة في العراق، شملت الالوف من المواطنين من بينهم شخصيات سياسية وعسكرية وعوائل بكاملها مثل عائلة البارزانيين وعائلة الحكيم وقد سجل تقرير لمنظمة العفو الدولية صادر في عام ١٩٨٨ نماذج من حالات الاعدام بدون محاكمة. وسجلت وثائق رسمية نماذج اخرى، فقد اصدر مكتب تنظيم الشمال لحزب البعث الحاكم كتاباً برقم (٦٨٠٦) في ١٩٨٧/١٢/١٢ امراً موقعاً من قبل علي حسن المجيد ـ عضو القيادة القطرية وامين سر قيادة مكتب الشمال ـ بقطع رقاب ثلاث عوائل من ذوي «المجرمين» المنتسبين لقوى المعارضة. وقد نفذ هذا القرار على الفور. كما نفذ حكم الاعدام بدون محاكمة بأحد المعارضين الذي سلم نفسه استجابة لقرار العفو الصادر في ايلول ١٩٨٨ بأمر من نائب رئيس مجلس قيادة الثورة عزت الدوري. وتبرر الاجهزة الامنية اصدارها لاحكام الاعدام وتنفيذها دون الرجوع الى المحاكم بضرورة تسهيل الاجراءات واختصار الوقت.

٣ ـ الاغتيال السياسي

مارست السلطات العراقية عمليات الاغتيال ضد خصومها السياسيين وشملت شخصيات قيادية في النظام نفسه. وتناولت تقارير المنظمات السياسية والانسانية اسماء العديد من هؤلاء الضحايا، ولم تقتصر عمليات الاغتيال داخل العراق، بل امتدت الى بلدان اخرى مثل الكويت وبريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وبلغاريا ولبنان وباكستان والسودان واليمن وايطاليا والسويد، واتخذت عمليات الاغتيال السياسي اساليب متنوعة من بينها استعمال المسدس كاتم الصوت أو

سم الثاليوم أو عن طريق اسقاط الطائرات كما حصل لكبار العسكريين.

٤ ـ التعذيب الجسدي والنفسي

رصدت منظمة العفو الدولية (٣٠) طريقة تستخدم في تعذيب المعتقلين السياسيين في العراق، وتجمع هذه التقارير على ان التعذيب يمارس بهدف اجبار المعتقلين على التوقيع على اعترافات أو التخلي عن معتقداتهم. ومن هذه الاساليب قلع العيون وقطع الانوف والآذان والاقدام والاعضاء التناسلية وبتر الاطراف وتسليط الصعقات الكهربائية خاصة على الاعضاء التناسلية وقلع الاظافر والضرب المبرح والتعليق بالمراوح واجبار الضحية على الوقوف موثقاً ومعصوب العينين لفترة طويلة دون نوم وطعام وشراب واطفاء اعقاب السجائر في اماكن حساسة من الجسم، والتهديد بالاعدام والاعتداء الجنسي، وكثيراً ما يؤدي التعذيب الجسدي الى الموت خاصة في حالة امتناع الضحية عن الادلاء بالاعترافات أو رفضه التخلي عن عقيدته. لا يمكن حصر عدد الذين تمت تصفيتهم بهذه الطريقة، فمصير الالوف لازال مجهولاً والكثير من عوائل الذين اعتقلوا يجهلون مصير ابناءهم.

والتعذيب الجسدي والنفسي شمل النساء والاطفال، فقد اصبح ممارسة روتينية اعتقال الاطفال وتعذيبهم لاجبارهم على اعطاء معلومات عن اقاربهم. أما الاشخاص الذين يمارسون التعذيب فهم بمنجى عن أي عقاب بل بالعكس يكافئون على اعمالهم، وليس غريباً ان يكون من بين هؤلاء من هم الآن وزراء وقادة حزبيون بما فيهم رأس النظام.

ان التعذيب الجسدي والنفسي يخالف الدستور العراقي المؤقت وقانون العقوبات العراقي والعهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية لعام ١٩٦٦ واعلان الامم المتحدة الخاص بالحماية من التعرض للتعذيب لسنة ١٩٧٥.

٥ ـ التهجير الخارجي والداخلي

منذ عام ١٩٦٩ اقدم النظام في العراق على حملات تهجير قسرية جماعية واسعة الى ايران شملت مئات الآلاف من المواطنين من مختلف انحاء البلاد. لقد تم ابعادهم وسط اجواء ارهابية ومعاملة لاانسانية، فقد انتزعت منهم كافة الوثائق التي تثبت انتماءهم وارتباطهم بالعراق، وسلبت أموالهم المنقولة وغير المنقولة وحتى حاجاتهم الشخصية، وجردوا من حق المواطنة بحجة التبعية الايرانية.

لقد ادت عمليات التهجير الى تفتيت الاسرة الواحدة فالبعض منهم بقي في العراق والبعض الآخر ابعد الى خارجه، ولم يقتصر التهجير القسري الى خارج العراق، بل ان المواطنين الاكراد في شمال العراق تعرضوا اكثر من مرة للتهجير من قبل النظام.

ففي عام ١٩٧٥ تم تهجير (١٥٠) ألف كردي عراقي من قراهم في الشمال الى مناطق بعيدة في الوسط والجنوب وذلك باعتراف محافظ السليمانية عبد الكريم برزنجي نقلته وكالة رويتر للانباء.

ان اعمال التهجير القسري مهما كانت تخالف نصوص الدستور العراقي المؤقت، وقانون الجنسية العراقي، اضافة الى ان هذه الممارسات تنافي المادة (٢٣) من العهد الدولي الخاص

بالحقوق المدنية والسياسية، والمادة (٥) من الاعلان العالمي لحقوق الانسان لعام ١٩٤٨.
٦ ـ الاعتقال التعسفي والحجز.

ان اعتقال المعارضين السياسيين وحجزهم لآماد طويلة دون توجيه أي تهمة إليهم واحالتهم الى المحاكم نهج معتاد للسلطات العراقية، فالاعتقال يتم دائماً دون امر من جهة قضائية مختصة كما تنص القوانين العراقية بما فيها الدستور والوثائق الدولية، ومن تقرير لمنظمة العفو الدولية لعام ١٩٨٨ نقتطف النص التالي:

«ظل آلاف السجناء السياسيين ومن بينهم سجناء رأي يتعرضون لفترات طويلة دون محاكمة أو بعد محاكمات فورية، وظلت التقارير تتوارد عن ممارسات قوات الامن للتعذيب بشكل روتيني وعن اختفاء اعداد كبيرة من الاشخاص يخشى ان كثيرين منهم قد اعدموا، ووردت انباء عن تنفيذ مئات الاعدامات معظمها خارج القضاء».

فبالرغم من ان الدستور العراقي والقوانين العراقية تمنع حجز أي مواطن دون تقديمه للمحكمة اكثر من (١٥) يوماً إلا ان عشرات الالوف من المحجوزين والمعتقلين مازالوا يرزخون في سجون العراق واقبية اجهزة المخابرات والامن، وان الكثيرين انقطعت اخبارهم عن عوائلهم ومن بين هؤلاء (رهائن) اعتقلوا مكان آخرين مطلوبين من السلطات العراقية.

ان الاعتقال ـ كما بينا آنفاً ـ عدا عن كونه يتم دون امر قضائي، فان المعتقلين محرومون من حق توكيل محامي وحق الرجوع الى القضاء في الشكوى وطلب التعويض، حسب ما تقتضي به القوانين العراقية والمواثيق الدولية الخاصة بحقوق الانسان.

وكثيراً ما اصدرت السلطات العراقية قرارات بالعفو عن المعتقلين والمحتجزين السياسيين ـ كان آخرها في آب ١٩٩١ إلا ان الحقيقة التي يجب ان تقال هي ان هذه القرارات مجرد ادعاءات لم تدخل حيز التطبيق الفعلي، فسجون العراق الآن ملأى بعشرات الالوف من المعارضين السياسيين المعتقلين والمحتجزين.

٧ ـ تقييد حريات المواطنين ومصادرة حقوقهم

لا يتمتع المواطن العراقي بحرية التعبير عن الرأي والفكر والعقيدة ولا يمارس حقه في التظاهر السلمي والاجتماع والاحزاب وتكوين جمعيات ونقابات، رغم ان هذه الحريات والحقوق منصوص عليها في الدستور والقوانين العراقية.

فوسائل الاعلام بما في ذلك الصحافة والاذاعة والتلفزيون تخضع على نحو كامل للسيطرة الحكومية، ولا يتاح لاي شخص كان التعبير عن اوجه تتعارض مع السياسات الرسمية القائمة، ومارس النظام سياسة فرض ايديولوجية الحزب الحاكم على المجتمع وصدرت القوانين ـ كان آخرها قانون الاحزاب في ايلول ١٩٩١ ـ التي تحتكر العمل السياسي والحزبي في القوات المسلحة لمنتسبي الحزب الحاكم وتبقي حكم الاعدام على كل من يمارسه غيرهم.

كما صدرت قوانين تحد من حريات الافراد المدنية والشخصية فمنع الزواج بأجنبيات وقيد السفر الى الخارج. واطلقت ايادي رجال الامن في الاستجواب والتوقيف والاعتقال وانتهاك حرمات

المنازل دون اذونات قضائية ـ والرقابة على الاتصالات والمراسلات التلفونية والبريدية، وبلغ التدخل في حياة الافراد الخاصة حد اجبار زوجات المعارضين السياسيين على تطليق أزواجهن، أو بالعكس الطلب من الزوج لقاء مكافأة مالية تطليق زوجته المهجرة الى الخارج بحجة انها من التبعية الايرانية.

لقد واجهت السلطات العراقية كل التظاهرات السلمية والاضرابات والتجمعات بقسوة متناهية استعملت فيها الاسلحة النارية ومثل هذه الحوادث تكررت في مناطق شتى من العراق وراح ضحيتها الكثير من المواطنين ومنعت قانوناً قيام الاحزاب عدا حزب السلطة وطاردت منتسبي الاحزاب القائمة، أما الجمعيات والنقابات فهي خاضعة لسيطرة الحزب الحاكم بعد ان حرم قانونياً أي وجود نقابي ومهني خارج اطارها. في الآونة الاخيرة اصدر مجلس قيادة الثورة قراراً يقضي بإلغاء النقابات العمالية في قطاع الدولة رغم ان العراق صادق على الاتفاقية الدولية الخاصة بحق التنظيم النقابي. لقد تسببت سياسة النظام في تقييد حريات المواطنين ومصادرة حقوقهم في هجرة مئات الالاف من العراقيين الى الخارج هرباً من الجو الارهابي الذي يخيم على العراق.

٨ ـ التمييز القومي والديني والطائفي

يمارس الحكم مختلف انواع التمييز القومي والديني والطائفي بحيث اصبح هذا التمييز سياسة ثابتة انتهجت منذ بداية الاستيلاء على الحكم في عام ١٩٦٨. فالموقف من الشعب الكردي في العراق لا يحتاج الى ايضاح وقد واصل الحكم حروبه الجائرة ضد الاكراد وافرغ الحكم الذاتي لكردستان من أي محتوى حقيقي، وقام بحملات التهجير النظامية ضد مئات الالوف من العراقيين بسبب الاختلاف المذهبي، واشتدت هذه الحملات في اثناء الحرب العراقية ـ الايرانية.

كان العراق في عداد الدول الغنية وينعم بخيرات وفيرة بددتها السلطة الغاشمة دون طائل على مغامراتها الحربية واوجه اخرى ضارة بمصلحة الشعب، وقد أصبح وضع العراق الآن مفجع، فمظاهر الفقر والجوع والمرض والموت كلها جميعاً تشكل سمة الحياة العامة.

لقد اخذ شعبنا بجريرة حاكمه المطلق صدام حسين فتحمل كل أوزاره وجرائمه، وعليه ايضاً ان يسدد فاتورة الديون والعقوبات المالية التي تقدر بمئات المليارات من الدولارات، وجرت السياسات الخرقاء التي انتهجها صدام وزمرته على البلاد كوارث ونكبات رهيبة شملت جميع مناحي الحياة. وكانت سبباً في المساس الحاصل في سيادة بلدنا.

ان صدام حسين وزمرته اغتصبوا السلطة عن طريق انقلاب عسكري لم يكن للشعب أي رأي فيه وحكموا البلاد بأساليب الارهاب والبطش والتنكيل والشعب لم يمنحهم ثقته وعبر عن رفضه للدكتاتورية في مناسبات كثيرة كان آخرها انتفاضة آذار عام ١٩٩١ التي كانت استفتاء بالدم ضد النظام، فالنظام القائم في العراق لا يمتلك شرعية لوجوده وتمثيله لشعبنا بكل المعايير القانونية الدولية والداخلية.

ان الشعب العراقي يتهم صدام حسين والمسؤولين الرسميين الآخرين، بصفتهم الشخصية، بارتكاب افعال منافية للقانون الدولي والقوانين العراقية السارية، والتي سببت آلاماً وفواجع للملايين

من الناس داخل العراق وخارجه، وعرضت السلم والامن الدوليين للخطر، ان هذه الافعال تندرج في عداد الجرائم الدولية التي يعاقب عليها القانون الدولي، والتي يمكن تصنيفها على الشكل التالي:

١ ـ جرائم ضد السلام

وتتمثل في شن الحرب ضد الجمهورية الاسلامية الايرانية وغزو الكويت واحتلالها وضمها للعراق، وكلها افعال تنتهك ميثاق الامم المتحدة وميثاق جامعة الدول العربية والاتفاقات المعقودة بين العراق وكل من الجمهورية الاسلامية الايرانية والكويت.

٢ ـ جرائم ضد قوانين الحرب

وتشمل الانتهاكات التي حدثت خلال العمليات العسكرية وفترة الاحتلال وتمثلت بأعمال القتل والتعذيب والاعتقال التعسفي وسوء معاملة الاسرى والمعتقلين واستخدام الاسلحة المحرمة دولياً وضرب المدن والاحياء المدنية واعمال التخريب والتدمير ونهب الممتلكات واستخدام مواطني الدول الاخرى كرهائن والتدمير المتعمد للبيئة الطبيعية فكل هذه الافعال منافية للقانون الدولي وخاصة اتفاقيات جنيف الاربع لعام ١٩٤٩.

٣ ـ جرائم ضد الانسانية

وهي اعمال القتل والابادة بالاسلحة الكيمياوية وخاصة داخل العراق، والتعذيب والتصفية الجسدية والاغتيال السياسي والخطف والاعدام دون محاكمة للمعارضين السياسيين للنظام، والتهجير القسري للمواطنين العراقيين وتجريدهم من جنسيتهم وممارسة التمييز القومي والديني والطائفي. وكل هذه الافعال منافية للمعاهدة المتعلقة بمعاقبة مرتكبي جريمة ابادة الجنس البشري ولائحة حقوق الانسان والعهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، وكل هذه المواثيق موقع عليها من العراق.

ان شعبنا يتطلع الى كل اشكال الدعم والتضامن معه من اجل اسقاط الدكتاتورية واقامة حكومة ائتلافية تضم كل القوى السياسية، مهمتها الاولى تصفية الاوضاع الجائرة والمؤسسات القمعية، وتمكن الشعب من التعبير عن رأيه في نظام الحكم عن طريق انتخابات حرة تشمل جميع العراقيين رجالاً ونساءً ممن يحق لهم التصويت ينبثق عنها مجلس تأسيسي يشرع دستوراً للبلاد ويحدد قوام الحكومة القائمة.

واذا كانت الامم المتحدة ومجلس الامن على وجه الخصوص قد مارسا مسؤولياتهما في اتخاذ العديد من القرارات المضادة لاحتلال الكويت والتي كانت الغطاء الشرعي لتحرير هذا البلد، فان قرارات اخرى مثل القرار (٦٨٧) اثقلت كاهل الشعب العراقي بعقوبات قاسية ولأماد طويلة في وقت كان الشعب العراقي يتطلع الى الرأي العام العالمي والامم المتحدة وبالذات مجلس الامن للتخلص من الدمار والخراب والمجاعة والاوبئة والكوارث البيئية التي كان سببها الاول النظام الحاكم في العراق، وسيكون حق الشعب المشروع طلب اعادة النظر بذلك القرار الذي يرهق

ويرتهن مستقبل العراق ويمنع تطوره السلمي والمستقبل خصوصاً بعد الخلاص من صدام حسين وطغمته.

ان القرار (٦٨٧) الذي انتقص من سيادة العراق وسلطاته الداخلية وارادته ما كان له ان يكون لولا مغامرة صدام حسين بغزو الكويت وسيكون مناسباً إلغاؤه خصوصاً بعد الاطاحة به، علماً بانه يتعارض مع اتفاقية فيينا حول قانون المعاهدات لعام ١٩٦٩ فهو ينتقص من السيادة بل يعومها ويقوم على عدم التكافؤ والمساواة.

والامم المتحدة معنية ايضاً بتحمل مسؤولياتها في تأكيد احترام حقوق الانسان في العراق تطبيقاً لقرار مجلس الامن رقم (٦٨٨) باعتبار ان ذلك يدخل في دائرة القانون الدولي ويعطي الامم المتحدة والمجتمع الدولي الحق في التدخل دون ان يعتبر ذلك شأناً داخلياً، فالدول والحكومات من واجبها الالتزام بأحكام القانون الدولي وقواعده الآمرة في ممارسة سلطانها الداخلي.

ولا شك ان اتخاذ التدابير لتعليق الاعتراف بعضوية حكومة صدام حسين في الامم المتحدة وغيرها من المنظمات الدولية يلعب دوراً كبيراً في عزل النظام ويمنح شعبنا المزيد من الدعم والقدرة على اسقاطها.

وبموجب ميثاق الامم المتحدة، يحق لمجلس الامن طبقاً للمادة (٢٤) مقاضاة مجرمي الحرب، ومنحت المادة (٢٩) صلاحية لاعداد المرافعة، وأكدت المادة (١٩) على وظيفة المجلس التي تتلخص على حفظ السلم والامن الدوليين، كما تذهب الى ذلك المادة الاولى الفقرة الاولى من اهداف الامم المتحدة. ومنحت المادة حتى استخدام القوة المسلحة لتطبيق الاحكام الصادرة بحق من ينتهك السلم والامن الدوليين.

وبناء على ما تقدم تصبح احالة صدام حسين والمسؤولين الرسميين الكبار في العراق الى القضاء الدولي بتهم جنائية دولية وبالتالي تحميله المسؤولية القانونية الدولية مهمة واجبة تقع على عاتق الامم المتحدة باعتبار ان ذلك اجراءاً متمماً لما سبق اتخاذه والذي تضمنته القرارات التي صدرت عن مجلس الامن ابتداءً من القرار ٦٦٠ لسنة ١٩٩٠.



الحركة الشبابية العالمية وحرب الخليج

محمد صالح*

اثـار احتـلال العراق للكويت في ٢ آب ١٩٩٠ نقاشاً واسعاً بين صفوف الحركة الشبابية العالمية، وازداد هذا النقاش تعقيداً على اثر التحشيدات الغربية والاميركية، وبعد بدء الحـرب في ١٧ كانـون الثـاني ١٩٩١. وقد استمر النقاش حتى بعد تمكن النظام العراقي من قمع انتفاضة آذار المجيدة بمباركة اميركية. وقد ارتبط النقاش بعدها بموضوعة العقوبات الدولية والحصار الاقتصادي على العراق.

تبـاينت ردود الفعل الاولى في اعقاب احتلال الكويت مباشرة، فقد تأثر عدد من المنظمات بديماغوجية صدام حول التوزيع العادل للثروات العربية، والوعود بحل القضية الفلسطينية وغير ذلك. وبذلك وقفت بعض المنظمات، ومنها عربية، الى جانب احتلال النظام العراقي للكويت، ولو بحياء في البداية تبدد بسرعة عند بدء التحشيدات الاميركية في المنـطقـة، وتحـولت بذلك اغلب هذه المنظمات الى موقف صريح لدعم النظام، وذلك بذريعة «التضامن مع الشعب العراقي بوجه التهديدات الاميركية». واصحاب هذا التوجه فشلوا في اعطاء تصور واضح عن سبل حل الازمة بل وذهب بعضهم الى الدعوة للتـطوع والقتال الى جانب صدام. ومن الجانب الآخر دعت منظمات عديدة الى ادانة الاحتلال، وقدمت الحل المناسب للأزمة، وهو الانسحاب الفوري وغير المشروط للقوات العراقية من الكويت، وحل الخلاف بالطرق السلمية والدبلوماسية.

وبذلك بدأت ملامح الانقسام (حول هذا الموضوع) داخل الحركة الشبابية فتبلورت تيارات ثلاثة، الاول يؤيد صدام ويعتبر معاداة الامبريالية بمثابة البوصلة لتحديد الموقف

* مسؤول العلاقات الخارجية.

بغض النظر عن كل ما حدث ويحدث في العراق والكويت. وقد تمثل هذا الاتجاه بعدد من المنظمات ذات الصبغة اليسارية والشيوعية، خاصة في اميركا اللاتينية. أما الاتجاه الثاني، ولم يكن مؤثراً، فقد دعا الى استعمال كل الوسائل لطرد القوات العراقية من الكويت، بما فيها استخدام القوة العسكرية لتطبيق كافة قرارات مجلس الامن الدولي. وقد ادان الاتجاه الثالث احتلال الكويت ودعا الى الانسحاب الفوري لقوات الاحتلال، وادان في نفس الوقت التصعيد الامبريالي واستخدام القوة لحل الازمة، ودعا الى تصعيد نشاط حركة السلام لمنع نشوب الحرب ـ والى جانب اتحادنا اتحاد الشبيبة الديمقراطي العراقي، وقف العديد من المنظمات (بينها منظمات عربية قليلة للاسف).

وقد بلغ هذا الصراع ذروته **في المؤتمر ١٣** لاتحاد الشباب الديمقراطي العالمي (الوفدي) المنعقد في اثينا **٥ ـ ١١ كانون الاول ١٩٩٠**، قبل بداية الحرب بأكثر من شهر. فقد تحول هذا الموضوع الى ميدان أساسي للصراع بين الاتجاهات السياسية المختلفة في الحركة الشبابية العالمية. وللاسف لم تكن لجنة الشرق الاوسط ضمن (الوفدي) بمستوى الحدث بسبب انقسام المنظمات الاعضاء حول تقييم الغزو وسبل حل الازمة. وانتقل هذا الصراع إلى طور جديد بعد ان حاولت منظمات عربية معينة عرقلة التوصل الى تعديلات مقبولة من قبل الاغلبية والتي كانت تؤيد مواقف اتحادنا، على صياغات وثائق المؤتمر.

واستمر هذا الموقف اثناء الاعداد لاقامة المؤتمر الشبابي العالمي الطارىء ضد الحرب في باريس للفترة بين ١١ ـ ١٢ كانون الثاني **١٩٩١** قبيل حرب الخليج بأيام. فقد برزت محاولات ضغط من قبل حركة الطلبة والشباب العالمية لدى هيئة الامم المتحدة (اسمون) بدفع من منظمة عربية معينة، لمنع حضور اتحادنا الى المؤتمر، في الوقت الذي أصروا فيه على دعوة منظمة «السلم والتضامن» العراقية الحكومية واتحاد الطلاب والشباب العراقي التابع للسلطة. وبالرغم من هذا الموقف، فقد تمثل اتحادنا في المؤتمر الذي شهد حضوراً واسعاً يندر الحدوث (٢٥ منظمة دولية و٤٠ منظمة وطنية مثلت مختلف الاتجاهات السياسية: الاشتراكية، الاشتراكية ـ الديمقراطية، الديمقراطية المسيحية، والشيوعية). وكان لممثلي اتحادنا حضور متميز في هذا اللقاء. وقد برز هنا ايضاً ذلك التناقض بين من كان يدعو لـ «معاداة الامبريالية» ووضعها فوق كل الاعتبارات، وبين من كان يرى الصورة الفعلية للازمة بكل تناقضاتها.

ومن بين مقررات هذا اللقاء اعلان يوم **١٩٩١/١/٢٦ يوماً عالمياً** ضد الحرب، واقامة لقاء شبابي عالمي من اجل السلم العادل والوطيد في الشرق الاوسط، وذلك في قبرص.

الموقف بعد نشوب الحرب :

منذ اليوم الاول لاندلاع الحرب، برز تحرك ممثلي بعض المنظمات الاعضاء في مجلس تنسيق (الوفدي) بصفته الهيئة العاملة في مقر الاتحاد العالمي ببودابست فقاموا بنشاط هائل ضد الحرب، وتم اصدار نشرة يومية خاصة تنقل اخبار حركة السلم في مختلف ارجاء العالم، تميزت بالتنوع ونشرت اخبار مختلف الاتجاهات السياسية في الحركة الشبابية المعادية للحرب.

وقد اقيم «اللقاء الشبابي العالمي من اجل سلم عادل ووطيد في الشرق الاوسط والبحر المتوسط» في نيقوسيا ـ قبرص يومي ٣٠ ـ ٣١ آذار ١٩٩١ . ولم يكن الحضور حسبما كان متوقعاً في لقاء باريس، فقد اقتصر على عدد من اعضاء (الوفدي) وبعض المنظمات الاخرى. قدم ممثل اتحادنا مداخلة تناولت المفاصل التالية : مقدمة تاريخية ونتائج الحرب العراقية ـ الايرانية، احتلال الكويت، ردود الفعل على الغزو، الوضع بعد الحرب، وحدة وحرمة الاراضي العراقية (تحرير الاراضي العراقية من القوات الاجنبية، وحدة الاراضي العراقية، نشاط لجنة العمل المشترك لقوى المعارضة) . وقد طرحت بعض المنظمات التي حضرت اللقاء (ومنها منظمتان عربيتان) تقييمات غير دقيقة للوضع، فيها ترديد لطروحات صدام بالربط بين قضية الكويت والقضية الفلسطينية، وان احتلال الكويت افاد في تحريك القضية الفلسطينية، واستفادة منظمة التحرير الفلسطينية من الحرب، وان صدام حسين هو اول حاكم عربي قال «لا» للامبريالية (بينما يسميه ابناء شعبنا «مستر يس»!) . وقد فند عدد من الحاضرين هذه التقييمات.

وفي هذا اللقاء ألقت حرب الخليج بظلها الثقيل على المواضيع الاخرى المطروحة للبحث (القضية اللبنانية، والفلسطينية، والقبرصية) ودفعتها الى مرتبة ثانوية، الامر الذي يعكس مدى الضرر الذي ألحقه احتلال الكويت بقضايا المنطقة العادلة.

الاستنتاجات الاساسية :

١ ـ وقفت بعض المنظمات «اليسارية» موقفاً داعماً للنظام العراقي، بحجة «معاداته» للامبريالية، دون اعتبار للوضع في المنطقة والعراق. مثلاً ارسلت منظمة برازيلية برقية الى السفير العراقي في البرازيل، نشرت نصها في مجلتها الصادرة في تشرين الاول ١٩٩٠ (لاحظ: قبل اندلاع الحرب بفترة طويلة، وبعد احتلال الكويت) وجاء فيها: «يرجى نقل تضامننا مع شعب وحكومة العراق بمواجهة التدخل الاميركي . . الخ» وتتحدث البرقية عن

السلم وحق الشعوب في تقرير مصيرها، كأن الشعب الكويتي الشقيق مستثنى من هذا الحق. وقد نشرت البرقية تحت عنوان «الشبيبة الثورية ٨ أكتوبر تدين العدوان الاميركي على العراق» في الوقت الذي كان المعتدي هو العراق.

هذا الموقف الذي يستند الى معاداة وهمية للامبريالية يلحق الضرر بمصالح شعبنا الذي يتباكى عليه اصحاب هذا الموقف، في الوقت الذي يقوم فيه «بطلهم» صدام بإبادة شعبنا في الاهوار وكردستان وفي سائر انحاء الوطن. ومن المؤسف ان تندفع الى هذا الموقف الاخرق العديد من المنظمات اليسارية والتقدمية ـ سواء عن قصد أو عن عدم وضوح في الرؤية ـ مثل اتحاد الشبيبة الشيوعي الكوبية.

٢ ـ ومن الضروري فضح سياسة النظام التي يتوهم البعض انها معادية للامبريالية، في الوقت الذي بات واضحاً ان نظام صدام لا يتورع عن القيام بأكبر الجرائم للحفاظ على سيطرته، بما في ذلك تقديم كل التنازلات امام الامبريالية الاميركية التي فعلت كل ما في وسعها لدعمه (ويكفي الاطلاع على قضية القروض الاميركية التي استخدمها لحصول العراق على تكنولوجيا عسكرية نووية ولبناء البرنامج العسكري العراقي) وهذا يدل على ان صدام ونظامه اصبح جزءاً من لعبة السياسة الاميركية. ويمكن تقديم عدد هائل من الادلة على خطورة هذا النهج على النضال المعادي للامبريالية والنضال من اجل التحرر والتقدم. هذه المهمة تقع على عاتق ممثليات اتحاد الشبيبة الديمقراطي العراقي في الخارج للقيام بدور اكثر فاعلية لكسب المزيد من المنظمات الشبابية الى جانب نضال شعبنا للخلاص من الدكتاتورية، ولتقديم دعم اكبر لزملاء اتحادنا المناضلين داخل الوطن في ظروف معروفة للجميع.

٣ ـ المنظمات الشبابية التي تؤمن بالدفاع عن حقوق الانسان وحقوق الاقليات، والمدافعة عن قيم الديمقراطية ـ بالرغم من الاختلافات الشاسعة في الرؤية والأهداف والمصالح ـ وقفت بدرجات مختلفة مع نضال شعبنا بعربه وكرده واقلياته ضد الحكم التوتاليتاري، بغض النظر عن مواقفها من حرب الخليج والتدخل الاميركي. وهناك عدد كبير من المنظمات (الاوربية الغربية خاصة) يدعم توجه اتحادنا في اعطاء القضية الوطنية العراقية الاهتمام الاول. وقد جاء هذا الموقف نتيجة نشاط اعلامي دؤوب قامت به بعض ممثلياتنا النشطة، واستغلال المناسبات واللقاءات الدولية التي تقيمها مختلف المنظمات الشبابية.

اتحاد الشبيبة الديمقراطي العراقي

١٥ آب ١٩٩٢


أدب وفن

هذا الملف

عرف القراء فيصل لعيبي من لوحاته على غلاف مجلتنا ومقالاته على صفحاتها. فهو حاضر فيها بالريشة والقلم رغم المسافات التي تبعده متنقلاً في ديار الغربة، ورغم ظروف العيش التي لا يحسد عليها. فقلّما توانى عن تلبية دعوتنا الى المساهمة في ملف عن مبدع أو شأن ابداعي. وهو مبادر في الكتابة عن المبدعين، والثقافة عموماً.

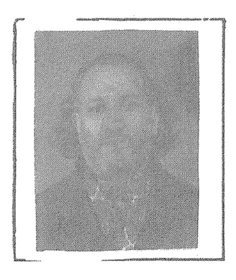
وحيثما يحمله المنفى ينشط فيصل وتدب حركة من حوله. ومجال تفاعله لا يقتصر على العراقيين من المثقفين فهو لا يصبر على الترحل ولا يطيق الخمول.

في صيف ١٩٩١ حطّ رحاله في لندن بين جاليتها العراقية الضخمة، وفيها عدد كبير من المثقفين. هنا كان له معرضان أولهما سماه «كان يا مكان» والثاني عن انتفاضة شعبنا فسمّاه «قيامة آذار ١٩٩١». وساهم بنشاط في العديد من الفعاليات الثقافية والسياسية. وفوق ذلك فاجأنا مؤخراً بإصدار «المجرشة» التي يريدها «جبزبوز» زماننا. فهي تسوط نظام صدام بلاذع الكلمة والكاريكاتير، غير انها «تجرش» معارضيه ايضاً حينما تخيّب أقوالهم وأفعالهم آمال فيصل. حتى حزبه لم يسلم من هذا «الجرش».

وفيصل رفيق من طراز خاص: يُوجِع حزبنا نقداً دون ان يتقاعس عن النشاط الحزبي بإبداع ودأب متميزين. فهو داعية فاعل، على طريقته طبعاً، للتجديد في حياة الحزب وفكره وسياسته. ولا عجب ان يعتز هذا الفنان الشيوعي بمنشئه الكادح ويتفانى في النضال من اجل مستقبل نيّر لشغيلة اليد والفكر.

فيصل جميل الوفاء لزملائه المبدعين. رسمهم وكتب عنهم شيئاً غير قليل. في هذا الملف نقرأ ما يقول بعض المبدعين عن تجربة فيصل الفنية مع تعليقه على آرائهم، ونقدّم باقة من نتاجاته التشكيلية. لكننا نبدأ برأيه حول العلاقة بين الفن والمجتمع.

الثقافة الجديدة



محطات في سيرة الفنان فيصل لعيبي

● ولد في مدينة البصرة	١٩٤٧
● حصل على دبلوم من معهد الفنون الجميلة ببغداد ـ فرع الرسم	١٩٦٧
● حصل على دبلوم اكاديمية الفنون الجميلة ببغداد ـ فرع الرسم	١٩٧١
● حصل على دبلوم من المدرسة العليا للفنون الجميلة بباريس ـ فرع الرسم	١٩٨٠
● حصل على دبلوم من جامعة السوربون بباريس ـ تاريخ الفن	١٩٨١

المعارض الشخصية

● في صالة مديرية الثقافة ، البصرة	١٩٦٦
● في صالة جمعية الفنانين العراقيين ، بغداد	١٩٧٢
● في صالة الف ، ميلانو ـ ايطاليا	١٩٨٤
● في صالة ليونارد دي فينيشي ، روما	١٩٨٥
● في صالة فيلكا ، روما	١٩٨٦
● في صالة قصر الثقافة ، عنابة ـ الجزائر	١٩٨٨
● في صالة الكوفة ـ لندن	١٩٩١
● في صالة الاربعة ـ لندن	١٩٩٢

هذا وساهم الفنان في حوالى عشرين معرضاً جماعياً

الفن والمجتمع*

فيصل لعيبي

منذ البدايات الاولى، ظل الفن وثيق العلاقة بالمشاكل الاجتماعية. فلم يبتعد عنها ابداً برغم الدعوات لتحويل الفن الى مثال يسمو على البشر ويخرج عن نطاق خبرتهم فلا يتعامل مع الامور التافهة على الارض، بل يتعلق بالسماء.

في الصور التي عُثر عليها في الاسكو والتاميرا (اسبانيا) وفي كهوف الهوگار الافريقية، تعمق الفنان في امور تتعلق بمشاكل مجتمعه وحقوقه الاساسية.

ولم يتضاءل هذا الانشغال قط، بل ترافق مع تقدم الانسان والفن كليهما.

وبمضي الزمن نلاحظ ان حضارات وادي الرافدين ووادي النيل قد عالجت هذه المسألة باهتمام،وربما على نحو اكثر تقدماً،باستخدام تقنيات اكثر تطوراً. وينطبق ذلك على الحضارتين الصينية والهندية الكلاسيكيتين، ناهيك عن حضارة (الانكا) في اميركا اللاتينية وفنون افريقيا السوداء.

ومع نشوء ديانات التوحيد العالمية، اشتد الميل الى ربط الفن بالمشاكل الانسانية.

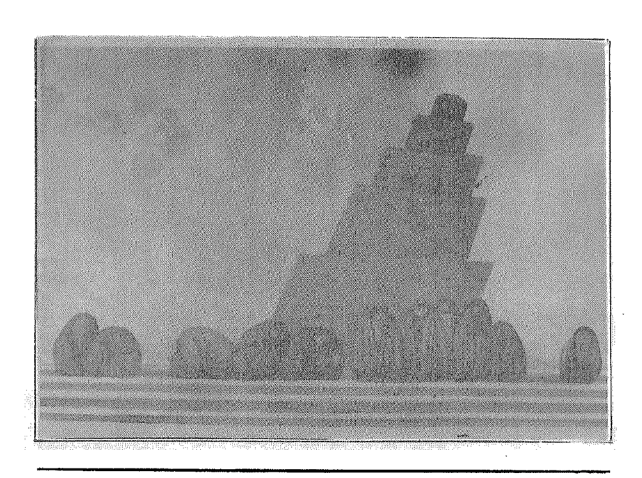
غير ان عصر النهضة شهد اول الجهود لنبذ هيمنة السماء على الانسان والثقافة والفنون. فبرزت بين الفن والمجتمع تلك العلاقة الحسية بالغة الدقة. فأصبح الفن مثابة الهندسة لروح الانسان.

لقـد حاولت مدارس وحـركـات فنية شتى إقصـاء الفن عن المجتمع ، مدعية ان الجمـاليات لا يجمعها جامع مع التناقضات الاجتماعية . غير ان الواقع وقف بالمرصاد لتلك المحاولات .

وفي القرن العشرين اتجهت مدارس فنية وفنانون افراد بنشاط نحو تكامل وتزامن القطبين : الفن والمجتمع.فالتكعيبيون رفضوا تقاليد القرن التاسع عشر، وتمرد السرياليون على المفـاهيم التي يفـرضهـا المجتمـع الصنـاعي ، على غرار هؤلاء جميعـاً أكد هذه الموضوعة (الفن والمجتمع) البنائيون ، والدادائيون ، واتباع مدرسة (باو هاوس) والفن الياباني ، وبيكاسو (في الغورنيكا) ، ومحمود مختار (في نهضة مصر) وجواد سليم (في نصب الحرية) ، ودنيكا ، وهنري مور، وكياكوميتي ، وبيكون ، ومحمود صبري ، واوتو ديكس ، وجورج كروز، وفرناند ليجر، وكوتوزدِ، وفيسسكناي ، وكالابرياءوهلم جرا .

لندن ١٩٩٢

* كتبها الفنان للفولدر الخاص بمعرضه الشخصي بلندن في حزيران ١٩٩٢ حول انتفاضة الشعب العراقي ضد النظام الدكتاتوري واعطى المعرض عنوان «قيامة آذار ١٩٩١» . وقد ترجمنا الكلمة عن الانكليزية لعدم توفر النص العربي - ث . جـ .



فيصل لعيبي :

المشهد وتاريخه

زهير الجزائري

حلم فيصل لعيبي بسيط جداً : «أن اكون رساماً عراقياً» . . وهو حلم لا يعطي لرسام امتيازاً فرادة . ولذلك يعتبر فيصل لعيبي نفسه امتداداً للمدرسة التي وضعت (جماعة بغداد) خطوطها العريضة ، وواصل تقاليدها الرواد جواد سليم ، وفايق حسن وشاكر حسن آل سعيد : الانطلاق من الرؤية التشكيلية المعاصرة ، نحو موضوع واسلوب مجذور في تراث العراق وحضارته .

وقد واصل فيصل لعيبي الجهود التجريبية التي قام بها استاذه جواد سليم في البحث عن اشكال ورموز في الحياة الشعبية العراقية .

لكن حلم فيصل البسيط الطيب يلتبس وسط تلك الاسئلة النظرية القديمة : المحلية اولاً أم العالمية؟ الذات أم الموضوع المحلي ، اية محلية بالتحديد : ذلك الثبات الاستشراقي ، أم المحلية الحركة بتفاعلاتها وتطورها . . . وتزداد المشكلة تعقيداً حين تصبح المحلية هذه موضوع فنان منزوع من محله وبيئته ، إلى منفى يعاكسها تماماً .

الذاكرة بدل الحاضر

في المعرض الذي أقامه فيصل لعيبي في تشرين الثاني ١٩٩١ في (غاليري الكوفة) بلندن ، بدا وكأنه يريد أن يفعل المستحيل : أن يعبر عما فعلته حربان وسياق من العنف والتدمير ، لكي يخرج حياة تهدمت تماماً : بغداد الخمسينات شخصياتها النمطيّة المستقرة في مكانها الراسخ ، متبعاً خطى رواد المدرسة المحلية العراقية ومفترقاً عنهم بمنفاه .

كل رواد المدرسة العراقية عادوا من الخارج إلى بيئتهم يحملون الطموح الذي يعتبر فيصل نفسه وريثاً له : الجمع بين رؤية تشكيلية معاصرة وطراز مجذور في تراث العراق

وحضارته. وبدأوا بدراسة البيئة بحثاً عن الاشكال والرموز والمأثورات الشعبية. ولكنهم، خاصة جواد سليم، فككوا البيئة إلى مواد اولية، واعادوا تركيبها لبناء لوحة جديدة... فيصل لعيبي المحكوم بمنفاه يعطي للموضوع اهتماماً يفوق اللوحة. فالوصول الى الموضوع واستعادة كثافته سيصبح غاية بمقدار ما هو وسيلة. ويخرج من ذاته الى المشهد المخزون في ذاكرته مع اقرار مسبق بموضوعيته المستقلة. ولذلك يتجسد المشهد على اللوحة في شكل كتلة متماسكة صلبة، تذكّر بتكوينات الواسطي.. ومن موقعها الراسخ في تكوين اللوحة تنفصل الشخصيات (الخياطة، الشقاوة، صانع المقهى، بائع الفواكه) للحظات عن علاقاتها وجوها وتلتفت الى الرسام، كما لو انه مصور فوتوغرافي عابر. وتأخذ (بوز) يميزها في جوها الاجتماعي، ويجعلها ممتلئة بحضورها الذاتي وعالمها الخاص، ازاء عالمنا العابر المضطرب.

وتتحرك ذاكرة المصور خلال عملية الرسم التالية لتبني الموضوع وهي تمتحن نفسها.. ولكي تؤكد الحضور الفائق للشخصيات المستقاة توضع على خلفية لونية ملساء وفاتحة تشبه خلفية الايقونات أو المنحنيات الاسلامية. وفي رفضه الارادوي للمظاهر المتقلبة يتجه فيصل نحو لمس بنية الاشياء وديمومتها وليس لحظاتها الهاربة. ولذلك يعطي شخصياته ملمساً صلباً يجعلها اشبه بالتماثيل المرسومة في اعمال بيكاسو الخمسينية (السابحات، الخطوة الاولى، استلقاء). ويحدد معالم الوجه بتوازن حازم على طريقة المنحوتات الآشورية، وتنبثق الاشياء الثانوية الصغيرة من زحمة الذاكرة (الساعة اليدوية، رباط الحذاء، زخرف الملابس، المسبحة، شراشيب العباءة، ماركة الماكنة)، تنبثق في حضور مشدّد يجعل الواقع فوق واقعي، يستمد حضوره الفائق من فرج الذاكرة باستعادة التفاصيل الصغيرة. وعلى طريقة الواسطي ينظر للمشهد من زوايا عديدة، ويدور حوله من الجانبين ومن الاعلى، بحيث تنهض ارضية البلاط باستقامة الى واجهة اللوحة، ومن تحت لكي تظهر احذية جلّاس المقهى والقطّة المختفية تحت الطاولة. ولذلك ليس هناك من ثانوي أو بعيد في اللوحة.. كل ما في المشهد مصفوف في مقدمة لوحة بلا بعد ثالث.. وبهذا الحضور المتنوع الشامل تزدحم اللوحة على سكونيتها الظاهرية بتضادات عديدة.. المتضادات المشدودة بين شخصيات اللوحة «الشرطي والمناضل المقاول وصباغ الاحذية، مكابرة المصارع واستكانة الزوجة وهي تحمل حذاءه».

وهناك تضادات داخل اللوحة، وصفها الفنان (ضياء العزاوي) في مقدمته للمعرض، وبين الشكل الواقعي - أشخاص اثاث - وبين المنظور التجريدي، بين التفاصيل المتنوعة وبين الكتلة، التضاد بين حركة الاشخاص وسكونية ما يحيط بهم «هذه التضادات الفنية في اللوحة يقابلها تضاد اجتماعي في الواقع».. ولكن هذه التضادات تتوحد وتحاط باطار

اسلامي يغلق فضاء اللوحة ويعطي شخصياتها امتداداً في التاريخ . . وتتداخل الزخرفة مع الموضوع لتمنحه جمالاً ثابتاً ورياضياً اقرب الى المنحنيات الاسلامية.

ولا يكتفي فيصل بصداقة شخصياته إنما يستعير جزءاً من وعيها الجمالي والاخلاقي، فرجولة الشقاوة وعافية بائع الفواكه وجمال الخياطة والشرطي الاعور، كلها موصوفة بمقاييس محيطها. ويكاد فيصل، وهو يوحد ذاكرته الفردية مع الذاكرة الجمالية الشعبية، ان يفعل ما فعله (غائب طعمة فرمان) مع شخصيات رواياته. . حيث استبعد وعي المثقف ليقدم الشخصيات بوعيها عن نفسها. . الفارق هو ان افق الفن ميال للمحافظة على القديم بينما افق الرواية اكثر انفتاحاً للتغبر.

وبتقديم هذه الحياة الشعبية كوحدة ثابتة ومكتفية بذاتها اراد فيصل لعيبي أن ينفي منفاه. ولكنه بدل ان يقدم واقعاً محلياً بكثافة وموضوعية، فانه سيقدم، بدلاً عن ذلك عالماً مصنوعاً من غمامة الحنين، افتقدناه، ولم نعد نملكه، ينتسب الى عنوان المعرض «كان يا ما كان».

القيامة الحاضرة

في معرضه الثاني (القيامة) غادر فيصل الوهم الذي بناه وانتسب اليه. . وقد مهد لقيامته بسلسلة تخطيطات تضمنها معرضه الاول. فبين مشاهد الحياة البغدادية المستقرة الساكنة كانت التخطيطات التي تحمل عنواناً ثابتاً (عاشوراء) تنذرنا بمذبحة حدثت. . هذه التخطيطات كانت التمرين الضروري للتعامل مع مجزرة واقعية وراهنة، هي تمرين للخروج من وطأة الحدث الحسية وللافلات من اسفاف يجعل اللوحة توثيقاً حسياً دون مستوى واقعية الحدث الفعلي، تمرين للخروج من الواقعة اليومية التي تنقلها اجهزة الاعلام الى خميرتها العاطفية، ثم الى العقل الذي يحيل الحدث اليومي الى معنى رمزي يجمع بين واقعية الحدث وواقعية الخيال الفني باعطاء الواقع الحالي امتداداً روائياً في التاريخ والاسطورة، ليصل الى رواية جديدة تتجاوز التاريخ والحاضر معاً الى شيء يفوقهما.

في هذه التخطيطات يتجمع ويتداخل أكبر زخم من العنف في كتلة متراصة يتشابك فيها القاتل والقتيل، والجسد الانساني مع الرمح الذي يخترقه، والفارس القتيل مع حصانه في صرخة ألم واحدة. . وقد استوحى فيصل الاشكال والرموز من الرسوم الدينية لمأساة الحسين التي استوحاها قبله الفنان الراحل كاظم حيدر، ومن مشاهد عرض الاسرى وصيد الاسود في الجداريات الآشورية ومن التخطيطات التمهيدية الرمزية لجورنيكا بيكاسو.

وقد استخدم فيصل براعته، التي اكتسبها خلال الممارسة الصحفية، في التعامل مع الموضوع الادبي المحكي بتخطيط محكم. ولكي يصل الى اقصى تعبير اندغم عنف الحدث الموضوعي مع العنف الكامن فيه عبر حركة الخط. . دينامية سريعة تريد ان تصل الى الحدود القصوى تقابلها عملية تحكم تريد اخضاع الخط لموازنة فنية بين الحدة والليونة والمباشرة والتعبير المجازي. . في هذه التخطيطات لا يأخذ الرمز، كما في العديد من اعمال فيصل، معنى عقلياً مسبقاً وقاطعاً. إنما يسمح بدلالات وتلاوين هي من صراع الرسام مع ذاته ومع موضوعه. وفيها يتلمس القواعد الداخلية لتحول الحدث الى رمز والواقع الى اسطورة. . في هذه الخطوط الحادة السريعة المتلوية اطلق فيصل صرخة وجعه وتهيأ لتعامل اهدأ مع نفس المذبحة.

التاريخ والحاضر

من الخط انتقل الى الالوان المائية، ومن زحمة المذبحة السابقة خرج الى نتائجها، واختار منها ضحية واحدة يمكن ان تعطي للمأساة اشمل معانيها، هي المرأة الشعبية الشعثاء المتربة لا تملك ما يميزها عن كل النساء، غير الحزن الصابر. . اختار فيصل هذه المرأة بطلة وحيدة للوحات معرضه (القيامة). زمان اللوحة دائماً هو الزمن الذي يلي اللوحة، حيث يهدأ الصراخ والافعال الحادة وتزال الاشلاء والجثث وبقع الدم وكل الدلالات المباشرة على ما حدث، ولا يبقى إلا الراسب الكثيف الموحي بها والذي يعبر الحواس ويتعداها ليتصل مباشرة بأثرها الروحي. . وهناك دلالات مجازية شديدة الاقتصاد على حدوث (القيامة): آثار الرصاص على الجدران وتصدع الثوابت المادية. وفي أو ما بعد الحدث تقف المرأة الشعبية بملابس سوداء ونظرة داهلة ساكنة حزينة، مشدودة على حزنها الصابر. . يبرز فيصل بطلة التراجيديا العراقية في مركز اللوحة وصدارتها. . . احياناً يحيطها باطار من فسيفساء اسلامية أو داخل قوس، ويرفعها احياناً فوق زقورة أو في سلالم أو الى المقدمة امام جدارية آشورية متصدعة. غياب فيصل لعيبي عن الحدث لا يلغي موضوعية الحدث ولا يحيله الى مجرد ذات مبدعة. . إنما يتحول هو نفسه الى موضوع الحدث. . فما تهدم ودمر هو اعز الاشياء الى قلبه: الام والاشياء المنتقاة من ذاكرته، وبالتحديد العمارة الثقافية التي يتصل بها فنه. وعلى اللوحة تتجاور ذاكرتان:

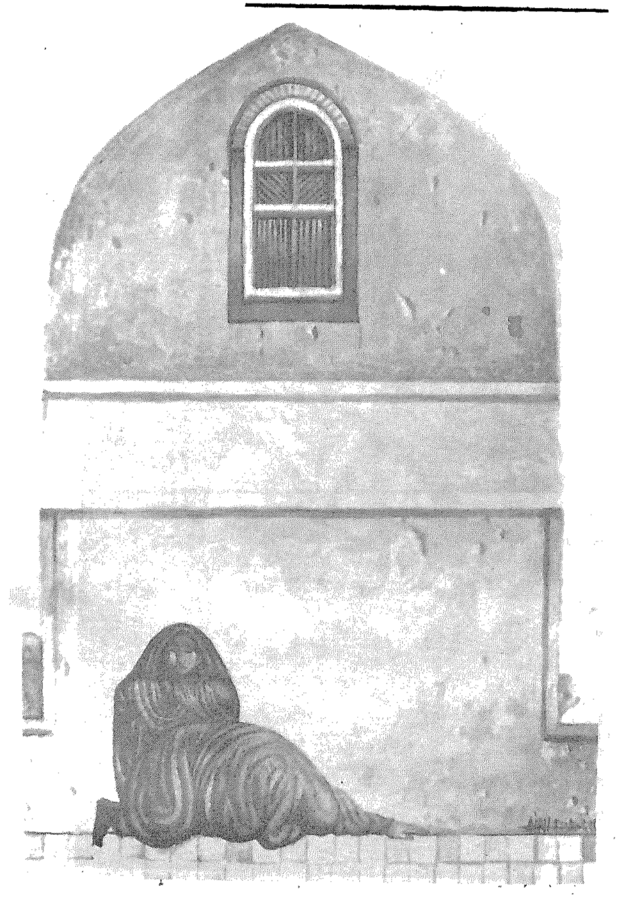
ذاكرة عينية تنقتل بالمشاهد التي رآها فيصل في طفولته وشبابه: الازقة البغدادية الضيقة، مراقد الائمة في الارياف، شناشيل البصرة، المغني على الربابة في سلمان باك. . .

وذاكـرة تاريخية تتصـل بمعـالم العـراق التـاريخية ذات القيمـة الرمزية التي تنير الحـاضر. وتنهض الذاكرتان معاً على ايقاع الحرب الاخيرة. فمتابعة وقائع الحرب من خلال وسائل الاعلام تحيله مباشرة الى صورة الاشياء التي تدمّر، ولذلك باشر فيصل تثبيت هذه المشاهد المتخيلة خلال وجوده في الجزائر حتى بدون سكيتشات اولية. وتشكل المرأة في هذه اللوحـات بصفتهـا الـرمزية أو بصفتها الانسانية مركز الحدث والعمل الفني. . سكـونهـا الظاهري بتعارض تماماً مع الجو الموحي بالفاجعة، ولكنه سكون يقربها الى نصب مجسد للمأساة. . وبوقفتها تطل على الحدث الحالي وعلى بعده التاريخي وتتصل بالاثنين معاً. ويحاول فيصل ان يتعامل مع الحدث الحالي بقصدية مسبقة تجعل اللوحة تجسيداً لمقولة ادبية ذهنية. وفي زاوية سلمان باك الذي تحول الى تمثال من المرمر، وقد كسرت الحرب يده التي تعزف على الربابة تجسيداً للفكرة الادبية التي تحولت الى رسم. وكـذلك سقوط رأس الآله كوديا كتعبير ادبي لانفصال العقل عن الجسد. لكن لوحات الافكار هذه لا تعوزها المشاعر والرموز لا تسرق من العمل جدليته الفنية الداخلية.

والجدارات الآشورية ليست مجرد ديكورات خلفية تضفي على الحدث الحالي رمزاً من خارجه، إنما تدخل في صلب الحدث وكجزء منه. وتصدع المسلة ليس مجرد صدى رمزي لتصدع الكائن الآدمي الذي يقف امامها، إنما هناك علاقة تسبيب وتكامل بحيث تبدو الفاجعة الحالية امتداداً لتاريخ فاجع كما يترك تصدع الحاضر اثره على استمرارية التـاريخ. وبهـذا التـداخل يتحول عمل فيصل الى رواية اسطورية للحدث السياسي، فالاساطير في مخيلته لا تندثر، إنما تتمظهر من جديد كملاحم سياسة حديثة، لذلك تقف الجداريات القديمة كشاهدات على حياة معاصرة بترتها الحرب عن سياقها التاريخي. والثور الهائج، أو اللبوة الجريحة أو المحارب الآشوري الذي يطلق سهماً واحتراق الزقورة هي رموز تاريخية تشير للحدث الغائب عن اللوحة. . هذا التجاوز بين الحدث الحالي واسطورته التاريخية يهدف الى خصوبة القول، وتضاعف الدلالات، رغم سقوطه احياناً في الـرمزية المباشرة كما في لوحة المشنوق وحمامة السلام. . . ولتعميق الدراما يوزع فيصل لعيبي عناصر اللوحة توزيعاً مسرحياً: النساء على سلالم الضريح وحول تمثال كوديا المكسور والمرأة المنحنية على حفرة مليئة بالجثث، وهناك دائماً فضاء مفتوح في خلفية اللوحة يعطي المشهد بعداً ملحمياً ويكسر سكونية اللوحة جزء متحرك، مثل سيارة نازلة من الـلامكـان وقد خفقتها الريح، أو عباءة تحركها الريح. . ميلان المنصة والملوية يعطي للوحـة نوعـاً من الحـركة والاستمرارية. . . في هذا المعرض يتقدم فيصل لعيبي خطوة تجـريبية نحو منمنمة حديثة يختلط فيها المجال الفسيفسائي بالدراما الحديثة والحدث الراهن بالتاريخ والاسطورة بالواقع.



الموسيقيان



قيامة آذار ١٩٩١

التقنية الفنية والرؤية الاجتماعية والسياسية في أعمال فيصل لعيبي

صباح مصطفى

يظل التيار الشاب الذي ظهر في أعوام السبعينات واحداً من أبرز التيارات الفنية المعاصرة في تاريخ التصوير العراقي، ويعتبر فيصل لعيبي (١٩٤٥)، أحد الفنانين الجادين في البحث عن الخصوصية والتفرد، وفي تقصي أسلوبية واقعية تعبيرية، تنهل من كل مدارس الفن الأكاديمي الغربي، والحديث، وتستلهم التراث الفني لحضارات وادي الرافدين، والفنون الإسلامية (ومن مدرسة جواد سليم للفن الحديث) على وجه الحصر. وتندرج أعماله ضمن أجواء عراقية حميمة، مشبعة بروح الخيال الشعبي المحلي، والأسطوري والتاريخي.

بدأ (لعيبي) أعوامه الأولى طالباً في معهد الفنون الجميلة، وأكاديمية الفنون متأثراً كبقية الطلبة بأساتذته فائق حسن، وحافظ الدروبي، إلا أنه كان يخرج دوماً بجرأته في البحث عن تقنية متحررة تخصه، كألوانه ذات الانطباع التأثيري، وبخطوطه المتسمة بالاختزال، والبناء القوي للإنشاء التصويري، وتتكثف محصلة مصادر بحثه، في تجاربه الشخصية.

وقد أدت هجرته، ومنفاه إلى تعزيز وتطوير مناهج التصوير واتساع تقنياته، ولكنه كان دوماً على صلة بالفضاء الاجتماعي والمناخ العراقي المحلي «المتلبد»، والذي أدت أحداثه المفجعة، إلى تأصيل رؤيته أكثر من ذي قبل؛ فأصبحت مليئة بالرموز، والمعاني،

والـدلالات، وصار يستشف من خلالها هواجس الإنسان العراقي، وصراعه ضد العنف والعسف، ومن ثم تطورت أسلوبيته الواقعية، سواء في أعماله الزيتية، والتلوينية، أو في أعماله الورقية الحبرية إلى مايشبه رؤية تأملية إنشائية، شديدة الرمزية بفجاعتها، تنتمي إلى عالم شفاف بنكهته العراقية، ويستدعي في كل ذلك الحاضر والأسطورة المتجذرة في أعماق الوعي الشعبي، والتي مازالت تنبض حياة حتى الآن. .

لايحيد لعيبي عن نقل الواقع، كما عرفه الواقعيون في الفن الغربي، ولكنه يميل إلى تأطير أسلوبه برؤية خاصة، ميزت مدرسة بغداد للفن الحديث في الخمسينات والتي اتخذت من رسوم المنمنمات للواسطي في القرن الثالث عشر، مصدراً أساسياً بالعودة إلى تراث الفن العراقي، إضافة إلى الاستعادة لهذا التراث في أعمال (جواد سليم) المعروفة بـ (البغداديات) والتي فتحت آفاقاً جادة للرسم العراقي ليستمد وجوده ومغزاه من التراث الإنساني المحلي، والعالمي.

لقد أدت الحرب العالمية الثانية وأصداؤها على الفرد العراقي، وماتبعها من انتقال البلاد من مجتمع ريفي - إقطاعي إلى مجتمع حرفي زراعي - شبه صناعي، مع أسباب أخـرى إلى تطور في رؤية الفنان للعالم، فظهرت مدرسة جواد بمفاهيمها المتناسبة مع الشخصية العراقية (البغدادية) ذات الأجواء الشعبية، وبهمومها البسيطة المتمثلة في أعمال (بائع الرقي) و(بائع الفرارات) و(مربي الطيور) و(الموسيقيون) وذروة إبداعاته في (أولاد يلعبون)،وكانت لغته الاجتماعيه تمس في حينه حاجات الفنان الخمسيني المتمثلة لدى جواد على وجه الخصوص بما يشبه الركون لقدرية الواقع.

ومع انهيار الواقع السياسي القديم، وتحرر رؤية الفنان، والمثقف إثر أحداث ثورة ١٤ تمـوز ١٩٥٨، تجـردت رؤية الفنان من مخاوف الواقع السابق ووصلت لدى سليم بالخروج من الواقعية المباشرة إلى الرؤية الملحمية - الإنسانية كما في عمله الشهير «نصب الحـرية».وفي تلك الفتـرة ترافق التعبير عن الـواقع الجديد بظهور معالم فنية تحديثية، كالقراءة المتحولة لطبيعة الفن، وفلسفته، وتأريخه، وصاحب ذلك ظهور التيارات الفنية الشابة [المجددون، وجماعة الرؤية الجديدة] ناهيك عن ظهور البيانات الفنية، والنقد الفني وتـداخـل النصـوص الأدبية، والفنـون التشكيلية، والتصـوير الفوتوغرافي والرسوم التوضيحية. . . إلخ. .

البدايات

وافداً من الجنوب (البصرة) وجد فيصل لعيبي نفسه في المناخات التجديدية للفن

التصويري، وفي مدار تجريبية تشكيلية تحاول شق الطريق لنفسها بعيداً عن الوصفات الجاهزة للفن، في تلك الفترة، وذاكرته محملة بالنخيل، والشناشيل، وبقصائد بدر شاكر السياب، وفضاءات لامتناهية لإشراقات الشمس على شط العرب، وخيالات رحلات (السندباد البحري)، إضافة إلى مؤثرات الواقع الاجتماعي المتوترة، والمحملة بالتناقضات، فحصر اهتماماته بدءاً من سنوات الدراسة بالأجواء الشعبية، وبكل ماتحمله من صور، وأساطير شعبية خصبة، وقد أسس تجربته على تعاليم (جواد سليم) ومدرسته، وبكل ماصاحبتها من صرعات الفن الغربي، الأكاديمي، وبالإضافة إلى معطيات التصوير الحديث، الأمر الذي تبلور في معارضه في أعوام السبعينات، والثمانينات وظهر بوضوح تأثره بأساتذة الرسم المعاصر، فرنان ليجيه، وبيكاسو، وموديلياني، وتأثر بأعمال الفنان بيترو.

الشكل، والبنية، والموضوع

اهتم لعيبي اهتمـامـاً واضحـاً، بالموضوع، وكيفية طرحه، ومعالجته من الناحية الأسلوبية بمـا تشكل من قطاعات، ومرتكزات عدة في محاولة التوافق بين عدة أساليب منتقاة ليبني عليه أسلوبه «الشخصي» ويحدد طابع رؤيته الفنية الخاصة، إثر مروره بعدة تجارب ومشاركات أكاديمية، وخاصة بعد انشغاله بجماعة الأكاديمي (كاظم حيدر، وصلاح جياد، وهادي نعمان) فتبلورت لديه مفاهيم، ومعالجات من التلاقيات الأسلوبية، فالسطوح عنده اتسمت ببنيتها المعمارية المختزلة، والعلاقات المحسوبة كما لدى التكعيبيين المستمدة من فرنان ليجيه، ومن السطوح المستوية عند (موديلياني) وتتوزع عناصر اللوحة البصرية في فضاء التصويري وخاصة في أعماله الزيتية بحيث تتجرد القطاعات الهندسية من بعدها (الثالث)،أما فخامة الشكل الإنساني فتعود إلى الهيئات النحتية، ذات الطابع التأملي السكوني للمنحوتات السومرية، والآشورية المتسمة ببساطة الخطوط، وقوة التعبير، وابتعادها عن التفاصيل.

أراد لعيبي أن يقـدم حلولاً لتحصيله الثقـافي، والفني، المتشـابك، والمتعدد المصـادر، فكـان السطح التصويري عنده مجالاً للتعبير عن الثنائية في الفكر، والتعبير (وهمـا متنـاقضان بطبيعة الحال) فالعلاقة المعقدة بين (الرمز المشخص Les biguue) والسـطح، وتمـوضعه تعتبر المعيار الجمالي لكلا الثقافتين «الغربية العقلانية»، والرؤية «الروحية» في جماليات الفن العربي ـ الإسلامي والتي غالباً ماحاول الفنان المغربي أن يتبناها (على سبيل المثال الرسام التعبيري (هنري ماتيس).



خياطة

وضمن هذا التيار التجديدي لابتكار لغة خاصة بصرية، حاول لعيبي اشتقاق أسلوب، يمتد من مدرسة جواد سليم وتعاليمها الفنية، والتي لاتخضع بالضرورة لنفس المقياس حول العلاقة بين الجسد وفضاء اللوحة. إذ أن مفاهيم جواد قائمة على إلغاء المنظور، وتحديد الأشكال البصرية عبر الخطوط القوية، بألوانها البراقة وعلى تسوية سطوحها وكتلتها بينما لايلغي لعيبي ذلك تماماً، بل يقدم رؤيته الفضائية بوضع شخوصه في أبعاد اللوحة المنظورية الغربية كالتعامل في تدرج الألوان، أي خلق العمق، والعناية بالتفاصيل وإبراز تكور الأشكال الإنسانية، أو مايحيط بها، متأثراً بشكل واضح بالمدارس الكلاسيكية العظمى، والأكاديمية الواقعية، كدافيد، وانجر، وديلاكروا، كوربيه، إضافة إلى رسامي الفن الحديث، والمعاصر فرنان ليجيه، وموديلياني، وبيكاسو وأخيراً الرسام بيترو، المتسمة لوحاته بضخامة الكتل البشرية، والإفراط الشديد بحجومها، إلا أنه بأسلوبيته الخاصة في تمثل الوجوه المنتقاة من الوجه السومري التقليدي يظهر إمكانيته في جماليات. تمكنه من تحديد ملامح الوجوه، والمبالغة في تشكيلها، كنعومة المفاصل للجسم ورشاقة الخط الخارجي، وانسيابيته، وامتلاء الأجساد؛ مع المحافظة على هدوء الألوان، وانسجامها، وعلى نغميتها الداخلية.

ورغم هذه التمثلات لعالم الصياغات البصرية للفن الغربي، فإن لعيبي يبقى منتمياً إلى جذره التأريخي، وأصالة الفن العربي ـ الإسلامي فإنه رفضاً لمنطق اللوحة الغربية

الواقعية يسطح الأشكال أحياناً، ويقوم بخداعنا بقلب منظورها، ويعيد تقويم عمق اللوحة بشخوصها المنوطة بصورة عمودية على الجدار، حيث نراها من الأعلى أمامنا كأنها سطح تحول إلى «زخرف» هندسي يدفعنا إلى تجاوز «الوهم البُصَري» في الإقليدية الهندسية، إن العالم ـ كما هو عند البرتي ـ نافذة «مفتوحة» من خلال اللوحة إلى تجاوز الوهم بحد ذاته أي إلى الحالة التي ينتفي بها الوهم البصري.

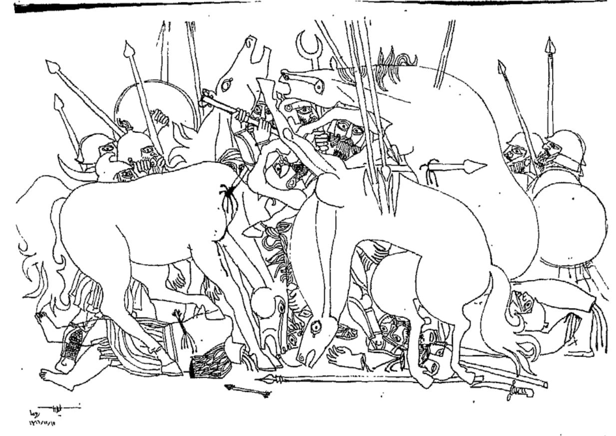
إنـه يحاول ابتكار ماحققه الفنان العربي ـ الإسلامي في تحويل عالمه إلى رؤية «خاصة» لاتتناسب مع النظام البصري المميز للفن الغـربي (الطول، العرض، العمق) كما عرفته كل مدارسه الفنية منذ عصر النهضة وانتهاء بمرحلة الفن الانطباعي في القرن التاسع عشر (كما عند سيزان وكل مدارس الرسم ماقبل الحرب العالمية الأولى).

إن يجـد صياغة للتعارض مابين الفن الغربي بأصوله الكلاسيكية والفن التقليدي العـربي قد بلغت عنـد لعيبي أوج غايتهـا. فالفن الغربي بمنظوره الخاص يقوم على الكتلة، والفـورم، والحجم، بينما الفن الشرقي ومن ضمنه الإسلامي يقوم على منظور آخـر، يتضـمن تحـوير الشكل الخارجي، وإزاحة ثقله، وإلغاء البعد الثالث أو المنظور الجوي، وقد حاول لعيبي من جهته إيجاد علاقة جديدة بين عناصر اللوحة تقوم على توزيع الأشكال بالتساوي، والابتعاد عن المركز محافظاً بدلك على مبدأ الانتشار، كما هو الأمر عند الواسطي في فن المنمنمات، وكما هو في الفن الغربي الحديث.

إن هذا الخط الذي مثله جواد سليم في أعماله (أولاد يلعبون) مثلاً قد استعاده فيما بعـد لعيبي إلا أنـه تجاوزه بإضافة دلالات جمالية جديدة تتماشى مع مفاهيم اللوحة الغربية، وجمالياتها مع المحافظة على أدراجها في الفض اء العراقي الخاص.

وعلى الـرغم من نظرتـه المعكـوسـة لمفهـوم اللوحة الغربية الأكاديمية كتسطيحه للأشكال، والإفراط في البنية المعمارية، والهندسية فإن فضاءه «للمكان» يتقارب مع الفن الـواقعي (كـالنسب وعـلاقـة الجسـد بالعنـاصر الأخرى)، إلا أنه يظل مخلصاً للعلاقة الطبولوجية للحوامل الإيقونية لرسوم الواسطي، فاللون يترمز، والضوء يتشتت، مع التخلص من الإيهـام الـذي يخلقـه البعـد الثـالث. وتتنـاسب رؤيتـه مع الابتكـارية المعيارية، والكسمولوجية للفنان العربي المسلم وللتصور الثيلوجي لشعوب وادي الرافدين. وذلك استمراراً لأعمال (الواسطي) و (جواد سليم) و(شاكر حسن آل السعيد) رغم التباينات النسبية فيما بينهما.

فالفضـاء الـذي ابتكره الرسام العراقي المعاصر، ومن ضمنهم لعيبي ، يتجاوز حدود المألوف، بالاختلاف والمغايرة، فلقد تخلص هؤلاء من ضيق اللوحة الواقعية، إلى تسـاميات، وتفـارقـات للوصـول إلى شفـافية المكان، وحضوره المتناغم، والحواري،



لعاشوراء

المنفتح، الواحد على الآخر للأشكال. فالمكان لديه متعدد الصور، ويؤلف منه الفنان مونتاجه الذي استقصاه من اللقطات الطولية، لمشاهد (صيد الأسود) كما عند الفنان الآشوري، أي يحقق اختراقية، بصرية، وزمنية، فتصبح «نقاط التلاشي» في المنظور الغربي، متعددة بذلك يمد بالموضوع برؤيته الشاملة، والتي عرفها الفنان الشرقي المسلم، والمسماة بـ «عين الصقر».

انفعالية الخط، وروح المأساة العراقية

لقد أبدى (العبيبي) اهتماماً بالخط، وخاصة في أعماله ورسومه التوضيحية (الحبرية)، ولم تكن تنفصل الإمكانيات الخطية عن التنفيذ لأعماله الزيتية، بل تتداخل، الواحدة بالأخرى، ويحاول أن يصل بالخط إلى أقصى درجاته الانفعالية، ونستطيع أن نرصد خطوطه بسهولة في أعماله الورقية، ونحدد بها أسلوبيته التي عرف بها، فلقد منحه الخط الرصد السريع والمباشر للحدث، أو الحالة، ويخيل إلي بأن التنوع في الخطوط، وإيقاعاتها الداخلية، واستجابته الحيوية والمرنة لكل عناصر الموضوع، وتدفقه يعطينا الشعور بالمتانة، وقوة التعبير، للطابع الخطي.

سواء كان «منحنياً، أو يتخذ شكلاً دائرياً، أو شبه دائري، أو ملتوياً». وعلى الرغم من اختفاء الخط كقوة نحدد بها طبيعة الأشياء، فإننا نحسُّ بوجوده، ونتابع مساره الداخلي.

وعلى العكس من أعماله الزيتية المتميزة بطابع الهدوء والتأمل، وبساطة قراءتها، فإن أعماله تتسم بعنف ردودها، وتأثيرها. . فغالباً مايقدم لنا حالات الجسد الإنساني، بوضعيات ذات مناخات سوداوية، وقاسية، تتركز على فكرة التعذيب، والموت، فعلى سبيل المثال نرى السلطة برموزها، سواء الواقعية أو الرمزية تتلذذ بالجثث، وبالرؤوس المقطّعة، وبأجساد تنزف. . حكام وسلاطين، وعسكرية دموية، تتدحرج أمامها، أوصال الأجسام التي تتدلى منها الشرايين على الأرض. أمام ذلك المشهد رجال باسلون يقاومون بإصرار، وجوه تحدق صارخة. لقد امتزج الخطاب السياسي، باليومي، والديني، نساء تصرخ تحت المزارات ملتفات بعباءاتهن السود، لقد بدأت الخطوط المتجاذبة، والرشيقة، المنطوية، والمتعرجة، تحدد الشكل بتناسق بين التفاصيل، وبجمالية تنميقة زخرفية، تنم على تحديد الضوابط بين الأجزاء، لتشكل مشهداً متفجراً، يوقف لحظة فعلها، ليفرد لنا شدة وقعها، وعنف ارتجاجاتها، وكثافة تأثيرها الدرامي.

لايشاء لعيبي أن يترك رموزه الإنسانية بدون أن يدخلها في حوار مكاني، وطبيعته الجغرافية، والأثنولوجية، فتعانق بتوافقية مع الموضوع المطروح. فإذا كان الهلال، والشمس رموز فناني الخمسينات (جواد سليم، وشاكر حسن آل السعيد) فإن لعيبي يستعير من حاجات الفرد اليومية، والأسطورية. كالملابس وأدوات الطعام، والشراب، وموتيفات من أشكال معمارية (الشناشيل، القباب، الأطواق، الأبواب القديمة، السجاد، الأرائك العشيمية) إنها عناصر ذات علاقة حجمية تتواشج في مشاعره، وتتأصل بينه وبين المكان بود، وشاعرية حضورها الجمالي.

لعبة الفضاء التصويري، واحتفاء «المكان»

ينسج لعيبي فضاءه الخاص من مخيلته، ويعكس برؤيته علاقات الواقع، ويعيد تشكيلها حسب مفهومه. ويتعمد بناء شخصياته بطريقة «مسرحية»، كما أنه يجعلنا نشعر باتساع آفاق العمل، خارج حدود الإطار، وهذا ماكان معروفاً في التصوير العربي - الفارسي - والبيزنطي، إنه يخلق إحساساً بصدمة الحدث، ويزيد من انفعالنا.

وفي أغلب أعماله الزيتية ذات الأحجام الكبيرة، نراه يجعل من «المكان» وفحواه، الهاجس، والكيان، والإشارة المميزة له. ويخلق جوّاً من الشعور باحتفائية المكان،

ومرجعية اجتماعية، وسياسية، تصل إلى حد (التوثيق)، إلا أن ذلك ليس بهذه السهولة، فرموزه الشخصية تعطي انطباعاً لملامح نفسية، وقيم أخلاقية، فنحس بوضوح درجة انتمائها، والوسط الذي تعيشه، ويحاول أن يتغلغل في الأنماط السلوكية المتعددة للشخصية «البغدادية». وتنقلنا إلى أجواء «البغدادي» وعاداته وحضوره اليومي، وقد أعيد إنجازها، كما تشهده في حياتها اليومية. ويصر على كشف دوافع الواقع، وليس «مشهده» المتكرر. ويخرج بنا من لااكترائية الرسام العراقي غالباً، لمشاهد الواقع على العكس فنرى لعيبي يقدم لنا رؤية مغايرة، وغير مألوفة، لطمأنينة البغدادي الراسخة في المخيلة الشعبية، قد تحركت لديه إلى مايشبه الرفض، وقلب المنطق السائد، إلى التمرد، وفضح وتجريح علاقات «المكان» المألوف، وإلى دعوتنا إلى التساؤل.

لقد عرفنا النمط الأسلوبي لدى لعيبي ، وطريقة معالجته عناصر اللوحة، أو تركيب بنائها الداخلي، ومايتميز به هذا الأسلوب من إنشاء واقعي متين، و «المبالغة» في التشكيل المتعلق بالمساحة والكتلة، وعلاقتها الواحدة بالأخرى. وعلى الرغم من واقعية الفنان التي تتجاوز الحدود المألوفة فإنه بفضل ثقافته الشرقية، يضفي على أعماله هندسته الروحية الزاخرة بالإيقاعات الزخرفية، والتنميقات اللونية، ونوابض الضوء الداخلية التي تشع، اللونية تتسرب برقتها، وتنبعث من جوانب وثنايا الأشكال، ورموز الواقع ذات المقترب التجريدي ـ الإسلامي يحولها، باختصارها إلى مايشبه أكسدة الدادة وإزالة ثقلها. ويريد لعيبي من وارء هذا أن يضفي على أعماله الطابع الموسيقي الشعبي، والغنائي كما في أنغام المقام العراقي بروحه ونبراته «الصوفية» التي تنعكس على حركة العين المتنقلة برفق بطيء تجعلنا نشعر بنشوة التجليات والحبور عبر سبرنا لمسارها.

خلاصة

إن التنوع في التقنيات والأسلوبيات المتبعة عند الفنان تجعل من الصعب علينا تلخيص المنهج الذي يطرقه. وتلخيص الحوامل المادية البصرية في أعماله، ومنحى الفرادة لديه، إذ أنه شكل محطة تلاقٍ لتجارب عدة، انتقائية صهرها الفنان في بوتقة واحدة، وهذا الحكم النقدي، يناط به ويعول عليه في النظر إلى العمل الفني، قبل أي اعتبار للسيرة الخاصة للفنان وتفاصيلها.

فنظام الفنان الشكلاني ذو صيغة هندسية تتسم بالتحكم في الإنشاء التصويري، وإعادة تركيب علاقات الواقع الموضوعي في العملية الفنية نفسها، ضمن مايمكن تسميته تجميع الوحدات الإشارية، والرموز «الدلالية، والمجازية» في هيكلية أيقونية شرقية، ومن

قبلها على توزيع عناصرها خارج خط الأرض كما عرفتها الجداريات السومرية والآشورية، وكذلك كما عرفها.الإنشاء التصويري المعاصر.

أما لجهة أسلوبيته التقنية فإنها مستمدة في أصولها من مدارس الرسم الحديث (التكعيبية البنائية، والتي وصلت في بدايات هذا القرن بالتخلي عن الفضاء القياسي إلى الفضاء المعياري، ومن الحساب الكمي إلى النوعي، إلى الذروة، وبذلك يقترب الفنان من الرؤية مابعد ـ المادية التي نجدها في الفلسفات الحديثة القائمة على تقييم الذات الإنسانية وعلاقتها بالموضوع، كما هو الأمر عند أعمال (فان كوخ، وكاندنسكي، ومالفيتش)، ناهيك عن موثرات الفنان شاكر حسن آل السعيد الذي تأثر بها لعيبي بشكل عام.

إن إنسان لعيبي كخلاصة تعبيرية، وتراجيدية يتخذ منه كموقف ليس حيادياً، أو نمطياً، إنه مثل كلكامش أعيدت ولادته من جديد ليحمل في أعماقه التحدي، والصراع ضد القهر، إنها أسطورة العراقي الخارق للزمن، والتاريخ، والماثل الآن أمامنا يحمل **قبسات من الإله تموز ليفجر فينا ينابيع الحرية على قلبه المفعم بالأسى..**



قيامة اذار ١٩٩١

فيصل لعيبي ـ ملف خاص

ندوة

تجربة فيصل لعيبي

في الخريف الماضي اقيم بلندن معرض شخصي للفنان فيصل لعيبي بعنوان «كان يا ما كان». وعلى هامش المعرض عقدت ندوة تناول حوارها الحيوي اشكالية جوهرية، هي العلاقة بين المحلية والعالمية، في الفن والادب، وذلك من خلال تجربة فيصل تولى الفنان الشاعر صادق الصائغ ادارة الندوة، وشارك فيها بقسط كبير فيصل نفسه مع الفنان ضياء العزاوي والشاعر الناقد بلند الحيدري والباحث الفنان د. محمد صادق رحيم. وساهم عدد من المحاضرين بملاحظات ومداخلات لم يلتقط المسجِّل اغلبها بوضوح كاف، لسوء الحظ، فضاعت على القارىء فائدتها.

ويلاحظ القارىء اننا لم نقم إلا بنقل المفرادت والصيغ الى الفصحى من الدارجة، التي غلبت على مساهمة الفنان فيصل بوجه خاص، فتركنا الاخطاء النحوية الكثيرة على حالها. وليعذرنا المشاركون لحذف بعض الامثلة التي وردت في مداخلاتهم لعدم وضوح الاسماء. وكان من الافضل لهم، ولنا بالطبع، لو جرى تفريغ الشريط وتحريره من قبل احد الحاضرين ليستطيع تلافي ثغرات التسجيل والصياغات، آملين العمل بذلك في الندوات التي يعقدها المثقفون المغتربون حول شتى المحاور.

صادق: اشعر بحرج كمقدِّم لهذه الندوة، وذلك لاني محاط بأسماء مؤسِّسة، ابداعياً ونقدياً، في مسيرة الفن التشكيلي العراقي. من ناحية اخرى، اعتقد ان حضور الاسماء الكبيرة سيساعد على فتح بوابات رؤيا للفن العراقي من موقع مقر ومن منظور فيه اجتهادات وجدة.

مسيرة التشكيل العراقي، كما أتصور، معترف بها على مستوى عربي واسع. ومساهمات

بعض الفنانين العراقيين مسجلة تأريخياً. . واظن انها تجاوزت حدود العراق ووصلت الى مديات بعيدة. أهم شيء يتيح هذا المعرض لنا هو ان ينقلنا الى آفاق التجديد، أو الى خانة الجيل الثاني من الفنانين العراقيين التشكيليين. وبيننا من أسس في هذا المضمار. اعتقد ان غنى الموضوع سيعتمد على الشراكة الجماعية. واغلب الحاضرين هنا لهم هذا الحجم من العلاقة بالفن التشكيلي.

اظن من المستحسن ان ينضم الينا الفنان فيصل لعيبي، وان نبتديء بفيصل باعتباره يوحي بالمبادرة والمسبِّب لهذا التجمع. فلنستمع اليه عن هذا المعرض وعن رؤيته للمادة التي قدمها.

فيصل: المعرض جهد أو محاولة تصب في التيار المحلي الذي تشتغل عليه مجموعة من الفنانين العراقيين في الوطن وخارجه لتأسيس منحى تشكيلي مختلف عما حدث في الفن العراقي بعد الحرب العالمية الثانية، بعد عودة المدرسين الذين تدربوا على ايدي اساتذة وتعلموا فن الرسم أو فن الحامل أو الاستديو. وهو يعتمد عادة بشكل خاص على تقاليد المدرسة الاوربية. رغم أن التيار الاول للرواد مُشبع بأفكار الغرب، فيما يتعلق بالفن، ظهرت بوادر في هذا التيار، هذا الجيل، على رأسه جواد سليم، في البحث عن صيغة جديدة تضع الفنان العراقي المعاصر بعلاقة غير تبعية بين ما يجري في الفن في الغرب وما يجري في العراق من تطورات فنية أو فكرية أو ثقافية.

انا من جيل الفنانين الذين ارسوا، كما تفضل الاخ صادق، قواعد وأسس وتصورات يمكن اعتبارها مبادىء اولية لانطلاقة نحو تشكيل هذا التيار المتبلور بأمثال شاكر حسن، فايق حسن، كاظم حيدر، ومعنا ضياء وهو من المساهمين في هذا الاتجاه الذي قدم لوحات لم تعد يحصرها سياج العراق وإنما تعدت الى بلدان عربية اخرى،كذلك جماعة البعد الواحد، وشاكر حسن على رأسهم، جميل حمودي في بداياته. فمجموعة من المحاولات الناجحة والمتوسطة كانت تنحو هذا المنحى، وتحاول ان تبلور أو تغربل ما حصل عليه الفنان العراقي يومذاك من معلومات وثقافة وتجارب، وتكثّف الامكانيات باتجاه محلي. لا اريد ان اطيل عليكم. لكن عندي ملاحظات:

اعتقد ان منطقتنا تعيش الآن هيمنة فنية مثلما كانت خاضعة لهيمنة الفن الهليني عقب غزو الاسكندر للمنطقة، فسادت الاتجاهات الاغريقية من سوريا الى البحرين، وربما الهند ايضاً. ويمكن ملاحظة تلك الهيمنة في متاحف المنطقة. لذلك لم تنتج شيء يميزها، وربما في هذا الرأي بعض التطرف. فالتأثير الاغريقي شوه النتاجات فصارت الالهة بوذا وبعل وهبل شبيهة لآلهة اليونان. أما الآن فالهيمنة السائدة في المنطقة هي للثقافة الاوربية وللاميركية بوجه خاص وهي تؤثر على فنوننا.

اتصور اننا حالياً في عصر الشعوب، عصر محاولاتها للتعبير عن نفسها بكل الامكانيات، ثقافياً واقتصادياً وسياسياً. النهضة العربية التي انطلقت قبل اكثر من قرن كانت في الجانب الثقافي تنحو هذا المنحى. لكن العامل الثقافي، كما تعرفون، بحاجة الى زمن لتكثيف وتركيز وبلورة وغربلة ايضاً، حتى يأخذ مداه الحقيقي فتتبلور الشخصية الحقيقية الخاصة بهذا البلد أو ذاك وهذه المنطقة أو تلك.

من جانبي انا احلم أو اتمنى ان اعمل لوحة تشبه اللوحة الهندية، لكنها عراقية طبعاً، أو تشبه اللوحة الايرانية أو اللوحة المكسيكية أو لوحة امريكا اللاتينية، مع الاستفادة، طبعاً، مما يجري الآن في اوربا واسريكا وطوكيو من تطورات في التكنولوجيا لصالح الفن. همومي ضيقة صغيرة، احب اصير رسام مثل داخل حسن في الاغنية مثل حضيري ابو عزيز أو يوسف عمر أو القبنجي ، فأبلغ بفني ما بلغوه بفنهم احب اصير بهذا المستوى احب ارسم لوحة تشبه قصيدة عربية أو معزوفة على العود أو القانون-احس بهذه الروح التي تشغلني الآن كرسام واحاول ان ابلورها في رسومي. لا ادعي الآن النجاح، لكنني اشتغل بهذا الاتجاه. فهل هذه هي الطريقة الصحيحة؟ التجارب القادمة، ربما الموجودة حالياً، ربما النقاد والمؤرخين أقدر للحكم على ذلك من الرسام نفسه.. عندي بعض الافكار حول اللوحة: الزمان والمكان في اللوحة الشرقية، الرجل في اللوحة الشرقية، المرأة في اللوحة الشرقية، والحركة، يعني هذه الاشياء التي يمكن ان نتفاهم حولها بشكل رؤوس أقلام واشكر الحاضرين ولاسيما الفنانين.

صادق: واضح اخلاص فيصل للغنائية، اعتقد نجدها في شغله وفي شخصيته ايضاً، واعجابه بالاسماء التي ذكرها في الغناء. لكن لا استطيع ان اتصور كيف يمكن المقارنة بين فنين يصعب اختراق بعضهم البعض سوى ان العنصر الغنائي يمكن ان يكون في التصوير. وايضاً فكرة الغناء والاسماء تنقلنا الى الواقع المشخص. المغني مخلص لتراثه لا يستطيع كسر هذا التراث، لا يستطيع ان يتجاوز ما ورثه عن الماضي. لكن هل فيصل يشتغل بهذه الحدود، هل يشتغل ضمن الاطار الواقعي في منظور الرسم ومن داخل المنظور التشكيلي؟ هذا سؤال اعتقد ان ضياء العزاوي تحدث عنه في مقدمة (الكَلري). واعتقد ان هناك نقاشات جرت خارج المعرض حول هذا الموضوع. الى أي مدى فيصل موجود داخل الواقعية، والى أي حد كسر هذه الواقعية؟ واين؟ ضياء العزاوي فليتفضل.

ضياء: اشار الاخ فيصل في بدء كلمته حول المحلية. ثم ذكر رغبته ان يكون صوت مثل القبنجي أو حضيري أبو عزيز. وما نجده في اللوحات يعكس بعض هذا الاهتمام. بعد مرور كل هذه السنوات على صدور بيان «جماعة بغداد» الذي كان يدعو الى تأسيس «فن عراقي» وكان ذلك في بداية الخمسينات ونحن الآن في التسعينات ما عاد حضيري النموذج الفعلي لكسر طوق التجربة العراقية الغنية بتفاصيل كثيرة حتى تكون عالمية والا فعربية. لذلك ارى ان اللوحات المعروضة الآن مثل رواية من اجمل الروايات العراقية مكتوبة باللهجة العراقية، المحلية البغدادية بشكل اساس، مما جعلها نص جميل في حدود العراق فقط. فلم يكتب عن هذا النص أي ناقد في الوطن العربي. ففيها بعض الكلمات والنصوص الغير مفهومة عن بعض النقاد. خطورة التجربة وما اثاره فيصل هي امكانية انغلاق هذه التجربة في حدود العراق. وهذا ليس في صالح تجربة فيصل فقط وإنما تجربة الفن العراقي، وتجربة الفن العراقي بما فيها من تفاصيل اكبر من ان تبقى في حدود العراق. ما اسسه جواد سليم كان يسمح لجواد سليم ان يكون عربي اذا ما كان اكثر من عربي. لكن لا يسمح لفائق حسن ان يكون غير عراقي. هذه كانت احدى النقاط.

النقطة الثانية تتعلق بالواقعية، هذه النوع من الواقعية بالنسبة للتجربة العراقية عمل جديد جداً. نجد في اعمال شاكر حسن في الخمسينات انه حاول تجسيد بعض الحياة اليومية بالاعتماد على الفولكلور بشكل اساسي وعلى بناء التكوينات بشكل زخرفي، أو عند جواد سليم بتعامله مع الحياة اليومية. لكليهما كانت الاهمية هي للوحة أو للاسلوب أكثر من الموضوع. في تجربة فيصل نجد الموضوع اساسي، لا يمكن فصل الموضوع عن الاسلوب الذي اوجده،في بعض الاحيان نجد شيء من السهولة في نقل هذا الواقع. انا شخصياً اجد مثلاً، رسم الشرطي أو الجندي الاعور هذا عمل سلبي لانه يوحي بمحاولة فيصل لنقل الواقع كما هو وهذا غير ضروري،اذاكان الشخص غير اعور لا تتغير قيمة اللوحة كعمل فني. من هذا المنطلق اجد ان قيمة التجربة الآن بقدرتها على تطوير هذه المفردات المستعملة التي هي مفرادت عراقية (في بعض الاحيان بغدادية بحتة) الى مفردات عربية بحيث يمكن للمصري أو التونسي ان يقبلها في بيته ليس كفولكلور بقدر ما هو عمل فني اساسي.

صادق: اشكـالات الفولكلور ومدى قدرته ان يتسع ليصبح فناً شاملاً هي موضع اشكال عالمي تقريباً. من الافكار الاولية في النظرة الى الفولكلور أن الناس العاديين ترى في الفولكلور شيء من المطابقة مع تخيلهم ومع سعة ادراكهم ومع تمتعهم بالفولكلور نفسه، كترجمة مباشرة لاحاسيسهم. والمثقف ايضاً، عندما يرى الفولكلور يراه من موقع فوقي. فهو، ادراكياً، ومعرفياً وجمالياً، يعتبر هذا الشيء دون مستواه فيستسهله. هذا تراه في موقفنا ازاء الفولكلور دائماً، حتى في فنون اخرى، في المسرح أو الشخصيات الشعبية. فنعتقد ان معارف هؤلاء الناس اقل بكثير منا، وهذا يعطينا بعض الراحة النفسية. وهو، في الحقيقة، يضعك في موقع الحاكم. هذه النقطة ربما تكون موجودة في اشغال فيصل. نحن نريد ان نعرف ما هي الاضافة، أو هل هناك اصلاً اضافة الى هذه الفكرة الفولكلورية؟ نحن نعرض الفولكلور كما اقتبسناه، أو كما رأيناه، وكما تعرفنا عليه من خلال حياتنا الشخصية؟ الاستاذ الشاعر بلند الحيدري ربما يلقي ضوءاً جديداً على هذه الناحية.

بلند: ربما هي المرة الاولى التي اختلف فيها مع صديقي الفنان الكبير ضياء العزاوي حول الزاوية التي ننظر منها إلى أعمال فيصل. قد يحق لكل فنان أن يتخذ الزاوية التي يريد أن يرى عمل فنانين آخرين من خلالها. وهنا نقع، بلا شك، إلى إيجابيات كثيرة وإلى سلبيات كثيرة. انا أعتقد المحلية لاتمنع العالمية إطلاقاً، والموضوع المحلي جزء من العمل الفني الكلي، وليس كل العمل، ثم إن فيصل لم يكن يحمل هذه الاكاديمية المألوفة. ما هي الأكاديمية، هل لأن الشكل واضح؟ أنا ارى فنه فن رمزي. هذا الشرطي الذي هو رمز للدولة هو هذه الدولة التي لا ترى إلا نصف الحقائق. قد يكون هذا الرجل الذي يجلس هناك، وهناك المرأة قد تكون جزءاً من أحلام هذا الرجل، هناك وعي بالذات في أعماله،ترى كل الوجوه موجهة نحوه، كما لو أن المصور يقول سأصورك. فتجد الشخص وقد أبرز نفسه بشكل تلقائي. وهي صفة من صفات ربما الإنسان العراقي ككل. هناك وعي بالذات في أعماله. فأنا اعتقد أنه وظّف هذه المحلية توظيفاً عالمياً وبوعي رمزي مهم جداً.

الجانب الآخر، إن استخدام فيصل للخطوط المنحنية والخطوط التي تنحدر بشكل عمودي، هذا الاستعمال أعطى وأكسب فنه الكثير من العاطفية. الشعور بالخطوط المنحنية يوحي بالعواطف أكثر من الخطوط المستقيمة، أعتقد أن هناك مميزات ثلاثة موجودة في أعماله. أولاً هذه المحلية. والمحلية تغور به إلى بعد تاريخي، أيضاً إلى فنون وادي الرافدين القديمة، تعود به إلى أشكال تعبير محلية. وهنا بلا شك، الغربة قد أفسدت أعمال فيصل. هذا الحنين إلى الوطن أشار إليه أخي الفنان ضياء في مقدمته لأعماله. إذن هو رجل لم يكذب على نفسه. عبّر عن حنينه، وعبر عن مقومات فنون بلاده، وعبر أيضاً عن أبعاد رمزية في أعماله.

ذكر ضياء فائق حسن وجواد سليم. هذان النقيضان عاشا معاً وتجاورا في غرف الدراسة معاً، وكان للفن العراقي في اجتماعهما واختلافهما الكثير مما انعكس على طلبتهما إلى يومنا هذا وإلى هذا المعرض أيضاً. فائق حسن كان يبحث دائماً عن الأشياء التي نجحت في التأريخ: القوة الأدائية، الألوان، وهو ملوِّن هائل، القدرة على إدراك خصائص المجتمع العراقي والتعبير عنها. أما جواد فكان يبحث عن الجديد الذي يمكن أن يضيفه. فائق حسن متمكن جداً، جواد لا يضاهيه في تمكنه، راح يبحث عن الجديد، وراح يبحث في الشعب أيضاً، يوما ما اتذكر جواد، قبل فنه الإسلامي وبداياته، كان يذهب إلى دور البغايا. وهناك معرض اقيم، كما يتذكر د. مكيّة، كان يرسم «بغايا في الصيف»، «بغايا في الانتظار»، صور إثارت المجتمع يومذاك، لأنه كان يبحث عن حقيقة المجتمع رغم أنه قد جاء من بيئة غير شعبية، ويوم أن وقع إلى الفنون الأوربية أيضاً حاول أن يقتبس برؤية الأبداع وليس الاقتباس الجامد، ويوم أن وقع بعد ذلك إلى مدرسة بغداد، والواسطي بالذات، حاول أن يدرك كيف أن يواصل ما بين التراث وما بين العصر في الموضوع والأسلوب. الموضوع محلي، الرؤية عالمية، هكذا تطور جواد وأثّر، وخلّف نزعة عميقة في عدد من الفنانين الذين أثارهم جواد للبحث عن الجديد من خلال التراث ومن خلال العصر، منهم شاكر حسن، منهم محمود صبري، ومنهم ضياء العزاوي. كل هؤلاء كانوا يحاولون أن ينظروا بأعمالهم أو بتصريحاتهم أو دراساتهم عن بعد جديد في تعميق العلاقة التي هي في أساس الابداع حيث يكون هناك واقع محلي، واقع تراثي، وواقع عصري، فأقول هذا الفنان من العراق، من العصر الفلاني، ومن التراث الذي انعكس على زخرفيات فيصل التراثية الإسلامية التي دخلت أعماله، إذن أنا اعتقد أن هذا التواصل مهم جداً في تأريخ الحركة بلا شك.

أنا اعتقد، أهم انعطاف في المسيرة الحديثة في الفن العراقي، وبشكل متميز عن باقي البلدان، كان استخدام الحرف، الحرف استخدم حتى عند الفنانين الهنود، الحرف العربى، واستخدم قبل ذلك من الفنانين الاوربيين، واستخدم في المغرب بكثرة، وايضاً من الجزائريين القرشي وغير القرشي، ولكن لم يستطع احد ان يؤدي للحرف بعده التشكيلي العميق كما اداه الفنانون العراقيون، وبخاصة الفنان شاكر حسن. لكن تنظيره للموضوع كان أكثر مما حقق فعلياً. لاني ادرك تنظيراته من خلال عمله. ضياء العزاوي استخدم الحرف بثلاثة ابعاد، البعد في الحرف ذاته، ثم في الكلمة، ثم في النصوص الشعرية أو الادبية. وطبعاً في المرحلة الثالثة، أي

النصوص، وضعنا ضياء امام تقييم جديد للرؤية الفنية، يقول غارودي عن بيكاسو انه ألغى اثني عشر قرناً من تأريخ الرسم عندما رسم الانسان بأربعة انوف وثلاث آذان وخمسة رؤوس، لانه لم يرسم، كما فعل الفنانون سابقاً، الشكل والفنان من واقعه. فأنا عندما ارسم من هنا ارسم انا مكاني ولم ارسم الشخص الذي امامي بالذات. بيكاسو حاول ان يدور ويعطي ابعاد جديدة لمفهوم الانسان، ليس المسافة ما بين الفنان والموضوع. وضياء العزاوي اوصلنا، من خلال القراءة النصية، عندما اقترب من النص واستوحى ابعاد القصيدة لامرىء القيس أو للجواهري، واعود ثانية فأقرأها، أي اقرأها حرفياً وشعرياً وبايحاءات شعرية، ثم اعود فابتعد عنها، فأقرأها بأبعاد تشكيلية جديدة. هذه المراحل في الحقيقة كان الفنانون العراقيون سباقين الى ابداعات مهمة، وكما كانوا يوم ان دخل الاسلام الى العراق، كانوا من اذكى الفنانين الذين عرفوا كيف يوظفوا ما وصلهم من الساسانية من الزخارف الساسانية وحتى الهندية والصينية بأبعاد اسلامية جديدة، فالروح الابداعية موجودة وتحية مني الى الاخ فيصل في معرضه هذا.

ضياء: مقولة المحلية والعالمية معروفة بالتأكيد، لكن أنا ما اعنيه بالمحلية هو انغلاق اللوحة على حدود وعوامل خاصة جداً. انا شخصياً، اذا واحد يقرأ النص الوارد في رواية فؤاد التكرلي الذي يستخدم اللهجة البغدادية، بعض الاحيان تجد شخص من الموصل لا يفهمه بشكل كامل. محاولة ايجاد تطوير المحلية الى صيغة عالمية هي ليس الموضوع انما الاسلوب. ما عمله جواد كان ينحاز للاسلوب اكثر ما ينحاز للموضوع. يعني عنده لوحة مشهورة اسمها البستاني، وعنده «موسيقيون في الشارع»، عنده اعمال كثيرة دائماً فيها اولاً الاسلوب وثانياً الموضوع، انا اجد في اعمال فيصل الموضوع والاسلوب مرتبطين. قد يخلق في حالة استمرار التجربة، كما هي، نوع من الانغلاق ليس لصالح هذا النوع من البحث. الذي عمل بحث جديد بالنسبة للتجربة العراقية. التجربة العربية هناك واحد من مصر يرسم بنفس التركيبة لكن بصيغة كاريكاتيرية. هذه التجربة بها من الجدّة لصياغة الحياة اليومية للوحة. انا شخصياً افضل ان تكون هذه اللوحة بها من الابعاد العربية اكثر منها الابعاد العراقية، بالتالي هو الانحياز للاسلوب اكثر من الموضوع. ليس ضروري ان ترسم المقهى بكل تفاصيلها، ليس ضروري ان تمثل السلطة بالاعور. ممكن السلطة ان تعمل كل شيء بعينين مفتوحتين، هذا نص ادبي. انا اتكلم عن اشياء ذات علاقة بالبصر. الرسم هو مادة بصرية اولاً.

صادق: هي اشكالية فعلاً. انا في الواقع أرى أن ليس هناك امكانية لاحلال شيء مكان شيء، الاعور أو غير الاعور. باعتقادي ان الاسلوب وبمقدار الانفتاحات أو البوابات التي تنقل المشاهد الى خيال آخر غير الواقع لا بد يحصل في الواقع ثلم أو كسر في مكان صغير على الاقل. فيتغير المشهد ويصبح هذا المشهد ملك المشاهد العادي، وليست حدوده هي الحدود المرئية التي تراها العين، إنما عوعالم آخر ينقلك اليه الرسام، ويجعلك تتبعه بدلاً من تكون انت وهو في مكان بمستوى واحد.

اليوم بالصدفة وقع بين يديّ كتاب لرسام بريطاني هو أيضاً يرسم الواقع، لكن لم اشاهد في حياتي قدرة على تفسير أو تفجير هذا الواقع أو حدوده الاعتيادية ونقلنا الى ابعاد اخرى تماماً غير الحلم والرؤيا المركبة، عند ذاك يختفي المشهد الواقعي أمامك ويصبح هناك عالم متكامل، ومناخ متكامل انت ضيف عليه ولست تملكه. أي، لا تتذكر بغداد أو مقاهي أو شيء من هذا القبيل انما تتذكر عوامل مضافة ليست بغداد أو المقهى إلا حجة لتفجير خيال غني بهذا الصدد. الدكتور محمد صادق الرحيم هو زميل دراسة للرسام فيصل لعيبي، وايضاً على مستوى عام متتبع لمسيرة العراق التشكيلي وايضاً هو مختص باعتباره دكتور اطروحته عن تأريخ الفن التشكيلي. عنده محاولات في النظر الى اعمال فيصل. واعتقد استمع الى تعليقات متناقضة يستطيع ان يؤسس عليها أو يبتدىء كما هو من النقطة التي يحب هو ان يطرحها.

د. رحيم: الندوة المقصود فيها ان تكون مفتوحة، ان يكون النقاش يبتدىء من المستمعين. لذلك ما درجت اسماءنا. ولكن شئنا أم أبينا، اصبحنا المتكلمين الاوليين. زملائي، في هذه الجلسة دخلوا في حيثيات أو تفاصيل اعمال فيصل والفن المحلي العراقي.. الخ. اعتقد ان دوري هو ان اعطي كلمة تحمل طابع آخر لكي اغني النقاش الذي احب ان تبدأوه انتم معنا. الفنانون التشكيليون الرسامون في عبور، في مسيرة من الواحد الى المجموع، عابرين جسراً نقف وحيدين في جهة وآخرين في الجهة الاخرى. كل واحد منا، كباقي الناس، لا نختلف اطلاقاً عنهم في مسيرة نحو الآخرين. الجسر هذا هو الفن بالنسبة للاختصاصات الاخرى لو اخذنا كأس من الماء من بحيرة، كأس الماء فيه مميزات لها وزن، كثافة وشكل، عندما نسكب هذا الكأس في البحيرة لايزال هذا الكأس يحمل نفس المميزات ونفس الوزن وما فيه. هذا الكأس من الماء موجود في تلك البحيرة، فهل يستطيع احد ان يجد هذا الكأس من الماء في تلك البحيرة؟ هي وصلت الى مكانها فأصبحت جزء من الأشياء الأخرى.

هذه هي مسيرتنا نحو المجموع عبر جسر هو الفن. في بحثنا عن الحقيقة، كلنا نبحث عن الحقيقة، كلنا باحثون عن موضع قدم عن اللوحة النموذجية، اللوحة العظيمة، الامنية، الصدق الله، نبحث في افكارنا عن هذا التكامل، والحقيقة المطلقة، الحقيقة المطلقة أو التكامل باعتباره شيء غير مادي غير ملموس فيزيائياً هو موجود في كل مكان. عند الوصول له سوف نحدده ونضع له مكان. وهو يفقد صفته اللامادية. اذن يُطرح سؤال هنا: ما هو الغرض من السعي نحو الحقيقة؟ وما أريد انا ان اصل له من هذا الكلام: ما هو الغرض من السعي نحو الحقيقة أو نحو التكامل في اعمالنا كفنانين تشكيليين؟ تولستوي الكاتب الروسي العظيم عندما بلغ سن (٥٥) رأى في حلمه ملك الموت يدعوه. صحا من النوم فتصور هذه هي النهاية. أي انه الآن يجب ان يجد طريقة الى الموت. حاول لمدة ثلاث سنوات ان ينتحر. وفي لحظة انتحارية جاءت الفكرة في ذهنه وقال: هذا هو معنى ان افعل؟ ان معرفة الحقيقة، ان معرفة الله، والاستمرار في الحياة هما شيء واحد. ان معرفة الشيء هو البحث عنه. عملية البحث عن الحقيقة هي الحقيقة التي يحتاجها الفنان، أي المسيرة نحو الحقيقة اشبهها بشخص راكب بمنطاد محمل بأثقال كلما يلقي من هذه

الاثقال كما يرتفع اكثر. نحن الفنانين محملين بأثقال من هذه الاثقال. يجب ان نتخلص منها اولاً جهد الامكان. انانيتنا، نبعض الاشياء التي يجب ان نتخلص منها التصاقنا بالاشياء، احتواؤنا للاشياء، امتلاكنا للاشياء يجب ان نتخلص منها. من هذه الاشياء التي، كما اعتقد، يمكن ان اضعها في خانة احتواء الاشياء، هي محاولة جعل المحلية هدف في العمل الفني وليس وسيلة لاجل البحث ولاجل التطور. هذا هو من معوقاتنا. ليس فقط المحلية الاسلوبية، محاولة البحث عن اسلوب، يعني كل فنان يتصور انه يجب انه يكون عنده اسلوب يميزه عن الفنانين الباقين، هذه واحدة من الاشياء التي لا يجب ان تكون الهدف انما يجب ان تكون الوسيلة. وعدا هذا، مسيرتنا، مثل ما قلت، هي بحث وتقصي.وأي عائق في بحثنا وتقصينا نحو الحقيقة نحو التكامل في الفن هو ضار بالفن.

صادق: بودي ان نسمع من فيصل. الافكار التي طرحت هنا كثيرة واتمنى ان اسمع منه، كيف هو يفكر ويرى ويتفاعل حول قدرة محليته أو رغبته أو محاولته العريضة داخل مساحة الفن التشكيلي العراقي في معالجة موضوعة المحلية؟ كيف يرى الحدود التي وصلها وهل تجاوز أم لم يتجاوز؟

فيصل: الآراء التي طرحت تخص اصحابها وفيها ما يشير للاعتزاز الذي افرح له ارتاح له، وفيها ما يجعلني اعيد النظر في بعض الاشياء التي لم تكن موجودة في اعمالي. مختصر مفيد: ما أسعى اليه هو بكل بساطة ان اكون رسام عراقي وفنان عراقي ثم اصنف التصنيفات الاخرى التي كما قال الاخ ضياء المفضل ان تكون عربية، أي اوسع، وهذه الحقيقة تتعلق بطبيعة مجتمعاتنا المتفرقة المبتعدة. لو كانت اللوحة مثلاً سهلة التنقل من العراق الى تونس الى لبنان الى سورية بدون العقبات التي نشاهدها حالياً كناس من هذه البلدان، لأمكن في تونس ان يرتاح المشاهد لشكلها.وهذه الالوان والصورة، الموضوع، في المخيلة ربما موجودة في تونس في مصر،كما قال الاخ محمد احياناً الواحد يفرض نفسه، يفرض المحلية على نفسه بحيث تصير قيد على فنه على ذاته. انا في الحقيقة لا اشعر بذلك وعندما احس ان هذه المحلية تقتلني، بالتأكيد اجد طريقة اخرى أو تعبير بشكل آخر. مجموعة الافكار التي تنبع من محلية الفن يجب ان يقابلها مرادف آخر اسمه عالمية الفن، أنا أتساءل: ما هي مواصفات اللوحة العالمية؟ كيف تقدر ان تقول هذه لوحة عالمية، وهذه غير عالمية؟ نفس الاشكالية تعيشها اللوحة المحلية. العالمية هي هيمنة ثقافة معينة في عصر معين على منطقة معينة تخلق ربما تيار أو اسلوب أو حركة تعم المنطقة التي هيمنت عليها. مثلاً جميل حمودي يقول حروفي سريالية.لو تقارنه بالسرياليين حتى لا تجد له علاقة بهم، لو تقارنه بالتصور أو التخيل الموجود عند السرياليين. ربما لو الاخ فاضل عباس هادي يمكن ان يفيدنا في هذا الشيء. جميل حمودي تصوره بسيط جداً ساذج احياناً.لا علاقة له بالسريالية. فالسريالية اساساً جاءت للعراق بهذه الطريقة. أو مثلاً عادل ناجي، احد الفنانين من جيل الرواد الاوائل من جماعة فائق حسن يقول انا سريالي.يرسم مثلاً نار وجنة ويخلطهما ويتصور هذه هي السريالية. هذا التيار لما يعم وينتشر، مثلاً في مصر، لما يعمّ وينتشر في منطقة معينة لا يحمل

بالضرورة الصفة الشمولية المطلقة. إنما توجد تأثيرات من ناس درسوا في اماكن،تأثروا في اماكن، اكتسبوا معلومات معينة وحملوها معهم مثلما يجلبون أي شيء أي سلعة أي بضاعة، لان العمل الفني ايضاً سلعة يمكن ان تنتقل من مكان الى مكان. العاجيات الآشورية التي فيها تأثيرات مصر. أنا شخصياً كعراقي لا احبها. انا اعبر عن احساسي الخاص بلا تعصب ولا انغلاق، لا احس بها عراقية،احس فيها (نزاكة) المصري وجماليته وخفة روحه. أحسها مصرية. حتى مونااليزة نمرود (اذا تتذكرون) مبتسمة ابتسامة فرعونية جميلة ليست لها علاقة بالنمروديين،الآشوريين،الناس القساة. ما ابحث عنه هو ان تعطي روح للوحتك، روحك انت، تخصك انت، فتكون لها شخصية (كاركتر) خاصة بها. المحلية لا تعني المحلية بما يعني(العگال والجفيّة والنعال والنرگيلة) المحلية التي احسها انا هي روح تسري في العمل، في مشيتك في (شَمرتك) في كلامك، في نقلاتك. زوجتي الجزائرية اخذتها الى المتحف البريطاني.شاهدت الآشوريين فقالت انتم منذ ذلك الوقت قساة، يعني صدام حسين ممارساته غير جديدة عندكم.رأت الرؤوس مقطوعة والجثث معلقة والبطن مبقورة، وشخص جالس يشرب وفوقه رأس معلق،كل هذه تشكل (كاركتر).البحث عن اسلوب يعني البحث عن قيد، بالاسلوب يطبع نفسه في قفص. المحلية، كما اعتقد، هي تلقائية، شيء يخرج منك انت. ليس فيه ذلك القسر.طبعاً فيه قصدية لفنان يبحث. بيكاسو كل اعماله وابحاثه جعلتني اعتبره اسباني اكثر مما هو عالمي لان كل لوحاته تذكرني بغويا ولاسكس والآخرين الكبار، الاسبان الحقيقيين العصبيين المتشددين ودائماً (متنرفزين).بيكاسو اسباني، لكن اسلوبه ربما اثر على عدد كبير من الفنانين بالتالي اخذ مساحة اكبر مما حتى بيكاسو يتوقعها.

مسألة العالمية والمحلية انا نفس الاشكالية اعيشها. العالمية ما تدخل برأسي. ما هي العالمية من هو العالمي الآن من الفنانين الاحياء والاموات؟ (...) هذه هي المشكلة. احد الكتاب كتب بلهجة فلورنسا وهي تختلف عن لغة اهل روما واهل نابولي واصبحت بعدين لغة ايطاليا.انا اعتقد في مجتمعاتنا النامية ان الاستقلال السياسي يحتاج لاستقلال اقتصادي واستقلال ثقافي. الاستقلال الثقافي ليس معناه السجن بل ان تقدر تفكر مثل الآخرين، وتطرح حلولك وتعطي تصوراتك. المشكلة نفسها المطروحة الآن. كثيراً من الحركات السياسية عندنا في المنطقة، حتى الثوريين أخذوا النظريات جاهزة ومعلبة مع ورقة بكيفية الاستعمال، بينما المفروض ان تقاس هذه النظريات وهذه الافكار بمدى علاقتها بالواقع وامكانية نجاحها أو عدم نجاحها، لا ان تقيس الواقع على النظرية بل يجب ان تقيس النظريات بالواقع.

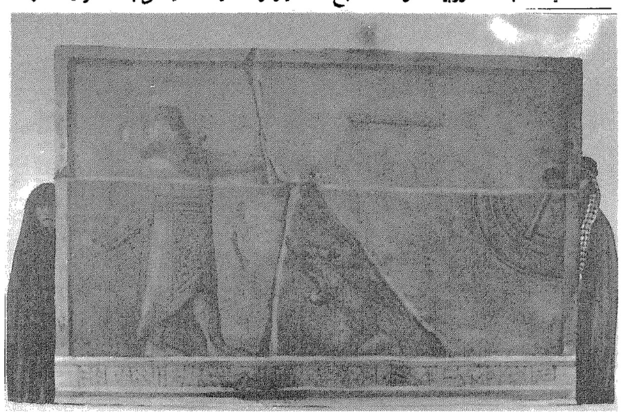
بالنسبة للرسم نفس الشيء.عندما اقول انا سريالي،ارسم لوحة سريالية،هذا يعني انني اعرض للناس واعرض للمجتمع وانا من هذا المجتمع. أو اقول انا تجريدي ورمزي، هذه التسميات بعضنا يتصورها انها تخصنا، يتصور اننا سرياليون من عهد (دقناووز) وان العرب كلهم تجريديين. هذه العادة يجب ان نتخلص منها. نتعلم من جهد الآخر، نحترمه ونعتبره اضافة لجهدنا ويمكن ان نستعين به فنتطور أكثر ونقدم اشياء اخرى افضل.

الاتهامات فيما يتعلق بالمحلية تجيء من ناس مفروض ان يتبنوا هذه القضية لسبب بسيط.

اتحدث على المستوى السياسي فنقدر نفهم المشكلة اكثر. القوميين مثلاً ادعوا هناك فن قومي وفن عربي، واسلامي حسب ادعاء الاسلاميين.والديمقراطيين واليساريين والشيوعيين مثلاً اعتبروا هذه الفكـرة «رجعية برجوازية، إنما في الحقيقة هي فكرة اصيلة لو كانت تأخذ في مجالها الحقيقي الحيوي، لكن اتجهت الى التعصب والحدّية وصار مثلاً واحد يحتقر تراث الآخر لان عنده تراث افضل. المحلية هي محاولة لشعب معين ان يغنّي بلغته ان يغني بلحنه ان يغني بصوته، الى جانب هذا (الكورال) العالمي العظيم الموجود في الارض،ويضيف نبرة وتر، أو نقرة طبل، لهذه السنفونية العالمية التي امامنا. وهذا شيء غير متخلف أو رجعي يستحي منه الانسان، ولا هو بديل لما تنتجه جهود الشعوب الآخرى بل يغنيه ويتساوق معه.

السؤال الذي يطرحه مثل محمود صبري في كتابه الجديد يقول:لماذا بيكاسو راح الى فن الكهوف الذي يستند الى تراث عصر النهضة واليونان والقرون الوسطى الى كهوف التاميرا، لماذا راح لافريقيا؟ سؤال جدي يجب التمعن فيه وهو يلازمني، لماذا عصر النهضة ترك فنون القرون الوسطى واتجه للاغريق؟ لكل عصر حاجة ومشكلة خاصة به عليه ان يعالجها بطرق ما. اعتقد ان كل واحد حر ان يستخدم أي طريقة يريدها. لكن اعتقد عصرنا، عصر الجرايد، كما يسمونه في الجرائد عصر الجماهير. المفروض الشعوب تأخذ حقها في البحث، في العمل، في التعبير عن شخصيتها سواء من خلال فنانيها أو ادبائها أو مسرحييها أو قادتها السياسيين، ومفكريها، الاقتصاديين ايضاً، الآن اصبحت حاجة ملحة لمرحلتنا. المحلية الآن شيء لا بطر ولا قسري ولا مفروض من فوق.

هناك ايضاً اتجاهات اوربية تحاول ان تشجع هذا التيار أو ذاك فيما هذا يسمى بالاستشراق. لكنها



قيامة اذار ١٩٩١

حاجة ضرورية. اعتقد المثقف الذي ينتمي لهذه البلدان عليه ان يفكر بها. اذ ما يقدر يتصورها أو يؤمن بها عليه ان يشغل نفسه فيها قليلاً ويشوف الاشياء. الواسطي عظمته واهميته انه استطاع ان يمزج بين البزنطيين والساسانيين وان يخلق اتجاه بعد اكثر من عشرة قرون أو ثمانية قرون أو ستة قرون من الجهد المركز للمسلمين في التعبير عن شخصيتهم الثقافية.

انا عندي هذا الهم، هم بسيط تماماً وغير معقد. لكنه يشغلني.

تحليل العمل الفني عندنا وطرق النظر اليه، المدارس الفنية، النقد الفني، تأريخ الفن علاقة الفن بالمجتمع، التطور بنيته العامة التحتية والفوقية، التراث وأثره على امكانيات الاستفادة من الآخر وبنفس الوقت التحصن من الهيمنة، استيراد الثقافة واثرها، هناك اسئلة هامة في الحقيقة، عندي مثلاً فضاء اللوحة وكيف ننظر اليها كناس من منطقتنا وكناس من اوربا. فضاء ادراكي، فضاء مجازي، فضاء حقيقي، فضاء ابداعي، فضاء عنصر باللوحة، فضاء مغلق، فضاء مفصول، فضاء منفصل، فضاء منفتح، بالاماكن نفس الشيء بالزمان نفس الشيء. هناك امور يمكن بالاسئلة تبرز. ماذا عن العقلية؟ عقليتنا الآن متباينة في العراق.حتى في الفرد الواحد تجد من جهة فرنسي، من جهة عربي، من جهة معيدي أصلي. في قضية معينة تطلع كل سلبياته الخفية، في قضية اخرى تجده جداً متسامح وجميل ورائع. يعني شخصيةغير ثابتة ومتبلورة. نحن حتى الآن نتحدث عن شخصيتنا.مثل ما قال شاعرنا بلند انه البحث عن الذات، حتى ذاتنا الآن موزعة على عدة انماط من التفكير ومن السلوك. ومن الممارسات، بسبب الهيمنة والسيطرة والاستعمار والتخلف، والاسباب عديدة. العقلية تلعب دور في هذه القضايا. واترك طبعاً علاقة اللوحة بالناس.

صادق: فيما يخص العالمية والمحلية، حسب استيعابي لما سمعت اقول انه ليس هناك من أي جهة فهم ان المحلية هي محدودة أو رجعية. ومن ناحية اخرى العالمية اشكالية صعب تحديدها. في كل تأريخ الرسامين في العالم كله لا يوجد اكثر من ألفي انسان استطاع ان ينتقل الى وسط شمولي وقيل عنه عالمي، هي شيء نادر. ايضاً المحلية لا تلغي العالمية ولا العالمية تلغي المحلية. اعتقد هناك تكامل.عضوي يصعب فك الارتباط بينهما، إنما اتصور الضوء الذي يتجه نحو أية عالمية يخرج اصلاً من روح الفنان ومن ادراكه ورؤيته للقضية. وليس هناك أي قانون محدد لتكوين هذه المعادلة الصعبة. هي كشف. وبما انه كشف،فانه يخص شخص واحد ولا يمكن ان يخص اكثر من شخص واحد. اظن ان المحاولة المهمة التي لسنين طويلة فيصل انهمك فيها وشغل روحه وعقله وكل طاقته وظفها لها هي ان يجد هذا الضوء هذا النور الى أين يقوده، ولكن هو كمنتج وكمبدع لا يستطيع الاجابة من عينه بل يجب ان تكون الاجابة من عين المشاهد. هل استطاع هذا الضوء ان يصل؟ المشاهد ايضاً هو بدوره خالق للوحة أو قادر على الكشف. عندما تتحقق الاجابة بنعم اظن انه هناك يعني راحة الفنان تتحقق. عند ذاك تصبح الاهداف، مهما بدت، قريبة من عين الرسام. قبل ان انتقل الى القاعة وأسأل ماذا يدور في ذهن القاعة اطرح سؤال على الاساتذة الحاضرين في هذه الندوة ان كانوا يحبون ان يعقبوا بأية فكرة عن أية فكرة طرحت هنا.

بلند: هناك في الحقيقة محلية وهناك عالمية. لكن متى تتحول المحلية الى جانب سلبي،

ومتى تتحول العالمية الى سلبية ، انا اعتقد عندما نسمع بيت شعر يقول :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرارِ

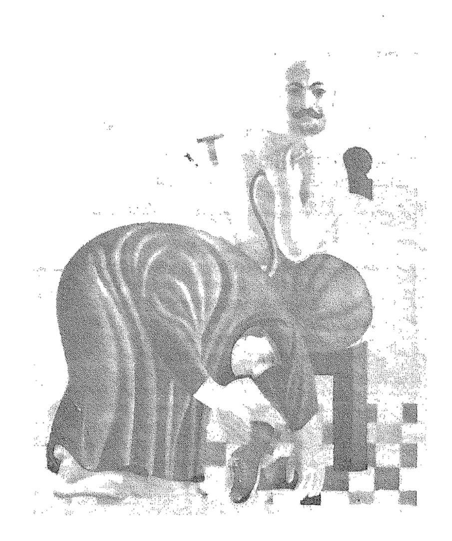
عرار ورداً صفر محلي يطلع في نجد فقط لا يطلع في مناطق اخرى. ولكن هذا محلي ونجد منطقة. لو هذا الشاعر وصف هذا العرار بأي منطقة ولونه ، ووصل الى التفاصيل الكثيرة،فهنا كثرة التفاصيل كانت تلغي قدرة هذا العرار من ان يتحول الى رمز.فهنا المحلية سلبية . لكن الشاعر عرف كيف يحول العرار. تمتع من شميم عرار نجد. شميم عرار نجد مليون شيء: تمتع من يومك ، من حياتك من أي شيء ، تحول الى رمز كبير، ويتحول هذا الرمز الى عالمي ، وممكن ان يترجم الى أي لغة ويبقى له زهوه ، لماذا؟ لان المحلية لم يثقلها بالتفاصيل الزائدة. كذلك عندما تأتي الحركات الفنية من الخارج وتصل الى بلداننا ، وخاصة في هذا العصر الذي اقتربت فيه ايضاً العالمية،متى تتحول الى سلبية. هذا رأيناه عندما الغت شخصية الفنان نهائياً. فصار احد فنانينا الذي يأتي من اقصى محافظة العمارة أو قرية بعيدة شمال العراق ويرسم كما يرسم فنان اوربي . المسافة هنا اغتراب وهذا الاغتراب مسافة مكانية وزمانية عندما تقلد حرفياً فناناً مثل الواسطي فهذا اغتراب عن زمانك. وعندما تقلد الاوربي فهذا ايضاً اغتراب بمسافة مكانية.يجب ان تبحث عن النقطة الصحيحة التي نتواصل فيها مع التراث والمحلية .

د. **عبد اللطيف اطيمش :** تحدث من القاعة بعيداً عن المسجِّل فلم يلتقط مداخلته بوضوح .

ضياء : تعقيب:الفرق بين المحلية والعالمية كما اعتقد بطريقة النظر في الموضوع . ملحمة گلگامش كثيراً ما نسمع بها خارج العراق. والآن في الموسيقى اقل تقدير توجد ستة قطع عن گلگامش إذ تأخذ گلگامش على اساس انه بطل سومري عنده علاقة بشخص اسمه انكيدو احداث جرت في اوروك ، وهناك عشتار. . . كل هذه الاشياء محلية ، الموضوع الاساسي الذي يحول گلگامش الى شخص أو بطل أو همّ عالمي ، بحث هذا الشخص عن الخلود مثلاً ، عن مسألة الموت ، عن وجود الشخص وعلاقته بالسلطة الآلهية. نأخذ موضوع عاشوراء ، اذا تأخذ انت موضوع مقتل الحسين على اساس موضوع شخصية فلانية ذهبت الى كربلاء ، هذا مثلاً يصلح فولكلور، عندما يتحول مقتل الحسين على اساس انه صراع السلطة ، صراع العدل والحق يتحول الى جانب آخر. جواد سليم ، حسنته وقيمته الاساسية في تجربة الفن العراقي هو يربط المؤثرات التي هي موجودة سواء كانت بصرية أو أدبية سواء كانت سومرية أو حياة يومية هو ربطها بالابداع . بهذا المعنى جواد لم يشاهد الاشياء كما هي ، كان يجري عليها العديد من التحويلات في سبيل خلق وحدات بصرية قابلة ان تكون وحدات موجودة في أي مكان بالعالم وبسهولة ان تفهم،مثلاً نشير الى الحرف العربي. الحرف العربي اذا قلنا ان أي حرف عربي على اللوحة ستصبح لوحة عربية ، فتبدو العملية مضحكة ، لانه موجود فنانين انكليز مثلاً كل عملهم الفني باللوحة هو كلمة الله ومحمد ، هل يصبح فنهم عربي أو اسلامي ؟ العمل الفني أساس قيمته وانتمائه هو مقدار ما يحتويه من مشاعر، من علاقة ، بتراث الفنان نفسه ، بالتالي تصبح مسألة المحلية والعالمية مسألة عادية ،

ما واحد يرسم حتى يصير عالمي ، التجربة بمقدار ما منفتحة على تجارب العالم هي عالمية ، يعني مثلًا اشار صادق الى (ديفيد هوكني) ومقابله اضع فنان انكليزي مثل (فرانسس بيكون) ، العديد من النقاد يوصفون (بيكون) بالفنان الانكليزي،(هوكني) ايضاً انكليزي ، لكن لانه سكن في امريكا، وليس لانه التقى بسيطرة الثقافة الامريكية ، وإنما بانفتاحه على جملة تأثيرات عالمية امامه بسمحت له ان يكون اكثر مقبول بين الوسط الثقافي العالمى من (بيكون) الذي اصبح محلي.لكن هذا لا يلغي ابداع أي منهما،لا بلغي إن هوكني صار عالمي بالتالي هو تنازل عن تراث انكليزي ولا يلغي (بيكون) لانه يرسم موضوعات انكليزية بحتة وبالتالي اصبح شخص محلي لا علم له بما يحدث في العالم.

صادق: شكراً لضياء. كما نرى، الموضوع يحتاج الى تطبيقات، الى منظورات تطبيقية على عمل فيصل، كي لايتحول بحثنا الى بحث عام وتجريدي. فالاشارات التي ذكرها الاستاذ



ضياء هي خطة اولية نحو تقريب الفكرة، أي بالامكان للتعقيبات التي نسمعها من القاعة انه تقترب من لوحة فيصل

زهير الجزائري: التعقيب من القاعة فلم يلتقطه المسجل بوضوح كافٍ.

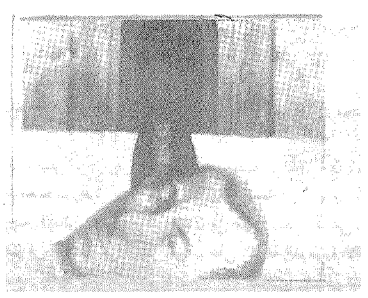
د. سعدي: المحلية تعني محلّة، والمحلة اضيق من التراث والتقليد. هذه مناظر تقليدية، مناظر تراثية في العراق، أما كونها عالمية أو غير عالمية فهذا يتوقف على قدرة الوصول الى العالم، لان ما عاد هناك الآن فن عالمي وغير عالمي. الفنون نأخذها قياساً لعدد الناس الذين يستمتعون بها أو يشاهدونها سواء الموسيقى أو الاغاني. عدد غير قليل في اوربا والصين كلها لم تسمع ولا تعرف من هو بتهوفن. على أي اساس يكون عالمي؟ بالنسبة للصينيين يمتلكون مقياس على اساسه يكون الموسيقي عظيم. فيصل انه يريد ان يكون في الرسم مثال داخل حسن أو حضيري أبو عزيز في الغناء العراقي. مثال جداً عظيم. في المغرب العربي كل الناس تعرف حضيري ابو عزيز وفي بيروت في دمشق في مصر في كل العالم العربي كل الناس تعرف حضيري ابو عزيز، يعرفون الغزالي ايضاً، لسبب بسيط جداً هو ان حضيري ابو عزيز والغزالي استطاعا الوصول الى هؤلاء من خلال اغانيهم. وهو ظل الشخصية الوحيدة المعروفة هناك لان ما جاء آخرين. في السنوات الاخيرة نشوف كثيراً من الغناء العراقي منتشر على نطاق الوطن العربي. واقدر اضيف الآن يكون اكثر شيء محبب لنفوس العرب هو الغناء العراقي. كيف يرتفع الانسان للمستوى الفني العالمي؟ هذه قضية تفرضها في الحقيقة طاقة الفنان. طاقة الفكر متشابهة. شكسبير ما جاء بفكرة غريبة وجديدة. كتب عن اثنين يحبون بعضهم وصار الصراع ضدهم وناس عاونوا المحب وناس ضده. وهذه الفكرة موجودة في كل آداب العالم. كُلكَامش طرح فكرة كل العالم لم يبحث عنها، فكرة الحياة والموت وهذه موجودة في عقل كل انسان سواء اوربي أو في جنوب امريكا. لكن وصول هذه الاشياء الى الناس يتطلب اعتماد الفنان على قدراته وتطوير اسلوبه، انا لا اقدر افرض على فيصل لعيبي ان يسوي هذا الاسلوب غلط وهذا الاسلوب صح، هذا الشرطي اعور وذلك الشرطي مفتح. هذا اسلوبه. هو يتطور، هو كفنان حقيقي صادق، اصالته تكمن في قدرته على فهم الواقع، وعلى التعبير عنه بقوة. فاذا قدر ان يعبر عنه بقوة وطاقة هائلة وان يوصلها من خلال تلفزيونات وصحف واعلام الى العالم فيفوز بعيون الناس. وكل العالم يعرف ان هذا الرجل من العراق.

لم يلتقط المسجل بوضوح كافٍ مداخلات احد الحاضرين، ود. محمد مكية. والكاتبة فاطمة المحسن).

فيصل: نحن نعيش مرحلة هيمنة انماط معينة من الفن. من الصين الى امريكا اللاتينية نلاحظ نماذج معينة مسيطرة. وهي تشبه الهيمنة السابقة التي سادت بعد غزو الاسكندر للشرق اصبح لبوذا وجه التماثيل اليونانية، لبوذا الآن في الهند شكل اغريقي، حلو جميل. كما ادخل الرومان الى مصر في عهد يوليس قيصر تأثيرهم على الثقافة الفرعونية الاقدم. في المتحف البريطاني نشاهد نماذج رومانية لاشكال مصرية. هذا كان قصدي. لِم لَم تنتج المنطقة اعمال

اصيلة اضافتها, صار الفن هجيناً يخلو من الروحية الاصيلة الحقيقية الصادقة؟ الفن المهيمن هو السائد بالتالي يجب ان يبحث الفنان عما هو مطلوب منه؛ لان الموجود السائد صار رسمي ، وهذه الحالة يخشى منها الآن من سيادة نوع من الرسمية في الحركة الفنية العالمية ، هيمنة نمط ، هيمنة شكل ، هيمنة اتجاه. على الحركة الفنية في العالم وهذه أسميها انا عالمية . واعتقد انها خطرة . ينبغي القول اني لست ضد هذه العالمية لكني اتصورها خطيرة لانها ، لانها ، كما قال الاستاذ بلند الحيدري ، تنزع الكثير من خصوصية انسان المنطقة وابنها وهو من البيئة المعنية . لماذا اطلقت على المعرض اسم «كان يا ما كان»؟ كان هناك فيلم اميركي عنوانه «يوم ما في امريكا» يعني اردت ان اقول بالمعرض كان يوماً ما في العراق: اشيا- مثل حادث ما ، ذكرى ما . . . ذكريات كما ترون معظمها يعود الى الاربعينات والخمسينات.لكن في نفس الوقت حاولت ان اعطيها السمة الحالية الآنية في بعض الضربات داخل اللوحة . الاشكال ساخرة لان عالمنا بالحقيقة سريالي في العراق يشبه عالم الاساطير، عالم ، يعتبر واقعي لكنه خرافي عجائبي . هذه المسائل هي جزء من هذه (البهارات) في عالمنا ، انها بقع ضوئية بسيطة ، مكانات تتنفس منها ، هذه المسائل ساخرة . يعني هذه الكوات الصغيرة تبعدنا عن الموضوع قليلاً ، أي تغريب حسب تعبير بريشت . فيها تغريب ، محاولة لعزل المشاهد عن اللوحة كي لا يغرق فيها ، مثل وضع مجلة (بردا) في لوحة الخياطة رغم انها في مثل هاي حاط هناك برده ، في الوقت ذاك الزمان ما كان (براد) تصل الينا : لكن هذا النوع من التهكم والسخرية موجود ، ولكنه لا يجعل العمل (كاريكاتوري) . يعني التأثير الاول الذي تتركه عندك اللوحة بالنسبة لهذه التجربة هو المهم أما التفاصيل:هذا (كاشي) عراقي أم انكليزي ، هذه التفاصيل يمكن ليس لها علاقة بالاكشن.أما التزيين فأنا رسام شرقي . التزين جزء كبير من العمل الفني الشرقي (. . .) .

صادق : من القاعة ثلاثة اصوات طلبت الحديث ، أنا مضطر مع الاسف لانهاء النقاش . شكراً .



قيامة آذار ١٩٩١

قصيدتان*

جيلي عبد الرحمن

شاعر السودان الراحل

بوابات المدن الصفراء

أعْشابُ الذِكرْى
حفتْ فيها الأنْداء
وتعالوا في أمسيةٍ أخرى
واللّيلُ ضبابٌ، وثُلوجٌ . . سوداء
ولادْفنُكُمْ . . يا أصْحابي شِعرا!
رُوحى تنْزلقْ اليوم على وهجِ الصّحْراء
واعجباً
أرْسلتُ لها أدْمُعي الحرّى
وتسلّقْتُ الأبْحر
حتّى بواباتِ المُدنِ الصّفْراء
ها قدْ خرّتْ
حين الجِسْمُ المعروقُ . . خرًا!
وحملتُ الوهْمَ الصّحراوي . . إلى أينْ؟
والليلُ الحّرْبائي يحطُّ على الكتفينْ

* من قصائده غير المنشورة

مصفرُ الوجْهِ، ومجذورُ العينينْ
لم يبْقَ سِواكِ - أيا نورستى -
مِئذنتي سِوى ظلٍّ . . في الماءِ!

* * *

وعبرتُ سُهومَ المسْتشفى
وجِدارَ الدْمعِ . . وأناتِ الفُقراء
وجثوْتُ سأيا نُورستِى -
فالغُربةُ في وطني
- والمنفْى -
يغْتال جذور الأعشاب الخضرْاء
غرْقى نحنُ
نُجومٌ، وبُيوتٌ سمْراءُ
واعجباً كانتْ تُورقُ صيْفا
حانُوتُ مُوصدْ
شُرطيّ مهوُوسْ
مُلتفٌ في البردْ
الذكّرى كابُوسْ
والشدقانُ القيد
تسْقيني كالسُّوسْ
السمَّ الأسودْ
يا هذا الجاسُوسْ
هلْ يُخيفني المدّ؟
والدُّنيا مِثْل السدْ.

زائر :

كيف أشْرقت عليًا

وترابُ القبرْ في اللحية ،

عِطر المسبْحة

وحفِيفُ الاجنْحة

صوؤها في مقلتيها

* * *

لم تكن في جيبُك الخاوي جوازاتٌ سفرْ

وعلى المعِطف ثُقْبٌ ، وخُيوطٌ ، ومطرْ

مثلما خلَّفْتني ما زال قيْدي في يديًا

كافِراً بالمِنبر العالي . . . ومِسكِ الأضْرحة !

* * *

هذه اللَحظةُ أومنُ بالعظم المُسجًى

في جِراحِ الأرضْ

نيليًا . . أريجيً النخيلْ

وبباب الدّار للايتام . . جُرْعاتٌ . . وملْجأ

وأذن الفجْر

يُصغْي الطَّيرُ للصَوْتِ الجليل

وعلى وجْهك نُورُ الفاتِحة

* * *

وحملتُ الطهر آياتٍ ، وشعراً مُلحداً

ومجيطاً بينْ عقيقٍ

وبريقٍ وهُدى

أين يا أنْت الهديَّة؟

وأنا ياسيِّدي في قبرك الغالي ضحيَّة
أجْهش التَّائه : ظلّف الغاب من فوق الهُدى
رايةُ الأجْداد . . داستْها الخيولُ الجامِحة !

* * *

أنْتِ أقبلتْ . . . . إذنْ
فحنانيك الهوينا
رطب الرآس بريق الرّوح . . رفرفْت علّينا
ترابُ الأفق كالأحراش يْعمينا . . . فأينا؟
يُرفرفُ حولك صمتُ الشموعْ
وترعشُ هذا الكرى والهُجوعْ
ولفَّتْ سكينتُكَ الحور
أصغتْ عصافيرُ صَوتك فوق الفروعْ
كأنكَّ عُدْت رحيلاً طويلاً
يُوشَّحُ بالزَّنْبقاتِ الرّبوعْ

* * *

هويتك اليوم . . عطر يضوع
وصمل يضيء دوجه «يسوع»
وفاجئنا في الحداد الربيع
فمعذرة إن مسحنا الدموع
صَوْلجانُ النَّصرْ . . يا رَّباهُ . . .
دمُّ المذْبحه !
كانتْ تحْيينا بالشَّوق المِعْطاءْ
لمْ يبق سِواكِ ـ أيا نورستي ـ
وا أسفاً !
اللّية في قلْبي ظمأ الصَّحْراء

يعْشوْشِبُ مِثلَ الشَّوكِ الدَّاء
إنْ لُذْتُ بجنحْ الصَّمتِ
مئذنتي . . أطْرقْتُ
وقُلْتُ . . المْوتُ!
«تُراهْ المْوت»؟
غَرقَى أنتْمُ مِثْل النخل . . الأحْياء
سوْفَ أقُولُ لأصْحابي . . شُكراً
وتعَالُوا في أمسةٍ أخرْى
في أيديكمْ . . عُشْبُ الذكَرْى
إلقيتُ سُرادقهُمْ في النارِ
قتلْتُ الحِربْاء!

مبارزة

إن سبرتُ القاع قدْ أصرخُ . . لا
وهزيمُ اللَّغو . . مفْتوناً . . نعمْ
-فوق أيدي الرَّيح يعلُو ثمِلا
أيّنا في السِّجن قدْ داسَ العَلمْ؟

قصيدتان من كردستان

مؤيد طيب ترجمة : ره فدار المزوري

الهوى

حين احببتك :
أحببتُ النار والامطار
أحببت المشانق والزنزانات
أحببت البنادق والخنادق
أحببت المناضلين والكادحين
أحببت النجاد السامقة
أحببت كل المدن والقرى
لكن :
حين ركعت لقامتك
وقرأت صفحة عشقكِ
وخلجت شجرة الامنيات

لم أركع في حياتي لأحد قط
ولن يقدر أحد أن يأمرني
بالركوع

فاتنتي:
من ثغرك...............
عرفت كم هو رائع وطني...
ومن خصلات شعرك الاسود الحالك
علمت بأن الليلة التي ستحلُّ
على وطني ، كم هي سوداوية
لكن عشقك في قلبي
نارٌ تطلب النيران
وان تفجَّر هذا القلب
المليء بالنار المتأججة
فأية ليلةٍ ستبقى
وأي هشيم أسود
سيوقف زحف النار؟!

دهوك[1]

كم عذبةٌ رائحتكَ
يا وطني الممزق تحت بساطيلِ
المحتلين...
قالوا: غدوت مَدينة كبيرة
قالوا: تهيَّجت كلاب السلطان المسعورة
ويسكبون الدماء في الازقة
قالوا: العجائز الشمطاوات

تنخر ن جَسدكِ
وترْعشن أوصالكِ
قالوا : مهما أظلمت ليلة السلطان
فنارك ستظل نيرة ،
ولن تفر مشاعلكِ وقناديلكِ
قالوا : غدوتِ مدينة كبيرة
لكني : مهما عبرت الشهور والسنين
وكبرتُ . . . . .
سأظل طفلاً صغيراً في نظر والدتي
هكذا أنت . . . .
مهما جاوزت التلال والجبال
ومتى ما أحفيت جفنيك
تعالي وضعي رأسك على قلبي
أحْبَبْتُكِ في موسم الشتاء
حين كانت قمَم الجبال مغطاة بالثلوج
أحببتكِ في موسم الربيع
حين كنا مجموعة أطفال نسرق اللوز
مِنْ بساتينك . . . .
عشقتك في موسم الصيف .
حين كنت ثملاً في منتصف الليالي
والنسمات الباردة تأتي من واديكِ
هَويتُكِ في موسم الخريف
لَمّا كانت وجبة جديده من أطفالكِ
تتراكض صَوبَ المدرسة .
لكني في الغربة . . . .
أحبكِ دائماً وأبداً وفي كل الأزمنة .

فأن عدوت ذئباً مفترساً
قادماً من الغابات، أحبكِ
وأن غدوت مُزنة حالوب شديدة
وهطلتِ على رأسي، أحبكِ
وأن استحلتِ ينبوع نار
تنهبين من تحت قدمي، أحبكِ
وإن صرتِ كابوس أحلامي، أحبك

قالوا:
غدوت مدينة كبيرة جداً
فَمِنْ أمواجكِ يتراكض أتباع السلطان

قالوا:
لقد استحالَ الوحش فرعوناً
ويَتسلق شجرة الرمان
كي يُغيِّر وجهة شمسكِ،
لكن، ستظل شمسك مثلما كانت
تشرق من (كه لى بيسرى)[2] أبداً
وتغيب في (گرى شاخكى) دائماً

فيينا ـ النمسا ـ ١٩٩٢

(١) دهوك ـ مسقط رأس الشاعر.
(٢) (كه لى بيسرى) و(كرى شاخكى) ـ الشروق والغروب في دهوك.

لا تنجب الشمس إلا مدن الرفض

أديب حسن محمد

خيطٌ من دم . .
وتكتمل خريطة الموت . .
في تلك السفوح . .
التي استعصت زهورها على العواصف . .
مدينةٌ تغفو على جفنٍ البروق
هنا . . على مشجب الموت . .
تشحذ الريح أجنحتَها . .
فأخرج من مخاض الوجوم . .
جسداً
يُخَضِّبُهُ انتماء!
هل من طفلٍ يستأنس بأراجيح دمي؟
موحشٌ
موحشٌ
موحشٌ هذا السكون . . !
افتح عيوناً جديدة . .
كلبٌ مدّرعٌ . . ينبحُ فوق جثتي . .
وخنازيرُ . . تستحم في مستنقعات الدم والخردل . . !

حملتُ قبضتي . .

لكن . . لم يكن ثمة هواء . . أصفعه بها . . !

ما كنتُ أسرجتُ دمي . .

يا وطناً من برقٍ

يتكوّرُ في الأرحام . .

طفلٌ حدّق في السماء . .

لم ترحم جفنيه سحب الموت . .

فظلت عيناه . . ملقاة . .

في حِجر آلهة مختفين ! . .

مزيدٌ

مزيدٌ . . من الدم . .

هذا المخاضُ الطويل . .

صار قاب موتين أو أدنى . .

صار عمركِ مجزرة . .

فسيري على الجرح . .

حلبجهْ

يا جدولاً من نار . .

لا تطفئه المسافات

سيري . .

لا تنجب الشمسُ

إلا مدن الرفض والنابالم . .

روما . . كانتْ مقبرة نيرون . . .

وأنتِ لا بُدّ مقبرةٌ لكل نيرونٍ جديدْ

وسيفٌ من الجحيم في صدر التاريخ . . .

* * *

١٤ تموز ١٩٩٢

صخب البرزخ

قاسم سرحان

ثمة أشياء لا تفقهها... في هذي الفوضى
يتسع البحر....
أمواج صاخبة تبتلع الصمت
طيور تسّاقطُ في الظلّ
سماءٌ،
وسماواتٌ أخرى تصطدمُ
بالسحب الفضةِ
تتبعثر فوق جبال الغربةِ
كلُّ الأشياء هنا لم تعتدْ
وجه حقيقتها
صخب البرزخ يلبس أصداء الأفقِ
هذي الأرضُ
لا تولد ثانيةً
والصحو هنا...
الصحو المذبوح على الشرفة
لن يغفر للروض براءته
ثمة أشياء لا تفقهها
منذ البدءِ كنتَ تشاهد روحكَ
في بستانِ سمائِكَ

أوراقاً تذبل . . .
تسقط . . .
فوق مياهٍ توجعكَ .
حين هوى النجم
في أفق حديقتنا
وخلَّفَ ظلمته السوداء تغطي
بهجة حُلْمكَ
أغلقتَ الشرفاتْ
وعلمتَ بأنّ هناكَ
وراء الأسوار
وخلْفَ الأسماءِ
صهيلاً يتعالى
وقهقهةً كالعصفِ
تهدّمُ أركانَ الروحِ
علمتَ بأنَّ هنالك فوق
سماء الرهبة
شرخاً يتوسع في الملكوتْ
وحَوَاريّ الله التعبين
بمقصلة الرغبة ماتوا
وعلمتَ بات الله هنالكَ
في أقصى الأشياءْ
- يجلسُ منفرداً -
ينظرُ في خلقٍ
آخر.

ارطاوية
١٥ آب ١٩٩٢

تضاريس الأيام في دفاتر نصير

هناك.. شرق «كاني كه»*

يوسف ابو الفوز

الى المتربين بغبار المجد، أنصار الفوج الاول وشهيدهم الخالد «جنان».

● لحظة الرثاء، غادرني الحزن والدمع والمخاوف وحدها القصائد خضراء سكنت روحي فاستفزت التوهج.

- ١ -

لي في الصداقات النبيلة قصيدة أسمها أنتِ، وأنتِ أميرة الذكرى، جراح السنين، خلاصة الخيبات. امرأة صمتي المنتهك باتهام العشيرة، وقلقي المضمخ بمرارة حزنك. وانا المداهم بالأمل حيناً، بالمخاوف حيناً، وبك في كل لحظة.

ما اخترت غيرك امرأة لقصائدي، رغم احزاني ووحشة هواجسي. كنت معي، دوماً معي. في استدارات العواطف والعواصف، في وحشة المنفى، في زهو الجبل، في التماعات البنادق، في ابتداءات الاغاني والمطر.

كنتِ معي، في شرق «كاني كه» كنت معي، وجهك يأتيني مخضباً بالدمـ. . . .ع، وصوتك مكابراً: ـ «كيف نسيتني، يا وتر الاحزان، يا نزق الطفولة، كيف. . . ؟».

كنت معي، في شرق «كاني كه».

ـ «اذن، شدني الى صدرك، الى قوس حزنك وأطلقني مرتين. مرة الى حفنة أمانٍ، وأخرى الى فجر الصداقات النبيلة، وسأنتظر!».

(انتظري، ما شئت، وعند اللزوم، ان شئتِ موتي)**، ولكن عليك أن تعرفي:

مِنْ الـدمـع والنـار والدم، شفاض الصخر وشَجَرا
وبـشـرق «كـانـي كه» شلّى حصـل وشـجـرا
وشلون واحـدنـه يمـوت وهـو والّف مثـل شجـرا
وصـوتـه يظل للأبـد. . بيـرغ يرف للمـجـد

- ٢ -

هنـاك، شرق «كـاني كه» كان عصفـور الامـاني منخوباً بزخات الهواجس. كان الرصاص يبني للمخاوف مظلة من ريش القلب، وكان الثلج ينهمر، كان «الره به نوّك»[1] ينهمر، وكان الشيوعيون اغصان الطفولة، يمدون على الصخر ضلالاً من صبوة العشاق.

متربة بالحزن، بهمّ الناس، بالبارود هذي الوجوه، ومتألقة بنجوى الاغاني والحنين.

- «هيه. . هيَه. . شْطيب العشك
وشحلوه ساعاته»

كان (سالم ره ش) بين القصف يغني. يا هذا المضاع لم تضيّع، قلبك عصيّ على التلمس وتلك الراحلة ابنة «. . . . »!، لك عندها انكفاء الدمع وعذابات صغيرة، ولك وحدك كل ما تشتهيه السفائن في مرافيء لم تصلها.

وكان «ياسين» هناك،

و«ياسين» محتشداً بالرصاص، العشق، بالطموحات الكبيرة، ليس إلا فتى واسع العينين، شاعراً يغني رغم الحزن[2]، فتى لاحلام الاماني، الصبايا، نخل العراق، ورق الرسائل والقصائد، في عيون الـ «فيافي» تضيء هواجسه، وعلى وسن عينيه تنام «وسن»[3] قصيدة. لضحكته نزق الرسائل، ولكفيه رائحة الاماني. وكان هناك كثيرون. . .

وكنت أنا!

أنا المداهم بالامل حيناً، بالمخاوف حيناً، وبالاميرة في كل لحظة.

لي عندها استدارات العواطف والعواصف. هجس الاصابع والعصافير، حد الجرح والسكين، وأماني صغيرة.

وكان «جنان»!

زهـو البنـادق حين تمنح العصفور جنحيه وعشه، «به نده وايه» تنهض في عينيه نرجسة. بين أصابعه تمتد اشرطة الرصاص، ضفائر «هبه» وخيوط طائرات الورق.

وهناك. . . شرق «كاني كه» صار «جنان» قطرة دم في كف الطفولة.

- ٣ -

هل تنكفيء فينا الاماني عند صخرة في شرق «كاني كه»؟، و«كاني كه» قلعة في

القلب وعلى استدارة شفاه «هبه»، و«هبه» امرأة الصدمات في عسف الشظايا والبلايا.

هل تنكفئ فينا الاماذ . . .؟

هنـاك شرق «كاني كه»، دم جنان افترش الثلج والحدقات. وصرختي مرت على الصـرخـات: يا كلس الامـاني، بأسناني ساكشط نذالتك، وسأمزق الصمت، ما اثقل الصمت، ما اعمقه، أوااااااه، صمتي كدموع أمي، ودموع أمي في كفي رصاصة، واميرة الذكرى ما فتئت تبارك خطوتي. اميرة.. يا اميرة، الثلج هنا ابيض، احمر، اسود، الثلج ابيض يا أزاهير الاماني، الثلج احمر يا «هبه» الدموع، الثلج اسود، اسود يا اماه، واسود ليل الطغاة وليلنا المنكفيء، قطرة، قطرة، . . .، قطرات متنوعة بالبارود والصراخ، وفي شرق «كـاني كه» قطرة دم كقمر الصبايا امتصت الارض روحي، وأنا السجين في كفي الاميرة، يا اميرة هواجسي، يا طلعة للروح لم تصدأ ولم أحسب عيار عتابها، هل تنكفيء منا، الاماني عند صخرة في شرق «كاني كه»؟ هل ساورتني لحظة الدمعات؟

لو رفت رموشك،

وأمطرت ريح!

أحط عيوني لك،

نجمات،

بالظلمه

ضوه أتسيح.

شرق «كاني كه»، اتكأ الرصاص على حد الشهادة، وانكفأ التساؤل.

هل تنكفيء فينا . . .

سولـفـلي جدي يوم عن شجـرة المنتهى[٤]
وكلي اليحب النـاس أسمـته أبـدمـا انتهى
ولـو يبس كل الـورك وعمـر الأسامي انتهى
أسمـه يظل للأبـد. . .بيـرغ يرف للمجـد

- ٤ -

أسـميـك الـعـذب يا رشـفـة الاحـزان
أسـمـيـك الـدفـو يا ورد نيـسـان
يا سحـر الـطفـولـة ومـوقف الانسـان
أسـمـك للمـجـد يبـقـى أبـد عنـوان

وصخرة، في شرق «كاني كه» ستظل في القلب صرخة، وعلى صهوة «العفاروف»[*] ستظل «فارساً» مدججاً بالاماني. اورقت نرجساً في كف الشهادة. فتى الشهادة، لبلاب

هواجسي ألتف على امانيك وازهر دمعتين ورصاصة. دمعتان لعصفور الاماني، ورصاصة لفجر قادم يحمل اسمك.

فتى الشهادة.. فتى الشجاعة، حين صرت قطرة دم في كف الطفولة، كان الثلج ينهمر، كان «الره به نوك» ينهمر، هناك شرق «كاني كه» كان الثلج ينهمر، وظل الثلج ينهمر.

كانون الثاني ١٩٨٧

كردستان ـ مه راني

هوامش

* من ٥/١/١٩٨٧ وحتى ١٦/١ منه خاض انصار الحزب الشيوعي العراقي في الفوج الاول ورفاقهم قوات الدعم معارك ضارية ضد الحملة العسكرية الواسعة الشرسة التي شنتها السلطة الدكتاتورية ضد منطقة عمل الفوج الاول. وكانت ايام بطولية خالدة.

وفي ٥ ـ ٦/ خاضت مجموعة من الانصار معارك ضارية عند قلعة (كاني كه) الواقعة عند اطراف ناحية اتروش. وفي ظهر يوم ٦/١ وفي اشتباك قريب استشهد الرفيق جنان. النص من مخطوط «تضاريس الايام في دفاتر نصير» كتب لرثاء الشهيد في الحفل التأبيني الذي اقيم للشهيد. الشهيد جنان. الاسم: فارس جرجس موسى. مواليد ١٩٦٤. من قرية (به نده وايه) (القوش ـ سهل الموصل) سائق بلدوزر، التحق بقوات الانصار في عام ١٩٨٣.

(١) الربه به نوك: زهور تنمو في كردستان، بيضاء اللون.

(٢) اصدر اعلام بهدينان كراس شعري للنصير ياسين بعنوان «لنغني رغم الحزن»، لم يوزع لان طبعه تزافق مع بدء «انفال» صدام حسين في صيف ١٩٨٨.

(٣) وسن، فيافي، أسماء بنات.

(٤) شجرة المنتهى: تروي الكتب الدينية ان ملك الموت يجلس تحت ظلال شجرة عظيمة هي شجرة المنتهى، وكل مخلوق مكتوب اسمه على ورقة من هذه الشجرة، حالما تصفر الورقة وتسقط، يقرأ ملك الموت اسم المخلوق ويقبض روحه.

(٥) العفاروف: رشاش متوسط. عيار ٧,٦٢. سوفييتي الصنع. استخدم في الحرب العالمية الثانية. امتلكت مفارز انصار حزبنا العديد منها وأنفردت بامتلاكها. فاز العفاروف على سمعة طيبة وزرع الرعب في قلوب افراد العدو وكان سلاح الشهيد جنان يوم معركة «كاني كه»، والشهيد تميز دوماً بحمله سلحة المتوسطة التي تحتاج الى امكانيات جسدية ومهارات عسكرية.

** من قصيدة للمناضل الشاعر الجزائري بشير الحاج علي.

السيد والزعيم

فائق محمد حسن

فتح الحارس عينيه دهشة حين لمح رجلاً يقتحم الحواجز عنوة ويتقدم مسرعاً صوب البوابة الرئيسية. هلع قلبه وتطلع اليه بارتياب، اذ كان يغطي وجهه بعباءته اتقاء وهج شمس الظهيرة.

اشار له بكلتا يديه لان يرجع، لكن الآخر لم يكترث! ومضى قدماً، مما حدا به لان يصرخ بلهجة آمرة: ـ قف! . . الدخول ممنوع.

آنذاك رفع الرجل رأسه مستوضحاً، حدج الحارس بنظره انزعاج وتساؤل، ثم واصل سيره بخطى ثابتة.

ـ ارجع. صاح الحارس بحزم ثم بلهجة تهديد: ـ قف. . . قف.واصبحت نبرة صوته متوعدة ما ان رآه يزيح القاطع الحديدي محاولاً الولوج للمبنى دون ان يوليه أي اعتبار!

ترك مكانه واندفع لمنعه من الدخول، لكنه ارتد متهيباً، وندت عنه آهة تعجب! واجبر على الوقوف خاشعاً، اذ وجد نفسه امام سيد تجاوز السبعين، مديد القامة عريض المنكبين، احتلت لحيته البيضاء الكثة كامل وجهه الطويل، فيما تبعثرت حبات العرق على جبينه المتعفر، وفوق عينيه المستديرتين الرماديتين، وأضفت عليه العمامة السوداء اللامعة شيئاً من الوقار.

تبودلت بينهما نظ ات قلقة قبل ان يحني السيد رأسه محيياً، ويقول في عجالة:
ـ السلام عليكم.

تسمر الحارس، اختلجت عضلات خديه، ودّ لو يستطيع غض الطرف عنه، لكن الاوامر الصارمة حتمت عليه ان يتحرك لمنعه من الدخول. لاحقه مقطوع الانفاس، وسأله في رفق وأدب: ـ الى اين سيدنا؟! الدخول ممنوع.

باغته السؤال فحدق بعيني الحارس ملياً، واستفسر ببراءة وصوت مرتعش ـ أليست هذه وزارة الدفاع؟

ـ نعم.. ماذا تريد؟ سأله وسرور ماكر يراوده بامكانية طرده. وقبل ان يسمع جوابه تجمّع حولهما عدد من الجنود، احاطوا بالسيد كالمعصم. ومنعه الوقار من الغضب حين امطروه بأسئلتهم، ظل هادئاً رابط الجأش ولم يفكر احدهم بتفتيشه كما تقتضي التعليمات بسبب مظهره الجاد الذي لا يدل على الاحتيال.

اجـال فيهـم نظرة صارمـة وخـاطبهم باصرار: ـ اريد مقابلة الزعيم. فاجأهم حقاً فتساءل أحدهم باشفاق: ـ سيادة الزعيم! ألديك موعد سابق؟ حملق به بنظرة تنم عن شيء من العتاب والتأنيب، وقال بثقة: ـ سيقابلني.. جئت لمقابلة الزعيم... وسأقابله..

ـ سيادة الـزعيم ليس هنـا وقـد يتـأخـر.. يمكن للعقيد(الـجدّه)ان يسمع شكواك
ـ سأنتظر.. لا اريد احداً غير الزعيم..
ـ العقيد الجدة آمر الانضباط العسكري.. سيقابلك..
ـ لن اقابل احداً. قلت لكم اريد مقابلة الزعيم نفسه.

اعلن رفضـه بصورة قاطعة، وحين لحظ امتناعهم اصرارهم على «طرده»، وقف يدمـدم بضيق ماطـاً شفتيه، وتـدريجياً بدا احتدامه واضحاً، وكاد الموقف يتطور ويزداد حراجة لولا مجيء سيارة عسكرية..

ادى الجنود التحية للقادم، الذي مد رأسه واستفسر عن مطلب السيد، واعتقد انه سيحل المشكلة فأوعز للحارس لان يخاطبه: ـ تفضل سيدنا، اللواء العبدي سيقابلك في المكتب.

توقع الجميع ان يستجيب السيد لمبادرة الحاكم العسكري العام، ويردد عبارات الثناء، لكنه اثار استغرابهم اذ صاح: ـ لا اريده.. لا اريد مقابلة احد إلا الزعيم.

ضحك الجنود ملء اشداقهم حين ضحك اللواء الذي ادرك وجوب مجاراة السيد حفظاً لماء الوجه، ففكر والشفقة تعصر قلبه:

ـ حسناً.. لا تزعجوه.. سيادة الزعيم على وشك العودة، ادخلوه غرفة الانتظار.

لم يلن السيد، بدا اكثر اصراراً واهتاج قائلاً، اذ اعتقد انهم يحاولون خداعه: لن

ادخل، سأجلس هنا.آتوني بكرسي وكأس ماء بارد.

ابتسم اللواء مدارياً خجله. امرَ وهو يشير لسائقه بالحركة: ـ اجلبوا له ما يريد.. ولا تزعجوه..

سرّ السيد، افتر ثغره عن ابتسامة عريضة دون ان يبدي تملقاً، أو يلهج لسانه بالشكر الجزيل! وجلس قرب البوابة ينتظر...

لم يمض وقت طويل حتى اقبلت سيارة سوداء فارهة، فدفعه حدسه لان يهب ناحيتها، ويتسمر امامها.

حاول جنديان اعتراضه، لكن اشارة سريعة اوقفتهما، فغمره شعور متزايد بالبهجة، وسار بانشراح الى حيث انتصب الزعيم، واقفاً لاستقباله ومسحة من نور تلمع في وجهه.

مد يده بلهفة ومحبة. فتقبلها الزعيم برحابة صدر، وبشاشة،احتواهما براحتيه، بامتنان، وشد عليهما بحرارة ملأت قلب السيد غبطة فهتف جذلاً: ـ السلام عليكم.

رد بترحاب بالغ وسحبه برفق داعياً اياه للصعود، فلم يتردد،طوى عباءته ودلف الى السيارة بسرعة، وعيون الجند ترمقه بذهول.

قاده باعتزاز وحفاوة حتى باب المكتب وكأنهما صديقان قديمان. وامتزجت رائحة الورود الزكية بعطر انفاسه وهو يدخل.

ـ حلت بنا البركة مولانا... اهلاً وسهلاً..

كانت الستائر المدلاة تحجب اشعة الشمس، وحرارتها اللافحة، والمروحة السقفية تدور ببطء، توزع هواء المبردة الذي انعش صدر السيد، فأخذت عيناه حريتهما، تجولتا في أرجاء الغرفة الواسعة، بعجب وحذر،فالبساطة المتناهية السائدة اذهلته، فلا ترف ولا بذخ!

في الوسط واجهته منضدة خشبية، وضع ..، «سفرطاس»، تهلل وجه الزعيم من رؤيته واعلن بمرح: ـ سبقنا الغداء بالمجيء، سنأكل سوية اذا اعجبك طعامي..

ـ لا نتكبر على نعمة الله القدير.ردّ السيد وهو يجلس د رخاء. شعت عينا الزعيم الشفافتان بالسخرية وتساءل مازحاً حالما فتح الطاسات الاربع: ـ لدينا «دولمة»! اظنك تحبها مثلي مولانا

ـ أكلتنا المفضلة... اللهم زد وبارك.

ـ هذا أكل البيت.. اذا لم يعجبك ارسل بطلب ما تشاء من نادي الضباط. تنهد السيد، رفع يديه شاكراً: ـ الحمد لله.. نحمده على خيراته.. لا نتبطر على المقسوم ـ بسم الله مولانا.. نأكل وندردش.. دعاه الزعيم فشمر عن ساعديه.

لم تكن الوجبة «دسمة»، اذ لم تتعد الدولمة ومرقة باذنجان، مع زلاطة وخبز! لكنها

بالتأكيد كانت ألذ أكلة تناولها السيد في حياته، لذا اقبل عليها بشهية طيبة ونفس مفتوحة.

راح يأكل ويتحدث دون تكلف، واصغى اليه الزعيم بمتعة وانتباه، بدا له جذلاً منشرح الصدر. تأمله حائراً وحاول جاهداً ايجاد تفسير للمعاناة المرتسمة على ملامحه بوضوح.

- بالامس رأيت جنابكم في التلفزيون. قلت مع نفسي: لا يحل مشاكلي غيره. اخذت «خيره» الحمد لله ثلاث مرات طلعت «زينه» لذا عزمت على المجيء.. خرجت بعد صلاة الفجر. توكلت على الله، قلت أصل لكم قبل صلاة الظهر كي اعود للحلة قبل المغرب.

- على الرحب والسعة - حلت بنا البركة.. مولانا.. حلت البركة،قال الزعيم وتابع السيد، عارضاً شكواه: - حبسوا شهيداً.. ابن ابنتي الوحيدة.. الحكومة، حبسته هنا في بغداد! رحنا نسأل عنه، قالوا: روحوا اولاد الكلب.. هذا ابنكم شيعي!

ضحك الزعيم. غمرت وجهه البشاشة، ادرك صدق السيد وبراءته وهو يتمعن في عينيه، قال باستعطاف: بسيطة.. بسيطة..

- ابنتي ستهلك نفسها.. صامت، اضربت عن الطعام.. راحت تدق صدرها وتنتف شعرها كل يوم... كل يوم... لم اعد اتحمل... جئت لتحل المشكلة

- بسيطة.. مولانا.. ايعقل ان نتشرف اليوم بحضورك ولا نجيز طلباتك؟

من سياق الحديث تبين للزعيم ان شهيداً طالب جامعي، اعتقل قبل اسبوع، لذلك اجرى اتصالاً هاتفياً. بعده قال للسيد مازحاً والحمرة تعلو وجنتيه: - مولانا. - حفيدكم شهيد.. شيوعي..

اتقد السيد حماساً واعلن بفرح: - صحيح والله.. انه حسيني النسب من نسل جدنا ابو الحسن.. علي المرتضى.. انه سيد الجدين.

ابتسم الزعيم بعمق وكتم ضحكة كادت تفلت من بين شفتيه، وارسل نحوه نظرة سريعة نفاذة، ادرك من خلالها صدق حديثه - بدا له بريئاً من كل سوء، ولم يشكك في فهمه للامور، فأحب ممازحته ليستزيد وثوقاً: - مولانا.. يقولون انه كافر.. ما عنده كتاب..

امتعض السيد، لاح على وجهه اسف عميق لما يسمعه وهتف موضحاً:

- لا.. لا والله... بيتنا كله كتب.. شهيد يقرأ ليل نهار.. مكتبته عامرة..

عندها قهقه الزعيم حتى لمعت الدموع في عينيه. وقد تأكد لديه بما لا يدع مجالاً للشك ان السيد يتحدث ببساطة نفس.. دون كذب..

- بسيطة.. بسيطة مولانا.. مشكلته بسيطة.. طلبت ملفه.. وبانتظار مجيئه

استحلفك بالله ان تحدثني بما لديك من مشاكل. . اية مشكلة. .

توثب قلب السيد من صدره فرحاً. فلقد نزل كلام الزعيم في نفسه اعمق الاثر فتأجج حماسة وطغت عليه الرغبة في الكلام:

ـ بوركت. . باركك الله. . ولكنني لا اود ان اطيل واثقل عليك. . وقد آخذ من وقتك

ـ اطمئن مولانا. . جئت في يوم مناسب. . لدينا متسع من الوقت. . هات ما عندك عسى الله يمكنني من تقديم الخدمة.

كلام حلو اعجب السيد فاستمد منه الشجاعة، ليفضي بما اعتمر في صدره من آلام وهموم.

ـ ما جئت إلا من اجل شهيد. . ابنتي تكاد تجن وتجننا معها. . .

ـ هذه القضية اعتبرها منتهية. . ان شاء الله. . .

ـ انا لا اطلب جاهاً أو مالاً والله شاهد على ما اقول. . لا اريد شيئاً لنفسي فالحالة مستورة والحمد لله. . لكن. . . المشكلة. . جارنا. . رجل كافر، على عكس اخوته الاتقياء. . تزوج رغم معارضتهم من. . . اعوذ بالله. . . كل يوم يسكر بالليل و، ربد. . هو مع ربعه. . رجوته مراراً ان يدعنا ننام ولا يقلق راحتنا. . لكنه صلف ارعن اضطرنا الى اللجوء للقانون. . اشتكينا لنتخلص من شره فأبتلينا على رؤوسنا. . كل يوم روح تعال. . زهقت. . فذهبت لمدير الشرطة لاشكوه بنفسي ولكنه. . . اعوذ بالله من شر الشيطان الرجيم سكت لحظة. . بلع ريقه وأكمل بصوت ندي تخنقه العبرات. . ـ انه باطل. . لم يكن منصفاً بالمرة. . شتمني وانا بعمر ابيه! انهال عليّ بكلام قذر لم اسكت عنه. . كلت له الصاع صاعين. . غضب فهددني بالتوقيف. . وبالعقاب الشديد اذا لم اسحب الشكوى، أو اذا تعرضت لجارنا الكافر، مما حرض هذا فتشجع وتجاسر. . وبلغت وقاحته بأن رش عتبة دارنا في اول رمضان الماضي ببطل عرق!

ـ استغفر الله. . قال الزعيم في غيظ وتابع السيد قائلاً وهو يهز رأسه: ـ اردت ان اتصل بحضرة المتصرف لكني خفت. . حقيقة خفت. .

لوح الزعيم بيده وهتف مستنكراً: ـ هذا استهتار فاضح، لن نقبل به ولا بالاعتداء على حرمة أي مواطن. . ولن نسكت عنه ـ سنحاسب كل مقصر ولن نرحم احداً مادام ينتهك القانون. .

بهدوء مد يده، سحب ورقة دون بها الاسماء التي وردت على لسان السيد ثم رفع السماعة. . كلم متصرف الحلة «خيري الحافظ»، امره باجراء تحقيق سريع بشكوى السيد ومحاسبة المقصرين مهما كانوا اشد حساب وخوله صلاحية عزل مدير الشرطة اذا وجده مقصراً.

ـ أرجو ان تكون في غاية الاطمئنان باننا سنشد آذان هذا الآثم . . واستحلفك بالله ان كانت هناك مشكلة اخرى ـ تضايقك . .

سأله بدافع الرغبة لحب الاستطلاع ، وعلى شفتيه بسمة تعاطف ، ودلت ابتسامته العميقة على الثقة المفرطة بالنفس ، مما حفز السيد علي الكلام . اشرقت الفرحة في وجهه وهو يقول :

ـ نعم ، مادمت وصلت اليك فلماذا اسكت؟ سأتكلم . . وهي المرة الاخيرة . .

صمت لحظة ثم أكمل وامارات السعادة تشع من جوانبه ، فيما بسط الزعيم يديه راضياً منستأنساً ، وشرع يصغي في تنبه واحتراس .

ـ ابني عطار في الارضوملي ، بعلاوي الحلة ، قرب سينما بغداد . كل يوم يمر عليه وعلى المحلات المجاورة واحد شقي . . شقاوة اسمه غضبان ، يأخذ منهم (خاوه) . سكت برهة ، هز رأسه ، تنهد وزفر غير ان عينيه كانتا فرحتين ، واخذ صوته يختلج بالتهدج . وتعلق بصر الزعيم على شفتيه فيما عبرت عيناه عن عدم الرضا .

ـ عنده والعياذ بالله امرأة . . . ، كلما رأتني في محل ابني تتحرش بي ، ترفع ثوبها امامي ، وتكشف عن ساقيها ، وترشقني بألفاظ نابية . . حاول ابني صدها ذات يوم فضربه غضبان . . وظل على الدوام يعتدي على ابني ويهينه . . كل ما اريده منك هو ان تبعده عنا وتكفينا شره .

لمعت الضراوة في عنق الزعيم ، تغيرت ملامح وجهه حتى تضرجت من شدة الانفعال فضغط على زر امامه ، وناشد الحارس بلهجة مؤدبة : ـ اريد السيد الرفيعي . وما هي إلا لحظات حتى دخل مدير الاستخبارات العسكرية ، ادى التحية . واجرى معه الزعيم حواراً قصيراً يتناسب مع مركزه ، ثم خاطبه والسخط يغلي في شرايينه ـ «خاوه» في عهد الثورة! ايحدث هذا في بغداد حقاً؟! هل نامت عيون رجالك؟ بحيث فاتها ان تعرف ان مهام رجال الشرطة اصبحت منذ فترة تشوه وجه الثورة فقط! هذا الشقي اريده معتقلاً مع صاحبته قبل المغرب . قدموهما الى المحاكمة بعد اجراء التحقيق اللازم .

تنصت السيد مذهولاً ، كانت عيناه محمومتين بالرغبة في معرفة ما سيحصل . وكبح في نفسه شعوراً كاد يدفعه لان يتوسل بالزعيم ليخفف من غضبه على من اشتكاهم ، لكنه ظل صامتاً حتى عندما راح الزعيم يلاطفه وهو منهمك بالتدقيق في الملفات التي جيء بها ، بناء على طلبه .

وأضاءت عيناه بومضة الشكر والتقدير ، حين سمع الزعيم يعلن بثقة : ـ شهيد . . سيعود معك الى الحلة معززاً . . سيطلق سراحه هو وجماعته فوراً . لقد اعتقلوا دون سند قانوني ، وبعد وشاية حقيرة . ـ بشرك الله بالخير . كثر الله خيرك وبارك لك عمرك .

هتف السيد معرباً عن فرحته، وظل يستمع باعجاب لنصائح الزعيم قبل ان يهم بالنهوض: اسمح لي بالذهاب، اخذت الكثير من وقتك. اعترضه الزعيم باشارة من يده، استنار وجهه وهو يقول برجاء. ـ تفضل مولانا. . خذ راحتك فمازال امامنا ساعة، ستأتي به سيارة خاصة وتأخذك معه الى الحلة. دعني اتبرك بحضورك واتشرف بالحديث معك. ثق بانني سأكون برسم الخدمة يا مولانا. . وعلى الدوام.

اطرق لثوان وأكمل مربتاً على كتف السيد في تحبب اثر جلوسه: ـ هذا كارت خاص، كلما اردت المجيء قدمه للحرس. يسعدني مجيئك في أي وقت تشاء يا مولانا. . . وهذا الظرف، ارجو تسليمه لشهيد هدية بسيطة. . .

دسهما السيد في جيبه وهز رأسه، وتمدد في استرخاء. اخذت عيناه حريتهما، تمعنتا في ارجاء الغرفة ومحتوياتها ثانية، بعجب وحذر. من جديد اذهلته البساطة المتناهية فلا ترف ولا بذخ. فردد بانشراح:

ـ سآتي. . بالتأكيد سآتي. . ولكن. . ليس من اجل شكوى. . بل من اجل رؤيتكم.

تموز ١٩٨٠

اين نذهب براياتنا

بات الشيخ الثائر المؤمن غريباً في منفاه في ارض جرداء متناهية الاطراف بعيداً عن مقر الخليفة الثالث. فكانت العزلة عقوبة لغير ذنب اقترفه وكان المنفى آخر مأواه. رحل الشيخ المجاهد دون ضجيج وخلف رحيله ضحكات السلطان ولعنات بني أمية. فمات ولم يترك سوى راية الحق التي قارع فيها ظلم الولاة. ولقد رأيت لنفسي اطمئناناً وراحة ان اكـون تلميذاً لهذا الشيخ. فآليت على نفسي ان اخرج خلف الراية الغفارية اتنقل بين الامصار داعياً ومحرضاً. لم يغرني مال أو جاه. توعدت السلطان بنصر الحق وتوعدني بالـرفض وبالهجر. فخذلت ولم أفِ بوعدي، ولكن السلطان الغالب برَّ بوعده. فطارت رسله حاملة رسائل الموت وغارت خيوله منتشرة في الاصقاع وغزت فرسانه ارض الله جميعاً وجرت عيونه تلاحقني بحثاً عن الراية الغفارية التي ادعى انها راية الخوارج أو انها راية الزنادقة واصحاب البدعة. فاحتجت الشيخ ساعتئذ وتوجهت بوجهي شطر الربذة منادياً ومناجياً: «سيدي ابا ذر ان الخيل تطاردني ورسل الولاة تطلبني حياً أو ميتاً وها أنا عجزت الأمصـار بتـرحالي فأين أمضي؟ أنشدك النصيحة فأنت أعلم بحال الأمراء وأدرى بمكر السلطان. وقبـل أعـوام نصحني غلاة الـوعـاظ من أصحـابنا بكلام حسن الظاهر غني الباطن. . قالوا لي صن عهد الله وعهد الفقراء وكن تقياً ولا تنس أرض الآباء وتحدى بالحق سلطان الأمراء، وإذا نزلت بأرض قبّلها ولا تترك عهد الشيخ أبي ذر ولا تنس مسعاه. .

واحذر أن تغرق في أفكار هوجاء من أفكار الروم وقياصرة العصر. واحفظ شرف الشيخ ما أمكن واحفظ شرف الراية ما أمكن. . فحفظت ماقالوا مثل حفظي للكتاب وتغنيت بوصاياك «بكرة وعشياً» ولوّحت برايتك مفاخراً «جزاء بما كانوا يفعلون». إن تقادم السنين ياسيدي الجليل غيّر بعض أصحابك كما غير عقولهم وأفكارهم. فإن لكل زمان حالاً. فهم ليسوا كما عهدتهم «لاتأخذهم في الحق لومة لائم». فقد توافدوا على أرض الروم بعد أن شُنت الغارات عليهم وحرمت عليهم الأوطان. . ولقد نقض بعضهم بيعتنا. . فهم كما يبدو على أحسن حال من المال والعيال،لقد وجدتهم في حل من وصاياهم التي حملوني إياها في السنين الخالية فهالني الأمر كثيراً واستصعب علي الحل. فحاججتهم عما هم فيه من غي. فقلت لهم: «لماذا تبيحون لكم مامنعتم عليّ بالأمس». فقال المكابرون منهم: «هرم أبو ذر وهرمنا فدع عنا تلك الأفكار البالية واحسرتاه لما مضى». . والتقيت بملأ آخر منهم حيث قالوا: «إننا لانقوى حقاً على مقارعة الولاة، فهلم معنا نستقر بعز القيصر ونعيش في فيئه وننعم في داره كما فعل أهلنا من المناذرة والغساسنة في بلاط الروم والفرس، وإذا اشتقنا إلى دار الإسلام واشتد بنا الشوق إلى الأهل والضياع التي فارقناها منذ زمن طويل فسوف نعود بلا شجن ولا وجل. فسندخل أرض الشام وبلاد مابين النهرين وأرض الجزيرة وأمصاراً أخرى بأوراق الروم وأختام القيصر، وأنت تعرف ياصاحب أبي ذر ما لنا في الجهاد من مواقف مشرفة وفي نشر الدعوة من فضل كبير، فلا تحسبنّ دخولنا أرض العراق خيانة.فليس لنا هناك حاجة أخرى سوى الشوق"وما نراك بمكذب لقولنا وإنك لصاحب عزيز. . .».

وعلى مشارف قصر القيصر كانت تتحاور مجموعة أخرى من أهل العراق. قالت: «لاينقذنا من ظلم الحجاج إلا القيصر». . قلت: «يامعشر الخير ماأظنكم على صواب. فإن بين الحجاج والقيصر وشائج لم تنقطع بعد وقوافل الزيت والنفط أهم من محنتكم». قالوا: «لاياصاحبنا إن الصلات قد انقطعت وإن المياه قد تعكرت بعد أن اجتاحت قوات القيصر تخوم أرض السواد في موقعة القادسية الثالثة، إن القيصر ياصاحب أبي ذر هو وحده القادر على دحر الحجاج وليس رعية الأمصار. فالقيصر بسلطانه الواسع وبماله وخيوله قادر على ذلك. . واعلم ياصاحبنا أن القيصر كما تعرف يمقت أبا ذر وأصحابه وهو ينوي أن يؤاخي بين الدارين، دار الحرب ودار الإسلام. فدع الأمر بيننا سراً ولا تبح به لأحد، فإذا عرف ما نحن عليه من ولاء لأبي ذر فسوف يخيب آمالنا وسوف يهدر دماءنا ويستبيح أموالنا ونساءنا. فاحفظ علينا سرنا حفظك الله. . ولا تيأس من رحمته وعطفه. . فحكمة القيصر هي حكمة نظام الكون الجديد. فهو منفذ لمشيئة الخالق وملائكته الستة باركهم الله جميعاً ويسّر أعمالهم. فهم تقاة لايريدون بنا إلا خيراً. . فلقد بلغ السيل الزبى والحزام الطبين وكثرت الغارات على أهلنا وعيالنا. . فإن لنا في الستة المباركة واحداً من أهل ذمتنا ينتصر

لنا بسبب صلة الرحم والقرابة. فدعنا ياصاحبنا بعض الوقت عن أبي ذر فلربما سنعود إليه بعد وصول الهدف وبلوغ الغاية ونرجو الله أن يهديك معنا ويجنبنا جميعاً الخلاف والشقاق لما فيه صلاح هذه الأمة. . لقد خرجت منهم ياسيدي هائماً على وجهي. . لاأدري ماذا أفعل، ووجدتني معك في المنفى في خيمة تعبث فيها ريح الصحراء ورمالها. ياأبا ذر أخشى أن يقال عن صاحبك متحجراً معتوهاً يهذي من شدة مرضه وفرط وحدته، أو أنه مصاب بإحباط لابراء منه وبداء لاشفاء له. . وإني إذا عزفت عن القوم أخشى أن أفرد افراد البعير الأجرب. . وأقسم بالله ياصاحبي أني لست بيابس ولست بطري، وإني صحيح الجسم، صحيح العقل كامل الأعضاء وما بي من داء أو عاهة تذكر، سوى أني وجدت في جرأتك في مجالس الخلفاء، ومقارعتك سلطان الأمراء مثالاً للاقتداء والاحتذاء، ووجدت في نهجك ونهج أهل البيت ضالتي، وآليت على نفسي أن لاأحيد عن نهجكم ولا أميل إلا لغيركم. وليس في التزام الحق عيب ولا في الوفاء والإخلاص مذلة. . كما أني لست محبطاً أو قانطاً إنما مؤمن باليوم الذي لابد منه، فلكل أمر نهاية ولكل عمل غاية. فعسى أن تكون نهاية أمرنا خيراً ومنتهى غايتنا عدلاً ورفاهاً وجلّما في الأمر ياصاحبي «إن أخبار القوم ليست على مايرام. فقد استحوذ الشيطان على بعضهم فزاغت قلوبهم وأصابهم الملل فاختلفت عللهم وتعددت أسبابهم وكثرت همومهم. فهناك من لم يتوقف عن الهذيان ويرى براءة نفسه في كشف عورات غيره. .

«وهناك من زاغ عن السبيل وركب الموجة وهناك من وقف في منتصف الطريق يائساً غير مكترث بسبيل الله. . ومنهم من أغراهم الولاة فنقضوا البيعة. والكثيرون آثروا السلامة عند القيصر الذي تعهد بأغلظ الأيمان بزوال الحجاج، وبحماية المسلمين ورد الغارات عنهم ورفع الحيف الذي لحق بهم كما أنه وعد بأن تكون الراية مثلما طلبت قريش أيوبية والجحافل إسلامية. . فإذا التقى الجمعان وتشابكت القنا فأين نذهب براياتنا. ؟».

مجيد ـ برلين ـ ١٩٩٢



فيصل



مع سهام حسين علوان

فنانة اللاجئين في الدانمارك

فنان اللاجئين في الدانمارك لقب يمنح سنوياً لاحد المبدعين الاجانب الذين اضطروا الى اللجوء الى الدانمارك تخلصاً من ملاحقات حكامهم. وقد نالت الفنانة العراقية سهام حسين علوان اللقب لهذه السنة. وبمناسبة هذا التكريم المميز اجرى الزميل داود أمين معها الحوار التالي:

■ ما معنى فنان اللاجئين؟ وهل هذا التقييم قديم؟

هذا اللقب يمنح سنوياً لفنان لاجيء في الدانمارك، وأنت تعرف جيداً بان الدانمارك تضم ألوف اللاجئين ومن مختلف القوميات والاجناس، وبين هؤلاء عدد غير قليل من المبدعين في المسرح والسينما والموسيقى والتشكيل وغيرها من الفنون، ومن بين هؤلاء

يجري اختيار تقوم به لجنة خاصة، لفنان واحد في السنة، يمنح هذا اللقب والتقييم عموماً غير عريق فقد بدأ منذ خمس سنوات واعتقد انه سيستمر.

■ هل هناك مواصفات محددة لمنح هذا اللقب؟ بمعنى حجم ونوع النشاط الابداعي الذي يقدمه الفنان اللاجيء؟

من الضروري في مثل هكذا تقييم وجود مواصفات وشروط معينة كمستوى الابداع، والمستوى الفني والانساني في محتوى وشكل ما يُقدم، كذلك شخصية المبدع واخلاقيته، علاقة المبدع بالآخرين وانعكاس هذه العلاقة ايجابياً على فنه، كل هذه الامور وغيرها أُخذت وتُؤخذ بعين الاعتبار عند تقييمه.

■ هل كانت هناك منافسة على اللقب بينك وبين آخرين، وكيف حسمت لصالحك؟

لم ادخل في منافسة مع احد، اذ لم تكن الجائزة أو اللقب يعنيني، كنت اعمل طوال السنوات الماضية دون ان افكر بان هناك لقباً سأناله، ولكني عندما ابلغت بترشيحي لنيل اللقب، علمت ان هناك اربعة فنانين آخرين، كانوا مرشحين معي لهذا العام، ولكن تصويت اللجنة أو نقاطها أصبحت لصالحي، أما لماذا حصلت على هذا اللقب؟ فعدا الاعمال الفنية في المسرح والسينما التي قدمتها، وهي كثيرة اذا ما قيست بالفترة الزمنية القليلة التي امضيتها في الدانمارك، فاعتقد ان مساهماتي الاجتماعية كانت غير قليلة ومعروفة لاعضاء اللجنة، كانوا يعتبروني امرأة نشطة وامرأة مستقلة وقادرة على الحركة والنشاط بالرغم من التزاماتي الزوجية، ان لدى الدانماركيين تصوراً بأن المرأة في الشرق، وفي بلداننا العربية، متخلفة وسلبية وتابعة للرجل، امرأة مكبلة بالتقاليد البالية والعادات المتخلفة، لذلك فأن امرأة عربية تعمل في المسرح والسينما وتساهم في النشاطات الاجتماعية والثقافية هو امر يلفت انتباههم ويحظى بتقييمهم ويصحح من الصورة الخاطئة الراسخة في اذهانهم.

■ اللقب الذي حصلت عليه، هل يتضمن امتيازات معينة ـ عدا الجانب المعنوي، بالطبع؟

الامتياز الاول الذي تضمنه هذا اللقب هو الاعتراف بأني فنانة وهذا امتياز كبير اعتز به كثيراً.

كما ان هذا اللقب منحني القدرة لتقديم اللاجيء كنموذج ايجابي وهذا امر هام في محيط تتشوه فيه صورة اللاجيء وتختصر كمتلقي سلبي لا يهمه سوى الأخذ ودون أي عطاء.

كما ان اللقب وفّر لي القدرة على الدراسة المتخصصة للمسرح في أي مكان، وكذلك المشاهدات المسرحية في أي بلد في العالم.

■ **من المؤكد ان مثل هذا التقييم ترك انطباعاً عميقاً في نفسك، هل يمكن رسم صورة لمثل هذا الانطباع عليك وعلى اصدقائك ايضاً؟**

(ضحكت سهام) لا اكتمك انني فرحة جداً بمثل هذا التقييم، وفرحي ينبع من كوني لم انتظر مثل هذه النتيجة عندما كنت اعمل، في حين ان الآخرين كانوا يتابعون عملي ونشاطي.

لقد شعرت بأن الانسان المبدع قادر على التقديم والنجاح في أي ارض وتحت أي سماء.

أما أصدقائي فقد احسوا بالفرح الذي أحسست به، وقد عبر الكثير منهم عن فرحه، ووقفوا الى جانبي وساعدوني في عملي، خصوصاً زميلي الفنان سلام الصكَر الذي اخرج العمل الاخير.

■ **هذا التقييم وضع على عاتقك مسؤولية ليست قليلة؟ بماذا تفكرين للمستقبل؟**

حقاً لقد وضع هذا التقييم على عاتقي مسؤولية كبيرة. اصبح لدي اسم معروف الآن، وعلي ان اقدم الاجود والافضل على الدوام، وهذا ما سأسعى اليه وآمل ان انجح في مسعاي.

أما خططي للمستقبل، فسأعمل في مسرح (فيئول ثيتر) بناء على طلب المسرح نفسه، وسيكون عملي خاصاً بالاطفال ويقدم في المدارس ودور الحضانة، وهناك عروض لاعمال اخرى لم تحسم بعد.

■ **لقد استمعتُ للكلمة التي القتها المغنية الدانماركية (انيكا هويدال) وأحسست انها كانت مؤثرة جداً، فقد شاهدناك تبكين اثناء القائها؟ من اين لها المعلومات عنك؟**

(تصمت سهام وكأنما تسترجع الكلمة التي قيلت فيها وتتذكر مشاعرها لحظة القراءة).

لقد أحسست ان الكلمة عبرت عن دواخلي، فأنا لم اختر هذا المنفى ولست مبهورة به، لقد اجبرت لكي اكون هنا، والكلمة قالت كل ذلك.

أما المعلومات التي احتوتها الكلمة فالعامة منها مني، ولكن هناك معلومات خاصة ادهشتني ولا اعرف مصدرها ومن اين استقتها الفنانة الدانماركية، ولكن بالرغم من خصوصية الكلمة فقد عكست بصدق واقعنا العراقي، وعبرت عن معاناة شعبنا ومبدعيه، كانت كلمة ادبية مؤثرة، لذلك كان تأثيرها عليّ واضحاً وكبيراً.

■ **كيف تقيمين التغطية الصحفية والاعلامية للحدث، هل كانت مناسبة؟**

كانت هناك تغطية كبيرة للحدث، اذ ارسلت صوري لجميع الصحف والمجلات الدانماركية باعتباري امرأة من الشرق الاوسط تمنح هذا اللقب، وهذا يحدث لاول مرة في الدانمارك. كما ان التلفزيون اهتم بالحدث ايضاً، وعرض بورتريت لمدة ثماني دقائق عني، ولازالت الصحف تتصل بي لاخذ احاديث مني، وقد لعب مكتب اللاجئين دوراً في ذلك في البداية، ثم اخذت وسائل الاعلام نفسها تهتم بهذا الامر.

■ **واخيراً هل لديك ما تقوليه؟ قلت لسهام.**

لدي الكثير، ولكن يمكن تلخيصه. في فرحي بموقف زملائي واصدقائي، موقف اعتز به ولن انساه، موقف زوجي خليل والزملاء كمال السيد وطالب غالي وحيدر ابو حيدر وماجد وابو نهران وغفران وابو طالب وصديقي العزيز الفنان المبدع سلام الصكر.

حوار داود أمين

نص كلمة الفنانة الدانماركية انيكا هويدال في الحفل الذي اقامته مؤسسة الاجانب الدانماركية، تكريماً للفنانة سهام علوان.

عزيزتي سهام علوان. . .

تملكتني السعادة وغمرني الفرح وشرفني حين سُمح لي ان اتحدث عن انسانة مثلك «امرأة وفنانة» من العالم العربي، العالم الذي لا نعرف عنه سوى القليل. ببساطة ان الانطباع السائد عندنا عن المجتمع العربي ان هذا المجتمع بجميع افراده ما هم إلا «مسلمون اصوليون» لا يعرفون غير الحروب المقدسة. المرأة عندهم قابعة وراء الحجاب، مضطهدة ولا تتمتع بأبسط حقوقها.

وتأتين أنت يا سهام وتمزقين هذه الصورة، صورتنا عنكم، ترفعين الحجاب وتسمحين لنا بالتحديق في عالمك. لقد ولدتِ ونشأتِ في العراق، اكملت دراستك الجامعية هناك، وفي تلك الفترة بدأت تشقين طريقك في عالم الفن، عملت في احدى مؤسسات الدولة، تزوجتي واصبحت حاملاً، ويمكنني تخيل صورتك في تلك الفترة، بكونك شابة سعيدة، مليئة بالنشاط والحيوية، عصرية، تمتلكين القدرة على القول بنعم ولا، وأم مشرقة.

ويجيء زمن يتبدل فيه الحال وتضيق الدائرة من حولك ويتعرض فيه اصدقاؤك وزملاؤك للتحقيقات، المطاردات، الاعتقالات، الموت.

حاولت ان اتصور نفسي في ذاك الزمان الذي كنت فيه وتساءلت كيف كانت دورة حياتك اليومية؟ أكيد روتين الحياة المعتاد: الطعام، النوم، الذهاب الى العمل، التزاور مع العائلة والاصدقاء. الخلاصة: الايام تأخذ مجراها. لكن هناك كان شيء آخر احسستُ به وعرفته شيئاً ابعد من روتين الحياة اليومية، هذا الشيء هو الخوف: دوماً كنتُ متوجسة، حذرة، محترسة، حذرة لما يتفوهه محدثي، لماذا؟ ولمن؟. القلق كانَ يتلبسني ولم يكن المرء بقادر على الاحساس بالاطمئنان. فالخوف كان سيد الموقف واكبر الخوف كان من ان يزلّ اللسان ويجلب آخرين للمصيدة.

اخضعوك للتحقيقات عند الامن السري ,اخبروك ان لديهم معلومات عنك. حاولوا ان يجبروك على الادلاء باعترافات عن اصدقائك ومعارفك. رفضتِ واحسست انك مهددة في آخر تحقيق. وفي مساء متأخر جاءكم الامن، قرعوا الباب وايقنت حينها انت وزوجك «ان الامر قد حان». لم تفتحوا الباب، تظاهرتم بعدم وجود احد في الدار. هربتم بعدها سراً، تركتم بيتكم خلفكم، ممتلكاتكم، العائلة والاصدقاء، وكنت انت حامل في الشهر السابع. لجأتم الى لبنان الى حيث الحرب الاهلية، وهناك ولد طفلك «سلام» والذي معناه السلم، وكانت اول كلمة ينطقها ابنك هي صوت الحرب، وحين اصبح الوضع قلقاً في لبنان شددتم الرحال الى سورية.

حين اكتشف الامن السري في العراق «ان الطير قد طار» بدأوا التحقيق مع عائلتك، ضربوا امك على اخمص قدميها وصدرها، واحرقوا جسم اخوك بالسجائر المتوهجة، مما اضطر اهلك الى اللجوء لبلدان عدة الى ان انتهى بهم المطاف للجوء الى هنا،الى الدانمارك البعيد عن وطنهم. وبعدها التحقت انت بهم، جئت وعائلتك الصغيرة، جئتم الينا. نحن سعيدون ومرتاحون لوجودك معنا، وهذا لا يعني بأننا نريد لك البقاء هنا بل اننا نأمل في ان تعودي يوماً ما الى وطنك،الى عراق ديمقراطي حر.

عزيزتي سهام، أي فكرة سكنتك، وأي شعور راودك عندما اغلقت جميع ابواب الوطن خلفك؟ أي تمزق ينهشك حين تجدين نفسك اسيرة تقاليد ليست تقاليدك وثقافة ليست ثقافتك؟ أي شوق تنوئين بحمله لسماع ايقاع صوت لغتك الجميلة وضحكات ابناء وطنك من حولك؟ وأي اشتياق تحملين للمكان حيث الجذر هناك، تتفجر فيه الاحاسيس الداخلية ويتعالى فيه الصوت وتفوح فيه رائحة الارض.

سهام اسمك يعني «جمع سهم»، وانت مازلت دائماً ترمين سهامك بقوة وبعمق لثقافتك لجذورك، لآلامك، لمبادئك، لكبريائك، لارادتك، لنضجك، ترمين السهام لقلوبنا فتتوهج الفرحة وسط هذه القلوب.

معرض للفنانين اللاجئين في رفحاء

أصابع مقطوعة.. تلوّن الغبار

واصف الشنون

الفنــان كتلة الــوجــع والتمــرد والــرؤيا البِكــر. . . الــرؤيا المتحدة دوماً مع الفجر والنبض. . وشم الحضارة. . ودلالة تقدم بني البشر. .

الفنــان ـ لاجئــاً ـ يحمــل أرضــه، وشواطئها وطرقاتها ومساءاتها عيون أهله. . امداء آمالهـم ـ آماله ـ الرحبة التي يلونها ليجعلها ممكنة. .

الفنان ـ لاجئاً عراقياً ـ يؤكد الحياة.

بتاريخ ١٩٩٢/١٠/٢٤ أقام الفنانون التشكيليون العراقيون معرضهم الأول على قاعة المكتب التعليمي والثقافي بمخيم رفحاء. .

اشترك بهذا المعرض ٢٦ فناناً تشكيلياً وقدموا أكثر من ٢٠٠ عمل فني. . توزعت بين أعمال الرسم، وأعمال الخط. وسأتناول هنا أعمال الرسم فقط. . وفي موضوع آخر سألقي نظرة على أعمال الخط. .

تنــوعت الأعمــال التشكيلية (الرسم) فكانت هنالك أعمال أكاديمية وواقعية وتعبيرية وتجريدية. . وأعمال الملصق السياسي وبعض أعمال الكولاج والكاريكاتير.

حرص الفنانون في لوحاتهم على تأكيد قضية العراق وشعبهم ومعاناته. . وما اقترفت الـديكتـاتـورية البغيضـة من جرائم. . فقـد جسـدوا معـانـاتهم ومعاناة وطنهم (الأرض الأولى). . الــذي تركــوه قسـراً أو بتـراً جراء الحـروب والاضطهاد. . مودعين، الأهل،

والنخـل، والنهـر. . ومخلفين وراءهم طيش السلطة والأعـوان. . والفوضى . . وشوارع الدم. . ووجوه الأيتام والأرامل. . والفساد المنوع. . والجوع العام. . والدعارة الرسمية. . والخيانات، والابتذال الفني والأدبي. . والسخافة، وكذلك آهات الأمهات. . كل ذلك انتصب في الذاكرة التي اشتبكت مع الصحراء والغبار والضياع والحسرات. . وتركوا لها (الـذاكـرة) أن تنـزف. . والأصابع المقطوعة أن تجسّد، فظهرت لوحاتهم الفنية متعددة الأساليب والمناهج التشكيلية. . لكنهم لم ينسوا، وهم في خضم تلك المعاناة والحياة الصحراوية العزلوية، عملية الإبداع الفني. . ولم يتنازلوا عن تلك العملية لصالح الخطاب السياسي العاطفي المحض. . فهناك تجديد مميز وفرادة بارزة عند أكثر من فنان. .

لقد كان المعرض دهشة مضاءة وملونة لجميع من حضر الافتتاح ومن شاهده في الأيام التالية. فقد عمل الفنان (علي مكي) في لوحاته الأكاديمية الموسومة بـ (صور من بلادي) على إبراز صورة العراق الجميل بشواطئه وقراه وجباله وشناشيل أزقته القديمة. . لقد جمّل أعيننا بالحلم العراقي. . حيث الهدوء والدفء والمحبة. . كانت ألوانه، لون العراق الفسيح المتسع. .

ومن ثم انتقل إلى عمق الألوان والصور. . مستخدماً أسلوباً فريداً في إغناء اللوحة بألوان وخـطوط تشير بوضوح إلى المخيلة البضة والتجريد الداخلي المعبّر عن إحساس الفنان الـدائم بالتمزق والاحتراق. . والخوف المقلق. . إنه يحطم الصور بمعنى كامل. . إلا شكل (مفردة) الكرسي الذي تكرر في عدة لوحات. . الكرسي الذي يبدو لي أن (علي مكي) قد استخـدمـه خير استخـدام، فالكرسي هو التوازن الثابت. . وهو السلطة. . والحكم. . وهـو الاستقرار. . وهو الاستراحة. . وهو الملل. . لأنه رمز (للوظيفة) التي تستمر في وتيرة واحدة. .

لقد دحرجه علي مكي في الهواء مرة. . وتحت الأرض مرة أخرى وبين خلايا الكائن مرات. . وجعله متلازماً بلا مباشرة مع لون (القهوة)، وقد استخدم مادة القهوة فعلاً لإبراز اللون الحقيقي وليؤكـد تجـريده. . وإمكـانيتـه اللونية. . وعمق تجربته (٧ سنوات في أكاديمية الفنون الجميلة / بغداد) فيميز عمله الإبداعي. . كفنان له مستقبل مرسوم في هاجس الفن العراقي. .

أما الفنان جعفر حنون طاعون فإن غزارته في التخطيط والأعمال المائية والكولاج، طوال سنة ونصف صحراوية، أدت إلى طرقه أساليب جديدة ومتجددة في عمله الفني. . واستطاع أن يصوّر خطوطه وتفاصيلها وألوانه بشكل واضح ومثير. . وأكد ذلك من خلال تواصله مع صحافة المعارضة وصحف أخرى التي نشرت بعض أعماله في لندن ودمشق والرياض.

لقد تخلى (طاعون) عن إبراز الأشخاص والكيانات في اللوحة لصالح اللون. . فقد سحقها وطحنها مع ألوان اخترق فيها اللون الوحيد للصحراء متشبثاً ومتصوراً أخيلة ترقص فيها حيوات ورموز دقيقة بهيجة. . ولكن بعض ألوانه أخذت شيئاً من القتامة الضرورية بحكم الزمكانية. .

كما استفاد (طاعون) من اختصاصه الغرافيكي غاية الاستفادة في عملية التشكيل (إجمالياً). . والذي اقترب بتماس من التجارب العراقية ذات المستوى العالمي من حيث التصنيف المدرسي للفن التشكيلي وحلّق بأعماله المائية الدقيقة. عالياً مكرساً أسلوباً ونهجاً فنياً يحث على التساؤل والدهشة والبحث. . ويشرك المتلقي تلقائياً بحوار لاينفك مع أهداف اللوحة وروعة الإبداع.

أما الفنان ياسين عبود فقد كان المحرض الكبير. . ضد الدكتاتورية وجرائمها في المعرض. . وشحذ كامل مقدرته الفنية في تبني قضية العراق المنكوب وشعبه المضطهد. . وماتعرض له من غبن متعدد الأوجه والأشكال والطرق. .

كانت قضية العراق تغطي كل أعماله، التي تقترب جميعاً من فن الملصق السياسي، معتمداً ومستفيداً من فن الكولاج (التلصيق) كأداة فنية يصعب على غير الصنّاع المهرة استخدامها. . فقدّم لنا أعمالاً فنية سياسية الطابع ذات جمالية جذابة وأسلوب متميز في هذا النوع من التشكيل. .

وقدّم ياسين عبود في عرضه أعمالاً صغيرة. . هي عبارة عن تشكيلات لونية متناسقة بهارمون موسيقي وشاعري، عبر خطوط وانحناءات ملونة نابعة ومتصلة مس وبالأرض والسماء والقمر والشمس والجبل والشواطىء وورق الشجر. . فحصلنا على جماليات صورية ونوافذ واسعة الفتح لتفريغ القلق الذاتي. . لطرفي المعادلة: الفنان والناظر. . . أمنيتنا أن نرى هذه الأعمال وقد نفذت بالزيت لتأخذ مساحتها الفنية الأوسع.

أما الفنان سعد الموسوي فقد نوّع أعماله بين التعبيرية والتجريد واتخذ من (الرجل السومري) قاسماً مشتركاً يربط بين أعماله التعبيرية. . فإننا نرى معالم ذلك الرجل وقد دفنت في الغبار. . أو قد قطع رأسه عن جسده المتحجر الموشوم بوردة صباحية. . ونراه في لوحة أخرى وقد حددت رأسه أحداثيات الاغتيال وأخرى قد نمت له أجنحة. . وأخرى عازفاً للناي. . كانت تلك الأعمال قد شبعت بألوان الحياة. . فهناك البنفسج وهناك الوردي وكل الألوان ذات الشفافية المبهجة. .

إن سعد الموسوي، في إلحاحه الربطي الواضح بين العراقي والسومري، يعطي لمفهوم الحضارة أساساً لمنطلقه الفني، وحافزاً لتواصله الفني رغم الركود الصحراوي.

وقد غاب (أبو عبد الله الرماحي) في الافتتاح لكن لوحاته أكدت حضوره. . لقد

اعتمد في لوحاته المائية التعبيرية (الميثولوجية الشيعية) ومفرداتها التأريخية المؤثرة في الضمير الشيعي المتوارث (يذكرني بكاظم حيدر وشاكر حسن آل سعيد) . . تميزت تلك اللوحات بشفافية لونية عالية وتوزيع موفق للكتل في لوحات صغيرة المساحة . . لكنه أجاد بدقة استخدام الفرشاة.

وكذلك فإنه اعتمد مفهوم (الشهادة) في لوحاته (أبيض ـ أسود) . . كانت كل لوحة مشحونة بالمعنى الخطابي الثائر بفوهات البنادق والشكل المتفرد للنسوة الحجابيات المساندات والرجال المعصوبين المعطلين عن الفعل . . فليس هنالك أي فراغ غير السماء المكتظة بصيحات المنتفضين وصراخ النسوة . .

كان أبو عبد الله الرماحي غزيراً بعاطفته الحسينية مفرغاً شحناتها بشكل كثيف وملفت على ورق اللوحة، فحقق بذلك أسلوباً ذا قوة تعبيرية متدفقة بالثورة المستمرة.

أما الفنان حازم محمد رضا، فقد أجاد في تنفيذ أحد بورترهاته (الأم) إجادة متقنة ورائعة من حيث اللون والخطوط والتعبير . . وأعطانا لوحة عراقية مؤثرة ذات معالم تجذب الناظر ـ اللاجىء ـ وتربطه بعاطفة حارة وبالغة الحس وتعيده فوراً إلى دفء حضن أمه المفقود.

كما أن أعماله المائية الأخرى (البغداديات) التي تقترب من حيث الأسلوب من أعمال فنانين عراقيين آخرين (حافظ الدروبي) نفذوا جداريات معروفة باسم البغداديات، فقد كانت عبارة عن حشد احتفالي غنائي من ألوان براقة بانحناءات ودوائر وأقواس متداخلة ومفردات صورية من ألف ليلة وليلة، والحياة العراقية، فهناك الأبواب، والشبابيك، ومصباح علاء الدين، والقباب والديكة وآلة العود والمبخرة . . إلخ . . فكانت البغداديات عملاً فنياً واحداً مجزءاً إلى عدة لوحات تتجانس مع بعضها لتقدم لنا عملاً تشكيلياً رائعاً.

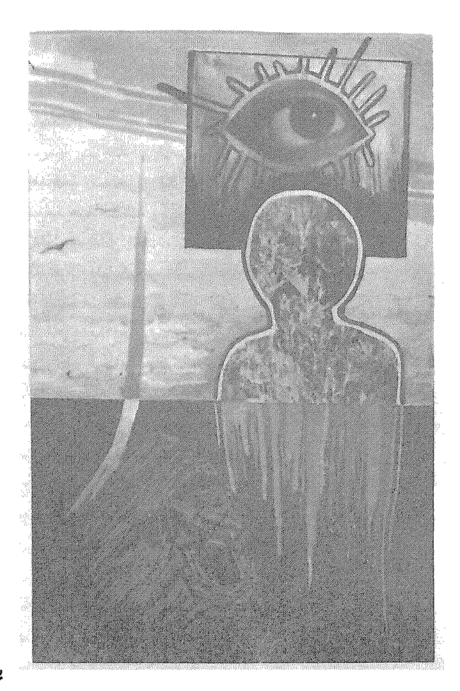
أما أعمال (عادل رشاد، ليلاس، حيدر نعيم، كريم بدر، حيدر الشنون، علي سعود شايع) فلم يتوضح من خلالها أسلوب خاص أو نهج أكاديمي يميزها. لقد تفاوتت بين أعمال أكاديمية وواقعية وتعبيرية وتجريدية وبأساليب مختلفة في بسط اللون ودقة الخطوط . . وبناء اللوحة.

فهناك أعمال واقعية وأكاديمية متقنة . . وهناك أيضاً . . يبرز ضعف واضح في بعض منها . . أما بالنسبة للأعمال التعبيرية والتجريدية فقد صاحبتها الجرأة الاقتحامية في التعامل مع اللون وملء فراغ اللوحة بشجاعة، فقد تميزت بمحاولات تغريبية لونية . . نتأكد منها على أن هؤلاء الفنانين سوف يحققون أسلوباً فنياً معيناً في حالة تواصلهم وإصرارهم على تطوير أدواتهم الفنية وتعميق تجربتهم الأكاديمية . .

أما البقية (هادي عبود، حيدر الوائلي، علاء منصور، علي عبد العالي، **قصي**

الغـالبي) فإن أعمـالهم تتنـوع بين الملصق السياسي والكـاريكـاتير والتخطيط الأولي، ومحـاولات تتسم بنوع من التجريد في بعض أعمال (هادي عبود).. إن مشاركتهم في المعـرض.. جاءت كبـداية فنية تدفعهم للمثـابـرة والاستمرار في تحسين عملهم الأكاديمي.. وتقديم ماهو أفضل في المعارض القادمة..

رفحاء ـ الصحراء



للفنان
ياسين عبود

رسالة يتبوري الثقافية

من ابرز الفعاليات الثقافية التي قدمها النادي الثقافي والاجتماعي العراقي في مدينة (يتبوري) السويدية مسرحية للفنانة الكبيرة زينب «صور شعبية وصورة» وندوة عن غائب طعمة فرمان ومعرضين شخصيين للفن التشكيلي.

ادت المسرحية الشعبية (فرقة سومر للمسرح) فتولت زينب اداء دور الشخصية الرئيسية «أم مطشّر» الذي اعتبرته من احب الادوار الى نفسها باعتباره يعبر عن مشاعر ومعاناة الام العراقية. وشاركها في انجاح العمل الفني زهاء ثلاثين من الفنانين والفنيين والاداريين، واغلبهم مستجدون في مثل هذا العطاء، لكن المخرج الفنان لطيف صالح بذل جهداً مثابراً في اعدادهم وتمرينهم فضلاً عن اخراج العمل المسرحي الذي حظي باعجاب وتجاوب الحاضرين من المغتربين العراقيين ومن المثقفين والاصدقاء السويديين. الى جانب زينب شارك في التمثيل فاضل، سلام سامان، معتز، شوان، دينا، نادية، ميديا، اريج، ابو سيزار، وضاح، ابو صبا، ابو حازم، حيدر كورابي، جلال شيرواني. وتولى جلال ادارة المسرح يعاونه صلاح وحيدر. وصمم الديكور د. موفق ونفّذه جلال ووضاح. وتولى ابو حسن الانارة، وكانت الموسيقى لفائز الطيار والغناء لوضاح على مقام من شعر كريم هداد. وتولى ثائر الخطوط والاعلان وحسن تصميم وطبع التذاكر، وام مي وأم سيزار الملابس وكذلك التشريفات (بمشاركة مها).

* * *

وفي الندوة عن الروائي الكبير غائب طعمة فرمان تحدث كل من الفنان لطيف صالح والدكتور داود سركيس.

بدأ لطيف بعرض لحياة الكاتب الراحل وعدد اهم مؤلفاته. ثم تلا نماذج من رسائل

غائب الى اصدقائه، ومنها رسالة كتبها في ١٩٩٠/١/٦ الى صديقه الاديب المغترب عبد الغني الخليلي، وجاء فيها «. . . ربما هو الشتاء اللعين، أو شيء في الداخل ينخر كالفأر اللعين أحاول ان اسكته فلا اوفق إلا ساعات، أو ربما لدقائق. ولكن ما حيلة المضطر إلا ركوبها، اقصد الحياة، والغربة. ولواعج الشوق وفقدان الحركة، وبعد الاحباب، وقلة الجدوى، واحكام الحصار، وشحة المردود وقصر ذات اليد، ونهم الفؤاد، وجشع العين، ولكننا في انتظار الربيع، ثم الصيف، وتخضر الدنيا وتشرق الشمس ويلمم الشتاء ارديته البيضاء كالأكفان».

ثم اعقبه الدكتور داود سركيس بمحاضرة عنوانها «تاريخية غائب طعمة فرمان الفنية» قال فيها ان غائب يعتبر «اول من ارسى القيمة التأريخية - كأسلوب ابداعي - فني وجمالي في الرواية العراقية المعاصرة. واقصد بالتأريخية-هنا، ليس التأريخ كمفهوم أكاديمي، بل اقصد بالتأريخية المفهوم الابداعي، الذي يعكس مرحلة كاملة من حياة المجتمع. فليس الكاتب مجبراً على التقولب الطبيعي في تصويره لهذه الحركة، بل انه يغور في العمق مصدراً الاكثر اهمية من حيث متطلبات العمل الفني».

«ان القيمة التأريخية التي نلمسها في كل نتاجات غائب، وخاصة رواياته «النخلة والجيران»، «خمسة اصوات»، «المخاض»، «القربان»، «الام السيد معروف»، «ظلال على النافذة»، «المرتجى والمؤجل» تعكس ذلك العمق التأريخي على الصعيدين الجمالي والفني. . هذا العمق يتركز بالصلات السببية بالواقع الذي يعالجه الكاتب والتغييرات المشروطة في البيئة الاجتماعية لهذا الواقع، بل ان غائب بفضل امتلاكه القدرة الابداعية، يكمّل هذه العملية وذلك بجعل رواياته تستوعب الوظيفة الديناميكية لتلك العناصر التي يتشكل فيها الواقع. في حركته».

ثم تناول المحاضر العلاقة بين التأريخ والفن لدى الكاتب: «عند غائب، التاريخ والابداع الفني يسعيان قبل كل شيء الى موضوع مشترك، وهو الانسان، فاذا كان التأريخ كعلم، يتناول الانسان ودوره في صنع التاريخ، فان الفن يضع جوهر ابداعه، الانسان ذاته. . وامتداد هذا الانسان هو التاريخ بعينه، لذلك غائب طعمة فرمان باحساسه الفني المرهف يتوصل الى ايجاد ذلك «الأسْ» الذي يقرّب التاريخ من الفن، فبقدر ما يكون دور الانسان نشيطاً وملحوظاً في احداث التاريخ، فان التأريخية كأسلوب فني تصبح اكثر وضوحاً واكثر ضرورة من الناحية النوعية في الابداع الفني.

وتناول المحاضر ذلك التغير الذي يحصل في شخوص غائب، ارتباطاً بالتغيرات التي تجري في المجتمع: فعند غائب هذا «التواصل في شخوص رواياته لا يأتي بشكل آلي كوعي واحد وتام، بل ان هذا الوعي خاضع للتنوع حسب الظروف والمرحلة، وإلا

انقلبت الشخــوص الى نوع من النمــوذجية المملّة، وتلك سمــات الادب التقــريري السطحي. ان شخوص غائب تتواصل عبر التأريخ المتبادل بعدد من اشكال الوعي التي تتطلب من اللاحق ان يضيفه الى السابق، ومع ذلك تبقى هذه الشخوص ديناميكية. وهذه الديناميكية تكون عاملاً في عدم اذابة أية شخصية في الاخرى، بل تحتفظ بذلك التفرد الذاتي.

ثم تطرق المحــاضــر الى قضية الاغتــراب، التي تحتل مساحة واسعة في ابداع الكاتب مؤكداً انه «لا يمر مرور الكرام بمسألة الاغتراب، والاغتراب عنده ليس عبارة عن خواطر تمر على شاشة ذاكرة المثقف وهو جالس في احدى مقاهي مدن الغربة.

الاغتراب عند غائب هو معاناة ثقيلة استقرّت في اعماق الفرد بحيث لا تبارحه.. كيف يتصرف المرء تجاه ذلك؟

الاغتراب عنده هو ذلك الشوق الكبير الى الوطن، الى بغداد.. هذا الوطن الذي كلمــا يسعى غائب لاختصــار المســافـة بين الغــربة وبينه، يبتعد هذا الوطن في العمق اللامتناهي رغماً عن ارادته، وهذا ما نلاحظه في جمالية غنائه بالوطن ومدينة صباه.

ان غائب يؤرخ لهذا الاغتراب قائلاً «ان مواطني كتاباتنا في المنفى تلك الاحلام التي عجزنا عن تحقيقها، مصطدمين بما يقلب الاحلام الى كوابيس، لكن تلك الاحلام تظل تلح على النفس في الداخل، والعواطف التي تتأجج وتحترق ولا تجد مجالاً للظهور، تلك الصبوات والافكار والحبالات المجنحة، المشاريع غير المحققة لاسباب لا ترجع الينــا وحدنا». لكن غائب لا يستسلم لهذا الكابوس ـ الاغتراب ـ فمهما كان قاسياً فان التعلق بالوطن وجدانياً يقلل من ثقل هذا الكابوس وهو يؤثر ذلك بقوله «ومن تراث منفانا الاول، الخــاص بنا نستقي ما نكتبه عن الوطن في ذلك المخيم داخل الصدر، داخل الذاكرة، هو بالدرجة الاولى يعطي الوقود لتحريك القلم بين اصابعنا».

* * *

معرضان

ونظم النادي معرضاً للاعمال التشكيلية للفنان فاروق عمر. واختتم المعرض بندوة عن الفن التشكيلي في العراق.

كما نظم معرضاً للاعمال التشكيلية للفنان الدكتور موفق سلمان اختتم بندوة عن كبار الفنانين التشكيليين العراقيين.

توحدوا... ثم ادخلوها امنين!

نوار العراقي

يعيش العراقيون الآن عصر صدام مثلما يؤكد الإعلام السيء في العراق. ونحن هنا في بقاع الغربة نعيش عصر صدام أيضاً! فسبب محنتنا، غربتنا، اعتداء الغرب الذي صُبَّ حمماً وحلَّ دماراً لبلادنا وضد معالمنا ومدننا وحضارتنا هو صدام اللعين. ويكفي وجوده بذات التسلط واستمرار سلوكه في انتهاك حقوق الوجود والعيش بأمان وكرامة وحرية... يكفي كل ذلك لجعل حتى حجارة العراق في شماله وجنوبه تتحد، وماء العراق في دجلته وفراته يتحد، وجوع العراق في بطون شيوخه وأطفاله يتحد، ضد وجود صدام وتسلطه! فما بال المضطَهَدين والمشتتين والمعذَّبين والمقطوعين والهاربين والحائرين والنازحين والمهجرين في مشارق الأرض ومغاربها لايتحدون؟! يملؤون قارات الأرض وليس في قلوبهم إلا العراق وفي ضمائرهم لايقتلون إلا العراق!... فمتى تنتهي مباراة السنين بين من سُمّوا أحزاباً وفصائل ورموزاً وفئات ومنظمات وتجمعات وقادة للمعارضة العراقية، ليكون النصر أخيراً للعراق، عراق الجوع والمرض والفقر والظلام، عراق الخوف والموت والسجون والمشانق و(مفارز الرفاق)؟ فكفى ياعراقيي «سنين التباري»، فمن أزقتنا هناك تخرج الآن قواميس الجوع، وفي أجساد أطفالنا مستوطنات للأمراض والأوبئة، وعلى شفاه رجالنا ونسائنا صرخة مظلومة لاغيرها: الموت لصدام اللعين..

لقد أمضينا في عراق الجربين والحزنين سنين تجاوزت أصابع الكفين. كنا نحلم خلالها بفرصة أتيحت لكم يوماً، حين نجوتم من تابوت يمتد حقاً من زاخو إلى الفاو. « إنه عصر صدام»، لكننا رغم ذلك كنا على موعد لحمل الشرف الكبير، شرف عدم الانضواء تحت رايات السلطة رغم سنيّ الترهيب والترغيب ومعامل التذويب والقبور

الجمـاعية، شرف العمـل سراً ضد نظام الأجهـزة برمـوزه ووكـلائه وأزلامه وأذنابه وأتباعه، شرف الصمود في قاعات التعذيب وغرف الاستدعاء وكرفانات الاستجواب وصناديق الانتهاكات وجحـور التصفية، شرف التكـابـر وتحمل كيد الغدر حين أراد الغرب إخراج صدام من الكويت فتجاوز ليقتل عيوننا وبطوننا وضوءنا وماءنا وشموخ رجالنا ووداعة أطفالنا وهدوء نسـائنـا، شرف حمل البندقية ضد الطاغية وتحرير المدن وامتلاك الشوارع والأزقة التي ماعـرفت سوى بساطيل الشرطة والاستخبارات والحرس الجمهوري والجيش «الشعبي» وقوات الطوارىء وذئاب الأمن. وحلمنا بكم وانتظرنا مجيئكم يامعارضي النظام في أرض الله الواسعة إلا العراق. وصفقنا وهتفنا بأسماء بعضكم وأنتم غائبون حين كنا نملأ شوارع المدن المحررة، نرمم البيوت ونحمي العوائل، ونوزع الأغذية التي حجبتها السلطة عن الشعب، وننظم الحراسات ونشكل المفارز والأفواج في أكثر من عشر محافظات محررة.
فماذا تريدون أكثر من ذلك؟وانتظرنا وصولكم.. عونكم وصبرنا عليكم فلم تأتوا.
أيام التحرير كنا نقاتل طوابير الحرس الجمهوري على أطراف مدننا ونحن حفاة وجياع، بملابس يبللها دمُ الرفاق تارة وينجِّسها دم الخونة تارة أخرى. وكان القلق يكبر فينا كل يوم والشعب يموج وبغداد قد أدارت رأسها. كنا نتوسل إليها كل ليلة أن تسمع نداء أحبتها. لكن بغدادنا الكبيرة خانت أخواتها، فكانت لنا بغداد المدافع والدبابات وصواريخ أرض - أرض والسلاح الكيمياوي والطائرات المروحية (التي سمحت أميركا باستخدامها!! لماذا وضـد مَنْ؟) بغـداد معسكر الرضوانية ورقم واحد وسجن أبو غريب ومسلخ الأمن العامة وشُعَب الاستخبارات وأقبية المخابرات وساحات إعدام الراشدية وأوكار الكرادة والمسبح والزوّية.

واغتصبت عروس آذار في مخـدعها.. نزفت، طـويلاً وماجئتم، لكن شعب آذار أعلن القطيعة مع النظام وأعطى المهر لذلك غالياً، أرضاً مبللة بدم الشهداء لن يجف. لقد فعل شعبنا الكثير، وأعطى الكثير من أجل العراق ومن أجلكم..

وكانت لنا أحاديث عنكم في تلك الأيام وفي ليالي عراق الأيتام، ليالي (الحطب) و(بـطل النفط) وهـدير الـطائـرات ودمار الصواريخ وعويل أطفالنا.. وفي أيام التحرير وانتصاب الهامة العراقية.

وعرف شعبنا فيكم ومنذ سنين بعيدة أحزاباً وأسماء ومناضلين تصدوا بكفاحهم المرير السلطة العفلقية الدموية ورووا بدماء شهدائهم أرض الرافدين دفاعاً عن المبادىء.. لكننا لم نكن نعـرف، وياللمـأساة، إن عرف العراقيون أن هناك الآن أكثر من خمسين حزباً وتنظيماً وتجمعاً عراقياً في المنفى دون أن يتوحدوا بعد للعمل على إسقاط نظام صدام. أهـذا الـواقـع المشتت والمتنـاحـر أحياناً سيُسقط صدام «الأوحد» ويغير نظامه الفاشي

(الواحد)؟ أليست هذه هي الطامة الكبرى التي كم نظّرنا وثرثرنا وتفلسفنا ضدها، حينما كنا نتحدث عن نضال أحزاب وفصائل كثرت وتعددت في بلد ما لإسقاط نظامه. فلماذا نكرر مهازل التأريخ وأخطاء الشعوب؟ ولماذا ننسى تجارب الشعوب التي ناضلت وأسقطت أنظمة فاسدة! بل لم نعرف بعد كيف نجحت في ذلك ومتى؟

شعبكم أيها الأعزاء حين انتفض كان موحداً بعد أن داس كل المصالح الذاتية والفئوية والضيقة رافعاً راية بيضاء بحجم العراق كتب عليها بدماء الشهداء ودموع الأرامل. . «نريد الخبز والحرية. . . نريد الكرامة والديمقراطية». . . فشعبنا حين انتفض توحد الأيمان في قلوبه وفي الأعالي تشابكت الأيادي، وان صدى هتافاتنا في المدن تردده في الأهوار جموع الثائرين الحفاة. وكم بندقية شجاعة حملها شيخ في (الچحلة)، وكم امرأة زغردت وهي تقود المتظاهرين في ساحة (أم البروم). وكم من بطل توسد الأرض مدافعاً قرب الأضرحة المقدسة. وكم كردي باسل تسلق الربيّة ليطل من هناك على كردستان المحررة. وكم شهدت شوارعنا، أطراف أزقتنا، قاعات المدارس وساحات المساجد، نقاشات رائعة، أخوية، مخلصة ومسؤولة لوضع حلول عاجلة لأمور شتى بين يساري ومؤمن ومستقل وقومي ومثقف وأمي، أو بين هذا الذي يريد الخلاص من ظلم نظام صدام، أو ذاك الذي يحلم بالحرية للعراق، أو آخر غنى لعودة أحبتنا من المنفى، أو غيره من أجل السلام للجميع، وخامس من أجل مستقبل أطفالنا، أو سادس من أجل إنهاء زمن السجون والظلام. . هكذا كان العراقيون في وضع هم صانعوه لأيام لن ينساها تاريخ بلاد الحضارات وسيحمل ذكراها الأحياء منهم والأموات.

وأخيراً نحن شعب علمنا ظلم الطغاة وتعذيب القساة وتضحيات أبنائنا أن نرفض التقسيم وتوزيع الحصص والفوائد وإعداد الطبخات والمقاييس الجاهزة. نحن شعب سلب منه كل شيء حتى أصبح جزء من نضالنا اليومي ولسنوات طوال منصباً لصيانة شرفنا وكرامة عوائلنا،عشنا زمناً بتنا نخشى فيه أحياناً من براءة أطفالنا، وكم طفل أرسل أباه إلى المشنقة دون أن يعلم! فهل عرفتم هذا النموذج أيضاً من أفعال صدام المجرم.

لهذا توحدوا، وأهلاً بكم بعد كل ذلك وكونوا لأهلكم عوناً وسلاماً، ولبلدكم فكراً وذراعاً. ولكن ادخلوها دون رايات، لأن الرايات قد حملتها هناك قبلكم السواعد المقاتلة، وبلا شعارات لأن الشعارات قد رددتها الأفواه الباسلة، وبلا تمجيد لهذا أو ذاك، لأن المجد لأبطالنا الذين أنجبتهم ساحات الوغى وأزقة البؤس وليل العراق الطويل.

توحدوا واحترموا هذا المُتْعب الذي يحلم بلقمة ووسادة!

أشياء ليست صغيرة

متحف البيشمه ركه!

مهدي محمود

وصلت السياج الحديدي المحيط بمتحف السليمانية الحضاري . . جلت بنظري باحثاً عن جراح من عواقب يومين عنيفين من المخاض الصعب للمدينة المنتفضة . لم اجد سوى اثر قذيفة على الحائط الصخري لمدخل المتحف ونثاراً من زجاج البوابة المحطم . اقنعت نفسي بصعوبة ان كل شيء بخير.

فوجئت عند المدخل بقطعة من الكرتون مكتوب عليها بخط رديء وعلى طريقة الكلمات المتقاطعة : متحف . . بيشمه ركه . . كردستان ، اليد التي تمتد اليه تقطع!!

ـ ماذا تريد يا هذا؟

فاجأني صوت أجش . . فالتفتُّ . رأيت رجلاً سميناً مفتول الشارب ، بوجنتين سمينتين بارزتين . . بدا لي انه في الخمسين من عمره . . لم أر في وجهه ما لا يبعث على الاطمئنان رغم تصنعه الحزم والعبس . . وسعتُ دائرة نظري فرأيت (جَمَدانيّا)* ملفوفاً بعناية على رأسه الكبير و . . معطفاً منزلياً وبيجاما ونعلين من البلاستيك!

ـ جئت لارى اللجنة الشعبية لحماية المتحف!

قلت هذا وكأني ادفع عن نفسي تهمة. انفرجت اساريره بسرعة لا يقوى عليها إلا من له مخزون كبير من الطيبة . . أو الطفولة.

ـ وهل شكلت مثل هذه اللجنة؟!

ـ لا أدري، ولكن قيل لي ثمـة اناس حملوا على عاتقهم هذه المهمة وجئت لاكون واحداً منهم.

ـ رائـع ما تعملون، ولكن اعلم انني منـذ ان غادر حارسـا المتحف المكان وانا احـرسه.. هذا بيتي هناك.. انا كتبت هذه القطعة، انا سهرت طوال هذه المدة.. انا صديت مسلحين كثيرين عن الدخول، كدت ان أُقتل. انا لم يكن عندي سلاح، ولكن الـذي يعمل من أجل كردستان لا يهمه سلاح.. انا منذ يومين احمي متحف كردستان هذا.. اح. اح. اح، انا مريض قليلاً ولكن في شبابي.. انا نفسي كنت بيشمه ركه. أنا، أنا...

اخرسني ساعة حكى فيها كل مواقفه في مجابهة السلطة وصميمية ايمانه بكردستان و... علاقاته الطيبة مع الجيران ومشاكسات ابنه الصغير و.. و..!

هذه كانت بداية معرفتي بالسيد (..) الذي رحب بنا نحن مجموعة الشباب الذين قمنا بحراسة المتحف عدة ايام، الى ان عاد موظفوه وتسلموه منا... يا لها من ايام!

ـ ابقوا هنا وانا اتكفل بكل حاجاتكم، بطانيات، أكل.. أي شيء، أي شيء. فقط لا تغادروا.. أنا لو عندي سلاح، لا اهتم. فقط انني اح. اح. اح مريض. ولكن في شبابي.. انا نفسي كنت بيشمه ركه. انا، انا..

ايام، أُحِطنا فيها برعاية حميمة ليس فقط من قبل السيد (..) بل من قبل كل الجيران الذين تناوبوا على تحمل عبئنا.. وفوق ذلك، كانوا هم الذين يشكروننا! وبقى السيد (..) على علاقة مميزة بنا.. كان ابانا كلنا وكنا اولاده و.. احسن مستمعيه. لذلك لم يزعـل حينما بدلنا قطعته بأخرى كتبنا عليها: (أخي المواطن. هذا المتحف ملكك أنت. احمه!).. لم يزعل ولكنه قال:

ـ انتم شباب لا تعرفون الناس. يجب ان تهددوا، لا ان ترجوا.. انا اعرفهم جيداً. انا مريض ولكن في شبابي.. انا نفسي كنت بيشمه ركه. انا، انا...

لا ايها العم العزيز، نحن نعرف الناس. انهم انت، جيرانك، حبكم، رعايتكم، لنا، لمتحف «كردستان ـ بيشمه ركه». كل هذا اشياء ليست صغيرة، بل اشياء لا تنسى.

* الجمداني: هو (الجرّاوية) الكردية. وهي يشماغ يُلف حول الرأس.

سعد البزاز يستنجد بعدي

ادناه النص الحرفي لرسالة سعد البزاز الموجود في عمّان الى عدي صدام كما وردت في جريدة (بابل) ليوم ٢ شباط . ويلاحظ القارىء ان (بابل) استعاضت بالنقاط المحصورة بين قوسين عن مقاطع وكلمات ارتأت حذفها من الرسالة، واغلبها تشير الى وزير الاعلام ووزارته . اما الكتاب المشار اليه تكراراً فهو «حرب تلد اخرى» للبزاز، وقد نشر على حلقات في جريدة (السفير) البيروتية وكذلك في احدى الصحف الاردنية الموالية لصدام، والكتاب يعبر عن وجهة نظر النظام من ازمة الخليج وحربها الثانية بخطاب يخلو من عبارات التمجيد لصدام والكثير من الادعاءات الجوفاء التي رددها ويرددها الاعلام الصدامي. وقد نشرت (طريق الشعب) تعليقاً على هذا الكتاب في اواخر شباط الحالي .

هذا والرسالة غنية عن أي تعليق .

رسالة الى نقيب الصحفيين

تلقى السيد عدي صدام حسين نقيب الصحفيين رئيس رابطة الدفاع عن الحريات الصحفية رئيس التجمع الثقافي في العراق رسالة من النائب الاول لنقيب الصحفيين رئيس تحرير «الجمهورية» السيد سعد البزاز ننشر نصها مع احتفاظ البقية بحق الرد عليها .

بسم الله الرحمن الرحيم

الاخ العزيز الاستاذ عدي صدام حسين المحترم

تحية احترام ومحبة . .

فأنت من يبعث الامل في نفسي مجدداً ويشعرني ان ابواب بغداد مفتوحة في مكانها على الارض، كما هي مفتوحة في قلبي دائماً ـــ

وقد تتساءل: لماذا لم اسع اليكم من قبل. . ؟. . لعله السبب نفسه الذي جعلكم تؤخرون السؤال عني حوالي أربعة اشهر. . فكلانا مؤمن انه رصيد الآخر، انت ضمانة لي، وأنا ساعدك ومؤتمنك وحامل اسمك الذي طالما وجد فيك عبق عطر القائد الحبيب وظله وزرعه الطيب الامين. .

وكـان ناس كثيرون قد سألوني من قبل: لماذا لم اكتب مباشرة الى مقام الرئيس القائد. . ؟. . كنت ومازلت اتهيب الكتابة ومخاطبته مباشرة، لانني ارى فيه الرمز المترفع عن خطايا الآخرين واخطائهم وخصوماتهم، وهو المرجعية التي لا يجوز اشغالها بهمّ اضافي غير الذي يحمله من همومّ العراق. . وكانوا يقولون ان عدم كتابتك الى مقام القائد مباشرة قد يجعلك ضحية ظلم ناتج عن عدم اكتمال أو دقة المعلومات التي ترفع عنك. . وكنت ارى ان الظلم الذي سيقع علي انفع ـ في كشف نقاط ضعف مخفية أو مستترة ـ من ايهام النفس بالرضا والتعايش مع المذلة. . وكان لا بد من ضحية أو مظلوم أو مغدور حتى يتنبه الناس الى الظالمين ومعاصيهم واخطائهم. .

ثم ماذا اقول في خطابي الى القائد، وابيك. . . اقول: ان (. . .) يدفع من دم العراقيين المرابطين الى كاتب غير عراقي حتى يشتم احد ابرز كتّاب العراق واحد ابناء مدرسة صدام حسين وأحد رؤساء تحرير الصحف التي يُشرف هو شخصياً عليها. . ؟. . اقول ان (. . .) منعني من النشر في صحيفة كان اسمي مايزال رئيساً للتحرير فيها وصار مصدر اشاعة مُزوّرة عن عملي محرراً صغيراً في صحيفة غير عراقية. . ؟. . أم تراني اقول ان (. . .) المكلف برعاية المفكرين والمثقفين يأمر بتوزيع صورة مما كتبه ضدي كاتب غير عراقي على مساعديه ورؤساء التحرير بدل ان يصرف وقته في حماية حق قول الرأي والدفاع عن حرية التعبير، وبدل ان يدلّ مساعديه على طريق اصوب يقوّمون فيه اوضاع مؤسستهم ويحسنون اداءها. . ؟. .

أم تراني سأقول ان مسؤولاً يحمل صفة (. . .) يتراجع عن كلام يعطيه للآخرين. . إذ تبين لاحقاً ان معظم ما تظاهر انه معترض عليه في كتابي الكبير كان هو مصدره في حالة، أو انه كان موافقاً عليه عندما ابلغته به، فشجع عليه، وبخاصة ما يتعلق بالحديث

عن مستوى اداء الاعلام والدبلوماسية خلال المنازلة. . . لكنه عندما وجد نفسه تحت ضغط من هذا أو ذاك تراجع متظاهراً بانه قد فوجىء بالكتاب ومحتوياته حتى في المعلومات التي كان هو مصدرها. . ؟. . هل اقول ان الطريقة البوليسية التي ادار فيها معضلته معي دلت بما لا مجال للشك فيه انه اراد ان يتخلص مني تحت جنح الظلام وخلف قنابل دخان اطلقها هنا. . وهناك. . لانني جاهرت في اظهار عدم التوافق مع اسلوبه في معالجة هذا الامر أو ذاك. . ؟

هل اقول انه صار يَعِدُ بعض الاشخاص من سقطات المجتمع بانهم موعودون بمناصب في (. . .) وان صورتهم المتفسخة ستصحح بمجرد ان يكتبوا ضدي ويقبلوا بالتحول الى مخالب يستخدمها لينهشوا من اسمي الذي لم يعودوا قادرين على استيعاب حجته. . . بعد ان تملص مرات ومرات عن المجاهرة معي وامامي بملاحظاته على الكتاب كما تدل مراسلاتي اليه والى وكيل (. . .) وصار يلفق التهم بما يسفه القضية التي هي محور الخلاف. . ألا وهي قضية الدفاع عن حق الكاتب في التعبير. . وهو ما سأدافع عنه بقوة لم يتعود عليها السذّج والسطحيون ممن تسللوا الى ساحة الثقافة ومحراب الفكر وعالم الصحافة. . ؟

هل اقول ان من عجز عن المحافظة على كاتب موال صادق امين لن يتمكن من انتزاع رضا الخوارج والمنشقين والمتضررة مصالحهم عندما يخاطبهم عبر وسائل التخاطب التي يتحكم بها. . ؟

يا سيدي الكريم. .

هل كان لي ان اتشكى. . وليس من خصالي الشكوى. . ام كان ان أطلب الصفح وأنا من وقع عليه الظلم وصار له حق ودين في اعناق ظالميه. . ؟. .

لم أكن انتظر ضمانات. . ولم اكن لاشترط مواصفات حتى اعود الي بغداد، فهذا وطني وانتم اهلي والنظام السياسي في العراق هو خياري. . انني لا احتاج الى ضمانات من احد. . فالعيب ان يشترط الرجل على اهله. . لكن المسألة هنا مختلفة تماماً. . انها تتعلق بحق مهدور، واسم كبير يتعرض للتشهير، وعلم يجري تخوينه وتكفيره علانية، وقد تم ذلك كله من خلال عملية منظمة رسمها مسؤول في الدولة مع مَنْ ساعده من ذوي الاحساس بالنقص والفشل. . لذلك صرت في حاجة لاستعادة حقٍ، حتى لا يقع ظلم على سواي ولا يتوهم الظالمون انهم معفيون من المساءلة عن الجور الذي يوقعونه على الآخرين. .

ان الذي يطلب الضمانات هو ذاك الذي تتوجب عليه التوبة للتكفير عن اخطائه. . أما أنا فليس عندي ما اخجل منه. . ولم ارتكب خطأ أو خطيئة حتى اعلن التوبة واطلب

الصفح . . أو تراني اطلب الضمانات التي يحتاجها الخائن والكافر بمبادئه والخارج عن طريق الحق . . أما انا فحالي هو حال مَنْ وجد السهام تُسدّد اليه في ذروة كفاحه الصادق، وفي ذروة نجاحه . . فهل ينبغي ان نبرر النجاح . . ان النجاح لا يبرر . . وعلى الفاشلين ان يرتبوا اوضاعهم للتعايش مع الناجحين . . لا العكس . . ولن ادع القول (ان قتلى النجاح اكثر من قتلى الرصاص) يصدق هذه المرة . . كما لن ادع القول (ان مغني الحي لا يطرب) يصدق هذه المرة أيضاً . . فعندي حق اريده ممن ظلمني . . ولا يستحق الاحترام من تنازل عن حاله . .

يا سيدي الغالي . .

لن تقبل عليّ ان اتنازل عن حقي الذي اريده من الظالمين.

ان من حقي انتظار موقف علني يصحح التحريف الذي جرى ضدي . . ومن حقي ان ارى (. . .) تتراجع عن الذي فعلته . . فتسمح اولاً، وفوراً، باطلاق سراح كتابي الكبير في العراق، وتتوقف عن تعبئة الكتّاب والصحفيين ضدي وضد الكتاب، وتتوقف عن منع استخدام الكتاب كمصدر في البرنامج المخصص لمقدمات المنازلة بعد ان منع (. . .) ومعالي مدير الاذاعة والتلفزيون الاقتراب من كتابي واعتماده مصدراً، باعتباره كتاباً مشبوهاً الى جانب ما يتوجب عليّ (. . .) من اظهار موقف علني يعوّض عن ما لحق بي من اضرار معنوية ونفسية وصحية من جراء نشر بيان باسم سفارة العراق في الأردن ضدي وضد الكتاب . . ومحاسبة الفاشلين في (. . .) وبعض المعنيين الذين اساءوا اليّ في الاجتماعات الرسمية لـ (. . .) والاعتذار عن الضغوط التي مارستها (. . .) على الصحف العربية لثنيها عن نشر الكتاب على حلقات . . ويعودون لرفع معلومات صحيحة الى الاجهزة الخاصة عني وعن الكتاب بدل المعلومات المزيفة التي تدفقت بغير وجه حق وترتبت عليها ملاحقات مخجلة في اكثر من عاصمة زرتها . . كما ترتب عليها قطع خط الهاتف الدولي عن منزلي في بغداد . . وغير ذلك مما اانف عن ذكره والحديث عنه . . والاقرار بان قرار منع كاتب عراقي من النشر في صحيفة عراقية (الجمهورية) كان قراراً خاطئاً يمس حق الكاتب في التعبير وابداء الرأي والنشر . .

والسماح بنشر اعلانات مدفوعة سُلمت الى مجلة الف باء ودفعت أجورها ووافقت عليها ادارة المجلة قبل ان يتدخل (. . .) لمنعها من الظهور . . والاقرار بان منعي من نشر نعي لصديق في صحيفة (الجمهورية) التي كنت رئيس تحريرها كان تدخلاً لمنع مواطن من ممارسة حق من حقوقه الاساسية . .

ان لكل ما اطلبه من حقوق اساساً قانونياً واخلاقياً ووطنياً، وهي حقوق خاصة وحقوق عامة، وقد يكون الظالمون توهموا ان من يقع عليه الظلم سيتحاشى المطالبة بما

يعوضه عن الاذى لانه ملتزم بروح الانضباط ومحتمٍ بالحياء. . لكن الامر معي مختلف لان حملة التشهير والتخوين والتكفير هي غطاء لعمل يستهدف استباحة دمي ، وهي حملة غادرة ضد اشجع المدافعين عن مبادئهم. . ولن يكون بمقدوري ان اسمح لنفسي ان تتدحرج بين الاقدام لمجرد ان الظالم قد استعان عليّ بحيائي وخلقي وانضباطي. . لقد خُيّل اليّ ان الذين قادوا الحملة ضدي كانوا يريدون دفعي للوقوع في الخطأ حتى يتخذوا من ذلك ذريعة للبرهنة على طروحاتهم الخرقاء مثل (غربي الميول. . ليبرالي ، يفضل العيش خارج الوطن. . . الخ). . لكن الذي حصل انني كنت ارد على هذه الكمائن الماكرة بمزيد من التمسك **براية القائد العظيم صدام حسين ومزيد الالتصاق** بالمبادىء وتبني قضية العراق. . في كل ما كتبته في الصحف كافة (عدا جريدة الجمهورية التي منعني (. . .) من «النشر فيها») وفي المحاضرات وجلسات الحوار التي عقدتها أو تحدثت فيها في عمّان وتونس وصنعاء وانقرة. .

كل هذا الظلم وانا ساكت. . ألوذ بصمتي وابحث عن شفيعي في الصبر والامل. . ورضيت ان اكون مظلوماً لا ظالماً. . لكنه مظلوم يعرف حقوقه ولا يتنازل عنها حتى لو استلبت منه عنوة. .

حفظك الله رجلاً شجاعاً ينذر نفسه للدفاع عن الكتّاب والمثقفين. .

وادام الله القائد العظيم ملاذاً ومرجعاً وأمدّنا بالقوة لخدمته وحمل رايته. .

والله اكبر على الظالمين. .

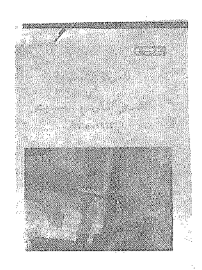
المخلص ابداً

سعد البزاز

١٩٩٣/١/٢٨

عمّان





كمال معروف
الحركة التجديدية في الشعر الكردي الحديث
١٩١٤ - ١٩٦٥

يقع الكتاب في ٣٠٠ صفحة من القطع المتوسطويتضمن عشرة فصول مع مقدمة وخاتمة. عن كتابه يقول المؤلف:

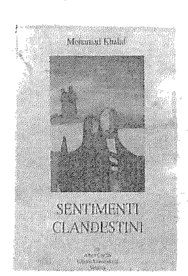
«ان القصد من دراستنا لم يكن انجاز دائرة معارف تحوي كل الشعراء الاكراد حسب مشاربهم وتنوع مدارسهم ومذاهبهم الشعرية والفكرية، بل كان هدفنا التركيز على بعض المراحل وبعض الفترات التي ميزت وطبعت بالفعل تطور الادب الكردي، كما ركزنا كذلك على الشعراء الذين لعبوا دوراً هاماً في تطور كل مرحلة من هذه المراحل».

محمد حمد
مشاعر سرية

صدرت في نوفمبر الماضي مجموعة شعرية باللغة الايطالية للشاعر محمد حمد بعد مجموعتين باللغة العربية تحت عنوان (مشاعر سرية)، عن دار (جامعة فينيسيا) للناشر (البرتو كردين) قدم لها (ماريو ستيفاني).

تقع المجموعة في ٤٠ صفحة من القطع المتوسط، متضمنة ٢٨ قصيدة، نختار من القصيدة الاخيرة الابيات التالية:

لا الليالي متشابهة
ولا النجوم
ولكن حرارة صوتك
حين تمتص القلق
اشعر بتلاشي البُعد



تصويب

الاخوة الأعزاء في ص أدب وفن

تحية طيبة

أشكر لكم جهودكم الطيبة في إخراج (القيامة) (الثقافة الجديدة العدد ٢٥٠ تشرين الأول ١٩٩٢)، وإذ أشير إلى بعض الأخطاء المهمة، فأنا أشدد على مسؤوليتي في ذلك، لكثرة ماأضفت وشطبت وعدّلت. .

من بين الأخطاء التي أرى ضرورة تصحيحها:

محمّر ينبثق. . ويمتد (ص ١٢٢)

والصحيح:

غَمرٌ ينبثقُ. . ويمْتَدّ [دَمْدَمَةٌ. . بَرْقٌ. . رَعْدُ]

يليها:

الجوقة: شَدُّ. . مَدُّ

والغمر هو الماء (المنجد).

«في البدء خلق الله السموات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغَمْر ظلمةٌ وروح الله يرفُّ على وجه المياه. وقال الله ليكن نورٌ فكان نورٌ. .» (سِفْر التكوين. الإصحاح الأول، الكتاب المقدس).

ولعلّي في هذا التضمين وغيره، من الكتب المقدسة، أشير إلى عملية إعادة الخلق عبر المقاومة. . فالقيامة!

كذلك حدث بعض الارتباك في ترتيب المقطع الأخير (اشدد، مَرّة أخرى على مسؤوليتي) أرجو التكرم بإعادة نشره كما يأتي:

الجدّة:

نونٌ تَتَدَوَّرُ

(القاعة تهليلٌ تكبيرٌ وهتاف:

الله ياستّ! قمرٌ ياستّ!

[تشتعل القاعة بالقناديل. . .]

أصوات:

الله أكبر! الله أكبر!

ماشاء الله! ماشاء الله!

شمسٌ . . . قمرًا)

الجدّة:

نونٌ تتكوّرُ . . .

القاعة : حَيّ !

الجدة : نونٌ تَكْبُرُ . .

القاعة : حَيّ!

الجدة : تكبرُ . . تكبرُ . . تكبَرُ . . . تكبرُ . .

الجدة والقاعة معاً :

نورٌ . . . نارٌ . . نونٌ . . حَيّ!

(تستحيل الجدّة كتلةً لهبٍ متوهّجةً متدحرجة راقصة من نارٍ من نورٍ) .

تصرخ من قلب اللهب :

. . . **نونٌ كبرى تنفجرُ!**

القاعة [كل القاعة تتّقِدُ شراراً - تتوهّجُ - تتأجّجُ - تَرْتَجّ] .

تنفجر بكل الأصوات، بكل الآلات :

حيّ!

. . . . **ويَعمُّ الضوء!**

. . . ويكشف الأخطاء والخطايا الأخرى مما ارتكبته أنا وما أرتكبه غيري ، مما لايخفي على القارىء!

ولكم محبتي . . .

إبراهيم الحريري

١٩٩٢/١٢/٩



النظام العراقي . . ولعبة القط والفأر

في عشية الانتخابات الرئاسية الامريكية التي جرت منذ بعض الوقت وفي اعقابها، تميزت سياسة النظام في بغداد بمحاولات تصعيد التوتر في منطقة الخليج وبخلق العقبات بوجه تنفيذ قرارات الامم المتحدة فيما يتعلق بالتفتيش على اسلحة التدمير الشامل العراقية من جانب الامم المتحدة وبالحظر الجوي المفروض على تحلبة طيران العراقي في شمال وجنوب العراق. فضلاً عن محاولات عرقلة وصول مساعدات الامم المتحدة الى الاكراد في الشمال بتفجير عملاء النظام شاحنات نقل المواد الغذائية الى كردستان العراقية.

سياسة النظام الاستفزازية هذه جاءت كنتيجة مباشرة وكرد فعل يائس على قرارين للامم المتحدة كان النظام يأمل ان لا تتم المصادقة عليهما بعد ان فشل الرئيس الاميركي بوش في الانتخابات الامريكية الاخيرة، وهما:

١ ـ التجديد لقوات التحالف العسكرية المرابطة جنوب شرق تركيا لمدة ستة اشهر اخرى، بعد ان منيت محاولات النظام التي بدأها اقليمياً ودولياً للحيلولة دون هذا التجديد بالفشل.

٢ ـ صدور قرار جديد من مجلس الأمن يقضي باستمرار الحظر المفروض على العراق برغم محاولات النظام التي قام بها في الامم المتحدة والتي اتخذت شكل مذكرات من وزارة الخارجية العراقية الى الامم المتحدة أو حضور نائب رئيس الوزراء العراقي طارق عزيز والادلاء ببيانات في المنظمة الدولية تستهدف الغاء الحظر أو تخفيفه على الاقل.

واستهدفت سياسة النظام التي تميزت بتوتير الاجواء في المنطقة وبتصعيد الحملة الاعلامية العراقية على الغرب والامم المتحدة من جهة وعلى الخليج والكويت من جهة اخرى عدداً من الاغراض اهمها:

ـ احراج الرئيس الامريكي بوش سياسياً في الفترة الحرجة التي سبقت الانتخابات الامريكية بهدف ترجيح كفة منافسة الرئيس بيل كلنتون الذي كان يأمل صدام في ان فوزه

في الانتخابات سيوفر فرصة للعراق لبدء علاقات جديدة مع الادارة الامريكية تضع حداً لسوء العلاقات مع ادارة بوش القديمة.

ـ محاولة صرف نظر الشعب العراقي عن الصعوبات التي يعاني منها على صعيد تدهور الوضع المعاشي والارتفاع الجنوني للاسعار فضلاً عن النقص الحاد في امدادات الطعام والدواء وذلك بافتعال معركة خارجية تخفف من الاحراج الذي يعانيه النظام بسبب ذلك، وبهدف استعادة مشاعر التأييد بعد انحسارها في الشارع العربي من خلال الظهور بمظهر التحدي للولايات المتحدة.

ـ وبصرف النظر عن مظاهر الممانعة التي كان يبديها العراق في تنفيذ شروط مجلس الامن فان انصياع العراق لتلك الشروط وتنفيذها عملياً ساعد النظام عن كسب رضا امريكا وشل من فاعليتها وحماسها على العمل للاطاحة بصدام حسين ولكن تنفيذ شروط الامم المتحدة لم يقنع النظام في اعادة علاقاته مع الغرب عموماً ومع الولايات المتحدة بوجه خاص، كما لم تود سياسة العراق في الاذعان لكل ما اراده مجلس الامن من تدابير الى وقف أو تخفيف اجراءات الحظر الدولي على العراق.

ـ وهذا ما دفع بالنظام لتجريب سياسة التشدد ازاء مطالب الامم المتحدة ومطالب الغرب لعل ذلك ينفع في احداث تغيير في السياسة الامريكية والغربية باتجاه التعامل مع النظام العراقي وتطبيع العلاقات معه في ظل قيادة صدام حسين. ومعنى هذه السياسة ان صدام حسين يحاول اقناع امريكا بأنه مثلما كان العراق في ظل قيادته نافعاً للغرب ولامريكا؛ فهو يمكن ان يكون نافعاً مرة اخرى، لاسيما بعد ان اثبت النظام قدرته في الاستمرار رغم مرور فترة تقارب الثلاثة اعوام على اجتياح الكويت.

ـ والنظام العراقي في سعيه لاستعادة الود الامريكي والغربي يوظف لهذا الغرض النزعة التوسعية لايران في الخليج ونزوعها لتطوير برامجها في التسليح ولشراء انواع فعالة من السلاح من روسيا والصين وغيرهما.

ولقد شرع العراق في احداث التوتر في منطقة الخليج الاكثر حساسية للغرب عندما بدأت الطائرات العراقية تخرق مناطق الحظر الجوي المفروضة على جنوب العراق من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا باسم مجلس الامن. اذ صرح ناطق امريكي يوم ١٩٩٢/١٢/٣١ بان طائرات عراقية اخترقت المنطقة جنوب خط عرض ٣٢ وقد عادت الى شمال الخط بعد اعتراضها من قبل طائرات حربية تابعة للحلفاء.

وكان ناطق امريكي قد اعلن يوم ١٢/٢٧ بان طائرة عراقية مقاتلة من طراز ميك قد اسقطت من قبل طيران الحلفاء جنوب خط عرض ٣٢ بعد ان اخترقت الاجواء المحظورة.

وجاء نشر بطاريات الصواريخ العراقية ارض ـ جو في منطقة الحظر الجوي وفي

تخومها في الجنوب بوصفه المرحلة الاخيرة من سلسلة طويلة من التحديات العراقية. وقد ترافق ذلك بعدد من التصريحات الاستفزازية ادلى بها مسؤولون حكوميون كبار ففي ٦ كانون الثاني وبمناسبة الاحتفال بالذكرى السنوية الثانية والسبعين لتأسيس الجيش العراقي اعلن وزير الدفاع حسن علي المجيد: «ان العراق اصبح من الآن فصاعداً قادراً على تحرير اراضي الشمال واقصى الجنوب من الاراضي العراقية.» وهو يشير بذلك الى الكويت . . !

أما قائد القوة الجوية والدفاع الجوي العراقي فقد قال: «ان الدفاع الجوي قادر على المواجهة لاي منازلة مقبلة . . وان الدفاع الجوي العراقي خرج من معركة حرب الخليج وهو اعلى خبرة واقوى عزيمة واكثر استعداداً لمواجهة الطامعين»!

وفي ٨ كانون الثاني ابرزت الصحف المصرية انباء التصعيد في ازمة الصواريخ العراقية قائلة: «بعد ان رفضت بغداد الانذار الغربي فان المخابرات الامريكية اكدت افتعال الرئيس صدام حسين للازمة وذلك من اجل تحويل الانظار عن الاوضاع الداخلية المتدهورة».

يتوقع المراقبون السياسيون ان تبقى السياسة العراقية، خلال مرحلة التسليم والتسلم للسلطات في البيت الابيض، تدور في هذا الاطار، وحتى ذلك اليوم الذي يتفرغ فيه الرئيس الامريكي بيل كلنتون لاتخاذ موقف محدد من صدام حسين فان الاخير سيبقى يلعب لعبة «القط والفأر». . !

افتتاحية (الغد الديمقراطي)

الاستناد الى ارادة الشعب . . طريقنا للخلاص

في الوقت الذي تتفاقم فيه ازمة النظام الدموي في العراق على كافة الاصعدة، خصوصاً بعد قرارات تمديد فترة الحصار الاقتصادي المفروض على ابناء شعبنا، تزداد وتتعاظم، وبشكل خطير، المآسي والكوارث نتيجة فقدان المواد الاستهلاكية الضرورية وتصاعد وتيرة الغلاء الفاحش يوماً بعد يوم، واستشراء الفساد والمحسوبية بشكل لم يسبق له مثيل، وانفلات الامن بعد تكاثر جرائم القتل والسرقات والاعتداء على الاعراض، كل هذه المآسي والكوارث التي حلّت بالوطن والشعب، يتجاهلها الرهط الحاكم، بل ويتمادى الاقزام كأي طغمة مستهترة بكل القيم والاعراف في تحدي مشاعر الناس، ويطالبون دون

حياء وخجل من شعبنا المغلوب على أمره والمبتلى بحكمهم الاسود ان يتحمل الجوع والحرمان، بينما هم ومرتزقتهم القدامى والجدد ينعمون وينهبون ويبذخون من اموال اليتامى والجياع دون رقيب رادع أو وخزة ضمير توقفهم عند حد جشعهم واستهتارهم بأرواح الناس.

ولم يكتف صدام حسين وطغمته بكل هذا، بل يواصلون سياستهم الهوجاء ويوغلون في الارهاب والقتل والاعدام لكل من يجرؤ على تحديهم ويطالب بوضع نهاية لنظامهم الدموي، سواء من قوى المعارضة الشعبية أو داخل المؤسسة العسكرية، ويطلق صدام حسين العنان لافراد عائلته المتسلطة بالحديد والنار للتنكيل بخيرة ضباط الجيش وبأبناء الجنوب الصامد وأهالي كركوك والموصل، بل وحتى بالمقربين المحسوبين على النظام والحزب الحاكم، من اجل اطالة عمره والحفاظ على مصالح الطغمة الحاكمة.

كما وتتعرى في هذه الايام سياسة التواطؤ والدعم الامريكي والغربي غير المحدود للنظام ومنذ عام ١٩٨٢ وقبل غزو الكويت بأيام معدودة، وتكشف الصحافة الامريكية والبريطانية بالذات وقائع التعاون والتنسيق والسعي المتواصل لبناء الترسانة الحربية العراقية من قبل ادارة ريغان ـ بوش وتاتشر ـ ميجر، مما يعطي الدليل القاطع على ان تلك الدوائر التي جاءت بصدام حسين وساندته فيما مضى، هي نفس الدوائر التي ماتزال متمسكة به، خصوصاً بعد ان دعمته وساعدته في كبح انتفاضة آذار الشعبية الباسلة بُعيد اندحار قوات النظام في الكويت، وتنصلها من الدعم المطلوب للاطاحة به كما كانت تدعي وتتظاهر قبل ما يسمى بتحرير الكويت. وهذا الواقع بالذات يسقط حجة كل اولئك الذين يراهنون اليوم على واشنطن رغبتها ايجاد البديل والتخلص من النظام الدكتاتوري، اذ لا يعقل بعد هذه السلسلة الطويلة من الادانة والاستنكار لجرائم صدام ان تقبل الدوائر الغربية التعامل معه لولا ترابط مصالحها مع مصلحة بقائه والتخوف من البديل الديمقراطي أو الشعبي الوطني.

ومما لا شك فيه، ان الخاسر الاكبر من مجيء وبقاء صدام حسين طيلة هذه الفترة ـ والتي طالت بشكل غير معقول ـ ورغم مآسي الحربين الخليجيتين، وكوارث الحصار الاقتصادي، وبحار الدم في كردستان العراق وفي الجنوب والوسط، هو شعبنا الصابر وحده، وسوف يبقى خاسراً ـ لا سمح الله ـ اذا ما استمر هذا الطاغوت في الحكم، واذا ما استمرت واشنطن في فرض الحصار على شعنا دون ان تطال آثاره طغمة الاستبداد.

وما على المعارضة العراقية التي انتهت من اجتماعاتها في صلاح الدين بشمال الوطن، وبعض اطرافها من يراهن على الولايات المتحدة التي باركت هذا اللقاء كما باركت مؤتمر فيينا، عليها ان تدرك وقبل فوات الاوان، حقيقة ما يختبيء وراء سياسة اللف

والدوران والمماطلة واضاعة الوقت من قبل الدوائر الغربية، وتتجاهل ارادة الشعب العراقي بتمسكها بالحاكم الفرد كشرطي في المنطقة، فتبادر الى عزل تلك القوى ـ تجمعات وافراداً ـ وان تعتمد على قواها الذاتية وتتفاعل مع ابناء الشعب في داخل الوطن، وتوحد صفوفها وقواعدها في كردستان المحررة من سيطرة النظام وفي مدن الجنوب الصامد، وان تعمل على فرض ارادتها وهويتها الوطنية العراقية ـ دولياً واقليمياً ـ للبدء في عملية محاصرة النظام المعزول، ومن ثم الاجهاز عليه في الوقت المناسب.

ومهما يقال عن اهمية العاملين الدولي والاقليمي في دعم واسناد حركة المعارضة العراقية، فان مسألة انضاج الظروف الذاتية والموضوعية لتقرير مصير القضية العراقية، تبقى هي العامل الحاسم في عملية التغيير القادمة، تماماً كما كانت عاملاً في تفجير انتفاضة الشعب الشجاعة في آذار ١٩٩١. وان تلك الظروف ما تزال تتفاعل وتتفاقم، وتأخذ اشكالاً متعددة من الرفض والمقاومة والاستعداد هذه الايام لتجديد انتفاضة الخلاص، وهي آتية لا محالة مهما كانت الظروف ومهما طال عهد النظام المتداعي.

ان امام المعارضة العراقية ـ وفي الداخل بالذات ـ مسؤولية تاريخية وهي تجتاز امتحان العمل الحاسم، وتقع على عاتق قواها الفاعلة والمخلصة للوطن والشعب مهمة التوحيد وتطهير صفوفها من اجل رسم سياسة واضحة واعتماد الطريق الثوري، والاستناد الى ارادة الشعب وحده، بل والعمل بين صفوفه وقيادته لتحقيق الانتصار المرتقب. ومثل هذا العمل لا يتم بالكلام والاستعراض وبالوفود والمؤتمرات، بل بالعمل الجاد المتواصل وبعيداً عن الاهواء والمصالح الضيقة أو المكاسب اللاحقة. فقد سبق وان دفع شعبنا الثمن غالياً في السابق، وهو ليس على ستعداد في ان يدفع اكثر إلا في سبيل خلاصه وبناء مستقبل عراقه.

افتتاحية (الاتحاد) ١ ـ ١٠ كانون الاول
الاتحاد الديمقراطي العراقي في اميركا وكندا

القضية العراقية والتحرك الاقليمي

كانت القضية العراقية حاضرة في الزيارة التي قام بها نائب الرئيس السوري السيد عبد الحليم خدام برفقة وفد رفيع المستوى يضم وزير الخارجية السيد فاروق الشرع الى

طهران في بداية الشهر الحالي وكان العراق موضوعاً لاجتماع سابق لوزراء خارجية كل من سوريا وايران وتركيا كانوا قد عقدوه في انقرة في شهر تشرين الثاني الماضي.

وتكشف هذه اللقاءات وسواها عن الاهتمام الاقليمي بشأن العراق ومستقبله السياسي، بعد فترة من الركود حاولت واشنطن الامساك بجميع اوراق اللعبة العراقية، وكان ابرز تجليات ذلك مؤتمر صلاح الدين الذي عقدته اطراف المعارضة العراقية والذي شكل اقصاء للاطراف الاقليمية المهتمة بالشأن العراقي وخصوصاً سوريا وايران والسعودية.

ومع الاخفاقات التي لقيها مؤتمر صلاح الدين على المستوى الدولي من جهة، وربما لعزوف دول التحالف الدولي أو عدم جديتها في متابعة موضوع المعارضة العراقية من جهة ثانية، ونتيجة لتجميد الاطراف الاسلامية العراقية مشاركتها في نتائج المؤتمر المذكور من جهة ثالثة.. ان هذه العوامل مجتمعة ومتداخلة اتاحت للاطراف الاقليمية التحرك من جديد ومحاولة الامساك بالورقة العراقية.

ويأتي هذا التحرك بعد مجموعة من الاحباطات والمشاريع الفاشلة في سماء المعارضة العراقية، ولذلك فان الساحة لم تعد تتحمل مزيداً من الاخفاقات، وباتت ثقتها مهزوزة بأي تحرك قياساً على ما سبقه، ومن هنا فان أي تحرك يريد ان يجنب نفسه المآل الذي انتهى اليه ما سبقه، فانه يحتاج الى قدر كبير من التروي، وحساب المؤثرات بشكل دقيق، والتوقف عند اسباب الفشل بشكل جدي، ونحسب ان الاطراف الاقليمية معنية بالشأن العراقي اكثر من الاطراف الدولية، لا من منطلق البحث عن حصص أو مناطق نفوذ أو الهيمنة على النفط كما تفعل الدول الكبرى، وإنما هي معنية بالشأن العراقي من خلال الحرص على الشعب العراقي من جهة، ومن جهة اخرى فان مصالح هذه الدول تكمن في عراق مستقر سياسياً يمكن ان يتعايش مع محيطه الاقليمي على اساس من حسن الجوار والمصالح المشتركة.

واذا افترضنا سلفاً ان هذه المشاريع ليست لتقطيع الوقت، كما هي ليست في البحث عن مناطق نفوذ، وإنما تستهدف انقاذ العراق والشعب العراقي الذي بات نظام صدام يشكل خطراً أكيداً على حاضره ومستقبله، فالنقطة الجوهرية التي تحتاج الى توقف، والتي نحسب انها من اهم اسباب فشل المشاريع السابقة، هي كيف يحصل التغيير، وعلى يد من؟

ان المشاريع السابقة تجنبت البحث في هذه النقطة الجوهرية، معلقة الامر على عوامل خارجية، ومع فشل هذا الخيار، فان العودة اصبحت ضرورية للاعتماد على العامل الداخلي في التغيير، وهو الشعب العراقي، والشعب العراقي ليس عنواناً ضبابياً يمكن ان يختبىء تحته أي شيء، وإنما تمثيله ودعمه لا بد ان يتم من خلال قوى المعارضة

الاساسية صاحبة الوجود والامتداد داخل هذا الشعب، يعرفها ويودعها ثقته، ويمكن ان يلتف حولها، ولذلك فان تحريك هذا الرهان يأتي من خلال الكف عن النفخ والتشبث بحركات «مجهرية» لا نصيب لها في ارض الواقع، التشبث بها لا لشيء سوى انها تمثل هذا الطرف الخارجي أو ذاك.

وعلاوة على تحديد اداة التغيير، فان النقطة الاخرى التي تحتاج الى تحديد هو امكانية تقديم الدعم المادي الى الشعب العراقي، فشعب في حالة مواجهة مع نظام دموي كنظام صدام لا يحتاج الى دعم سياسي واعلامي فقط وإنما يحتاج الى دعم مادي ملموس، ومن هنا فان التفكير بأي مشروع سياسي يراد له النجاح ينبغي ان يتضمن دراسة مدى امكانية تقديم دعم مادي ملموس لهذا الشعب في مواجهته المصيرية.

نقطة اخرى تحتاج الى دراسة وهي مدى امكانية الانفلات من الارادة الدولية، ذلك ان دول التحالف الدولي لا تفكر في الشعب العراقي، ولا في مصلحته، وإنما تفكر في مصالحها فحسب، وعندما تكون مصالحها مرتبطة ببقاء صدام ـ كما هو حاصل لحد الآن ـ فانها ستعمد الى تعويم أو تعويق أي مشروع جاد يمكن ان يشكل تهديداً لصدام، ومن هنا فان أي تحرك جديد يحتاج الى ان يقدر مدى امكانياته لتجاوز «الفيتو» الدولي، أو عدم الوقوف عند أية اشارة حمراء تنطلق من القسم الآخر من الكرة الارضية.

ان أي مشروع يراد له النجاح لا بد ان ينطلق من خلال تجاوز نقاط الخلل أو الفشل فيما سبق، كي لا ندور في حلقة مفرغة، ولا نكرر الفشل، والقضية لا تحتمل المزيد من الاحباطات، ولا تحتمل المزيد من الوقت.

صادق الركابي

عن (الموقف) ١٤/١٢

تنطق عادة بلسان حزب الدعوة الاسلامية

علامات مضيئة

في الفترة من ١٥ ـ ١٨ انعقد في دمشق لقاءان هامان، الاول ضم قوى وشخصيات هامة في التيار القومي لتفعيل هذا التيار وتصعيد سبل مواجهته للنظام الغاشم في العراق.

في حين اعقبه لقاء ثان عن ممثلين للتيار القومي وآخرين عن القوى الاسلامية في العراق.

واذ تنطلق اهمية التيار الاول من قدرته في النفوذ الى مؤسسات النظام، فان اعتبارات اللقاء القومي ـ الاسلامي كثيرة ابرزها:

● يشكل التياران البنية الاساسية في حركة المعارضة العراقية لا يمكن دونهما تصور اية وحدة نضالية حقيقية لهذه الحركة.

● يستقطب التياران الجماهير الاوسع في الشارع العراقي. وتعتز جماهير شعبنا بانتمائها العروبي وتمسكها بتعاليم دينها واصالة تراثها واللقاء أو التحالف بين التيارين بهذا المنظور يهيىء لاكبر اصطفاف جماهيري ممكن في مواجهة النظام.

● بالقياس الى تشكيل النظام وطبيعة متاريسه التي يتحصن بها، يؤسس اللقاء القومي ـ الاسلامي لافضل حالة تصدي لتفكيك حصانات النظام ومقومات استمراره.

● يؤدي اللقاء الى ممارسة فعلية للتقاليد الديمقراطية أو التعددية التي نطمح لها في بناء عراق المستقبل. فالمسيرة النضالية المشتركة تضمن تأكيداً حقيقاً لتلك التقاليد ينتقل معها الطموح الى مسؤولية يومية حياتية على درب النضال المشترك.

● يعمل اللقاء على فك الاشتباك المفتعل بين التيارين والذي اراده النظام الحاكم في بغداد عبر تزويره للشعارات ومساسه الدائم بالثوابت الاسلامية والقومية على حد سواء، ويساهم بالتالي في العودة الى السوية الطبيعية للوعي الجماهيري والتي تقوم على الارتباط العضوي بين الاسلام والعروبة دون عصبية أو انحياز..

● تساعد تأثيرات التيارين على استقطاب افضل للدول الاقليمية أو دول الجوار الجغرافي تجاه القضية العراقية وتقدم للعالم نموذج قوة اضافية لوحدة حركة المعارضة العراقية الشاملة في التصدي لنظام بغداد.

ومن مجمل هذه الاعتبارات نريد للقاء عملاً جدياً يستهدف تحسين سبل التصدي لاسقاط النظام الحاكم المهزوم في بغداد... عملاً ليس محورياً أو آنياً تحكمه ردود الافعال أو ضغوط الاحداث. وبغير ذلك توهم لا مصلحة فيه للعراق العظيم.

افتتاحية (صوت الجماهير) العدد ٦٧

حزب البعث العربي الاشتراكي

(قيادة قطر العراق)

لنمنع صدام من خلط الاوراق

مرة اخرى يحاول صدام خلط الاوراق وتعتيم الحقيقة مستفيداً من عامل الوقت ومستنداً الى حسابات معظمها قائم على الغش والباطل وبعضها قائم على استثمار المستجدات والتطورات الجارية في المنطقة والعالم وتطويعها لصالحه وليس لصالح اطرافها الحقيقيين.

ان التعسف الاسرائيلي في طرد الفلسطينيين ومذابح المسلمين على يد النازية الصربية تثير غضب واستنكار الشعب العراقي والشعوب العربية والاسلامية والرأي العام العالمي.. وان تردد الغرب في تنفيذ قرارات الشرعية الدولية ازاء ذلك يزيد من مشاعر الغضب والاستنكار ويحولها الى اتهام للغرب بالازدواجية في التعامل مع الاحداث في العالم وفقاً لمصالحه، وهو اتهام لا جدال بصحته.

وفي هذا الظرف بالذات ووسط مشاعر الغضب والاستنكار هذه ووسط مرحلة انتقال السلطة في الولايات المتحدة الى الادارة المنتخبة الجديدة يثير صدام غباره ويعلو صوته بالدعوة للقتال لصون سيادة العراق والتي تعلم اركان الارض كلها انه السبب الاول في ضياعها، فيعلن رفضه لمناطق الحظر الجوي في المنطقتين الشمالية والجنوبية من العراق ورفض أي دور للامم المتحدة في الاغاثة الدولية للشعب العراقي المنكوب وكذلك لفرق التفتيش الدولية وارفق ذلك بنشاطات حربية مقصودة في منطقة الحدود مع الكويت التي يعلم مدى حساسيتها لدى الشعب العراقي وكذلك ضد قوات التحالف الدولي الجوية وهو يدرك مسبقاً ان هذه القوات سترد عليه وبذلك تتضح ابعاد خطته لاستغلال الظروف والتطورات القائمة في المنطقة والعالم.

وثمة حقائق قائمة وستبقى واضحة مهما حاول صدام إثارة الغبار حولها، وأولها ان الهدف الاول والاخير لصدام هو البقاء في الحكم مهما كلف ذلك شعب العراق من تضحيات وكوارث ونكبات ومآسٍ وتعريض امن شعوب المنطقة للخطر.

وثانيها ان صدام هو الذي سعى بكل قواه لكي يدفع العالم كله وليس الغرب فقط لازدواجية التعامل مع حربه العداونية مع ايران وازاء احتلاله للكويت ورفض أي نقد أو حتى ملاحظة بسيطة بشأن استمراره بأعمال القمع والبطش والقتل المنتظم بحق الشعب العراقي منذ استلامه السلطة ولحد الآن وعليه فان ماضيه وحاضره يثبت انه غير صادق في مجابهة

التصرف الغربي، وإنما يحاول استثمار مشاعر السخط القائمة للضغط على التحالف الدولي للتخفيف من قرارات مجلس الامن وبالتالي إلغاء العقوبات والتعامل مع نظامه بما يعزز من فرص بقائه في الحكم.

وثالثها ان ينبغي التمييز بكل وضوح بين صدام والحلقة الضيقة المحيطة به، وبين شعب العراق وجيشه، وان أي اجراء دولي يجب ان يأخذ هذه الحقيقة في مقدمة الاعتبارات، ولذلك فان العقوبات والاجراءات الرادعة ينبغي ان تنال رأس النظام وأجهزة امنه وحرسه في الدرجة الاولى لان اضعافها وإلحاق اكبر قدر من الضرر بها سيخلق الظروف المناسبة لقطعات الجيش النظامي وقوى الشعب العراقي من توجيه الضربة الاخيرة وانهاء الدكتاتورية.

ورابعها ان تهاون مجلس الامن والغرب بالذات في اتخاذ اجراءات سريعة ورادعة في التحدي للتعسف الاسرائيلي والعدوان الصربي لا يبرر بالضرورة الدعوة الى تخفيف أو إلغاء اجراءات صحيحة اتخذتها الشرعية الدولية ازاء صدام، اذ ان من شأن ذلك لو حصل إلغاء كل القيود ورفع الضغوط التي تمارسها قرارات مجلس الامن على نظام صدام والتي هي بحد ذاتها وسائل غير كافية واجراءات ناقصة لمنع صدام من مواصلة اعمال القتل والقمع التي يتعرض لها الشعب العراقي على اوسع نطاق.

كما ان إلغاء هذه الضغوط يعني اطلاق يد صدام ومساعدته في جرائمه ومساعيه المحمومة لتكريس بقائه متسلطاً على الشعب العراقي الى مديات طويلة.

ولكل ذلك فانه ينبغي التمييز بين الحق والباطل وبين الدعوات الصادقة والدعوات التي ظاهرها حق ويراد بها باطل.

ان الحق هو ان تواصل الامم المتحدة ضغوطها على صدام وان تجبره على وصول الغذاء والدواء للشعب العراقي المنكوب وان تمنعه بوسائل فعالة من مواصلة القمع والمجازر الجماعية، كما ان الحق هو في الضغط على الغرب لتنفيذ قرارات الشرعية الدولية بشأن التعسف الاسرائيلي والصربي. وبعكس ذلك فان الاستجابة لتضليل صدام وغشه ومحاولاته لخلط الاوراق يعني تمكين صدام من ممارسة سياساته العدوانية ضد شعب العراق وشعوب المنطقة.

عن (بغداد) ٢٢/ ١

الوفاق الوطني العراقي

اسقاط النظام . . مهمة العراقيين

عادل رؤوف

لقد شكلت الانتخابات الامريكية هاجساً كبيراً في فترة زمنية طويلة لبعض المعنيين بالقضية العراقية، وبقيت موضوعة انتقال الرئاسة الامريكية الى كلنتون بعد ان ودعها أو ودعت جورج بوش لا تقل أهمية في هواجسها من الفترة الانتخابية لدى العديد من المهتمين بتطورات الوضع في العراق، وربما ان هذه الهواجس خرجت عن حدودها الطبيعية، وخرجت عن دائرة التداخل المعروفة بين الولايات المتحدة كدولة عظمى وبين أي مركز اقليمي من وجهة نظر بعض المراقبين السياسيين والاعلاميين.

ففي عالم كالذي نحن فيه تترابط المصالح والاحداث بشكل جدلي، وفي عالم كبار وصغار، يبقى التوزان تارة، والاستغلال تارة اخرى يشكلان دوافع اساسية لايجاد معادلة الترابط تلك. . لقد تعدت الهواجس تلك الحدود وتلك الدائرة لاسباب عديدة تتعلق بالاوضاع بين دول العالم الكبرى لاسيما الولايات المتحدة وبين نظام صدام حسين من جهة، وبين هذا النظام والمعارضة العراقية من جهة اخرى، اذ ان ازمة الكويت ادت الى مواجهة بين واشنطن وصدام حسين بدل حالة التحالف التي كانت تربطهما، كما انها ادت الى ان تجعل كلاً من المعارضة العراقية والعالم في نفس موقع المواجهة، وبالتأكيد ان وحدة الموقع تلك لم تكن وحدة كلية أو شمولية إنما وحدة في شكل المواجهة فقط أو بتعبير ادق في عنوان المواجهة، فالمعارضة العراقية الآن وقبل الآن ترى بان صدام حسين هو صنيعة استعمارية، وترى بان المسؤول عن ايجاد دكتاتور العراق هو دول العالم الكبرى التي رعته وزودته بالاسلحة، ودفعته في فترات معينة الى ممارسة الارهاب الخارجي والداخلي وشن الحروب، واضطهاد الشعب العراقي ولازالت المعارضة ترى بان ما انزلته هذه الدول من دمار بالعراق لم يكن اجراءً ردعياً بريئاً ووحيداً. فقبل بدء الحرب، حرب الحلفاء على العراق، كانت خيارات الخروج من الازمة قائمة وعديدة، وبعد ان حلت كارثة الحرب ودمر العراق المدني والعسكري بجزئه الاكبر، بادر الشعب العراقي الى خيار آخر في انهاء المأساة، ولكنه ايضاً اطيح بهذا الخيار دولياً وهو خيار الانتفاضة، وما بين الانتفاضة والهجمات العسكرية الاخيرة كانت هنالك خيارات اخرى عديدة، قد تبلورت

للتعاطي مع القضية العراقية، وكل هذه الخيارات لم تعط اذناً صاغية من قبل الدول الكبرى.

من هنا يمكن القول ان طرفاً من اطراف المعارضة لم يطالب واشنطن باسقاط صدام حسين كبديل عن الشعب العراقي والمعارضة العراقية، لان مهمة الاسقاط هي مهمة عراقية اولاً واخيراً وعندما اصرت دول الحلفاء على اعتماد اسلوبها التدميري في مواجهة العراق في الحرب قبل سنتين، تحرك الشعب العراقي لكي يأخذ هو المبادرة ويقوم بمهمة التصدي للنظام بنفسه، بعد ان تهيأت الظروف للقيام بهذه المهمة، وعليه فاذا كان هنالك من اهتمام في تحولات الادارة الامريكية أو تبدلاتها فهذا الاهتمام يرتبط بتداخل العامل الدولي بالقضية العراقية في الابعاد الداخلية والقانونية والانسانية وفي بعد المسؤولية التي تتحملها دول العالم وعلى رأسها واشنطن عن رعاية هذا الطاغية.

ففي البعد الداخلي، ومهما قيل عن محدودية دور المعارضة أو الانتقادات الموجهة اليها، فان الامر لا يبدو وكأنه معادلة بسيطة واضحة، انه امر يتعلق في جوهر المواجهة والفوارق الجوهرية بينها وبين أية مواجهة اخرى بين أي نظام ومعارضة تشهدها دولة من دول العالم، فالعالم لم يسمح لحاكم ان يستخدم السلاح الكيمياوي ضد الشعب والمعارضة في نقطة من نقاط الارض، والعالم لم يشهد حاكماً مستعداً لابادة شعبه كحاكم العراق، وانطلاقاً من هذا الاستثناء في التعاطي الدولي مع القضايا العالمية، فان المواجهة بين المعارضة والنظام معكوسة الى جملة من الامور لا بد من الاحاطة بها، وهي امور داخلية لكنها ترتبط بالعامل الدولي ودوره في تحييد ادوات الموت والدمار التي زود بها طاغية العراق، واذا كانت المعارضة العراقية قد اعتمدت اسلوب العمل السياسي أو لجأت الى مخاطبة «الشرعية الدولية» ودول العالم الكبرى بغية ممارسة دورها في هذا التحييد، فان ذلك لا يعني بانها ربطت مصيرها بهذه الدول، ولا يعني ان التحولات التي قد تطرأ في سياسة دولة ما - مهما كانت كبيرة - ستضع حداً لتطورات القضية العراقية وفق مزاج هذه الدولة أو تلك، صحيح ان تلك التحولات ستتحرك آثارها السياسية في دائرة الترابط المذكور، وصحيح ان مهمات انسانية كبيرة تكون قد اسقطت من اعتبارات هذا العالم، وصحيح ان شعوب المنطقة ستقتنع ان يقال عن القانون الدولي، ما هو إلا لون من الوان الخداع، إلا ان الصحيح ايضاً هو ان القضية العراقية سوف لا تنتهي الى ما يخطط لها الآخرون، ففي العراق الآن شمال وجنوب محكومان الى ظروف استثنائية قاهرة ومواجهات ورفض مطلق للسلطة، وفي العراق بغداد لا يمكن لها ان تبقى ساكتة الى ما لا نهاية، بغداد مدججة بالسلاح ومطوقة بالمدافع وفي العراق حالة ثورية لا يمكن ان ينهيها صدام حسين، مهما لجأ الى اساليب الابادة، وخارج العراق ثلاثة ملايين عراقي لديهم قضية لا

يمكن ان تُقبر الى الابد تحت ركام الظلم الخارجي.

ان كتلة الرفض هذه ادت دورها ولازالت تؤدي دورها في مواجهة نظام صدام حسين، ولكي تأخذ المواجهة شكلها الطبيعي لا بد من ازالة العوامل الاستثنائية التي تحكمها. لا بد من تحييد الآلة الحربية للنظام، وتحييد الغازات السامة، من خلال القانون الدولي، والبعد الانساني، وتعويض الشعب العراقي دولياً عن المظالم التي لحقت به من جراء تواطؤ الدول الكبرى مع صدام حسين، وهذه الابعاد هي التي تشكل المسافة التي تحركت عليها المعارضة العراقية في تعاطيها مع العامل الدولي، وفي داخل هذه المساحة يقع التأثير المتبادل بين التغيرات في الادارة الامريكية والتحولات العالمية والقضية العراقية.

ان استنهاض هذه الابعاد القانونية والانسانية والداخلية امر تفرضه تعقيدات القضية العراقية، وان الخطاب السياسي المعارض الذي استنهضها لاكثر من سنتين مضت لم يخلط قط في المهمات ولم يسحب تلك الابعاد ليحولها الى مطاليب من دول العالم للقيام بمهمة اسقاط النظام بدلاً من المعارضة العراقية والشعب العراقي، إلا ان هذا الخلط يلاحظ في بعض الخطاب الاعلامي العربي، حيث يتهم المعارضة بالاعتماد على القوى الخارجية، ويلاحظ في الخطاب السياسي الدولي في اوقات معينة تحاول فيها دول هذا الخطاب ان تبرر التنصل من مسؤوليتها في تعويض الشعب العراقي عن مظالمه، أو ان تعرقل مهمة القانون الدولي الذي عليه ان يلاحق صدام حسين كمجرم حرب بتوافر كل الثوابت والادلة المطلوبة.

ومن ناحية اخرى فان استنهاض الوجدان الدولي، أو المطالبة في تفعيل القانون الدولي في خطاب المعارضة العراقية لا يقوم على تصورات سطحية حول «حسن نية» العالم أو توضيح الامور امامه، إنما هو يقوم على اساس الوعي بالمصالح المشتركة.

وفي الختام لا بد من تكرار القول بان اسقاط صدام حسين هو مهمة عراقية، يمكن ان تنجز بمساعدة اقليمية وتفعيل لدور القانون الدولي.

عن (نداء الرافدين) ٢٣/ ١

تعبّر عادة عن رأي المجلس الاعلى للثورة الاسلامية


فكر علمي
ثقافة تقدمية